بدرية البدري

فومبي

مكتبة نوميديا

فومبي

لوحة الغلاف للفنان الألماني Paul Klee

بدرية البدري

فومبي

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2022

الطبعة الإلكترونية، 2022

ISBN-978-614-03-0276-1

Published 2022 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

26 Westbourne Grove, London W2 5RH, United Kingdom

Tel: +44 (0) 20 7221 9347; Fax: +44 (0) 20 7229 7492

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

يا أمي كم نحن سيّئو الحظ

ولكن الشمس ستقتل الرجل الأبيض

ولكن القمر سيقتل الرجل الأبيض

ولكن الساحر سيقتل الرجل الأبيض

ولكن النمر سيقتل الرجل الأبيض

ولكن التمساح سيقتل الرجل الأبيض

ولكن الفيل سيقتل الرجل الأبيض

ولكن النهر سيقتل الرجل الأبيض

"شبح الملك ليوبولد"، أغنية شعبية

من دولة الكونغو، آدم هوتشايلد

ترجمة أيمن توفيق

إنّ ما ستقرؤه بينَ دفّتَي هذه الروايةِ أشبهُ بمخلوقٍ قبيحٍ جُمِّل كثيراً ليحتملَ العالمُ رؤيتَه.

قد يمرّ في بالك للوهلة الأولى أن الرواية تتحدث عن حقبةٍ ولّت، لكنّك لو رفعتَ بصرك قليلاً عن الورق ونظرتَ حولك لوجدت أبطالها يحيطون بك، ولا أظنّك ستنصدم إن رأيت نفسك بينهم، تلبس أجسادهم، وتمارس أدوارهم، وربّما – أقول ربما – ترفع يدك عالياً، ليهبط الشيكوت على جسد أحدهم.

إن الكثير من الحبّ لن يضرّ هذا العالم، لكننا نظنّ أننا وحدنا من يستحقّه، كما نظنّ أننا وحدنا من يشعر بالألم. لذلك، نتساءل دائماً عن الذنب الذي ارتكبناه لنتألم. هذا التساؤل ذاته طرحه أبطالُ الرواية، ومثلكم ظنوا جميعهم أنْ لا ذنبَ لهم، لكنهم كانوا مضطرّين لأن يدفعوا ثمن ذنبٍ لم يرتكبوه، مثلكم ربّما.

هذه الرواية ليست من النمط المألوف. إنها أشبه بقاعة محكمة، فيها ضحايا ومجرمون، يقدّم كلٌّ منهم أدلّته ويدافع عن نفسه، والقارئُ هو القاضي الوحيد.

الفصل الذي انتهت عنده الحكاية، أو ابتدأت بعده ربما

الموت بشع، كرجلٍ ضخمٍ يضع على عينه اليسرى عصابة سوداء، ويمشي حاملاً في كفه دلواً مملوءة بالدماء، بينما تتدلى من كفه الأخرى أجساد أطفالٍ بلا رؤوس. يتضاعف إلى مئات الأشباح، كل واحد منهم يحمل منجله، ويحصد فرداً من أهل قريتي، حتى إذا ما أنهوا مهاهم، عادوا للتجمع في هيئة رجلٍ واحد، يحمل في يديه مئات الضحايا، ويرتفع بهم عالياً. تتقاطر الدماء فوق رأسي، أكاد أغرق، لا أفكر في النجاة، بقدر ما أفكر في اللحاق بهم، وما إن أقترب منهم، حتى يرمي الجثث من يده، ويطوح بها بعيداً، ويرفعني ممسكا بعنقي، وهو يضحك:

"لم يحن وقتك بعد أيها الأحمق"

في كل ليلة أراه، لا أعلم إن كنت أطارده، أم أنه هو من يطاردني. كل واحد منا يركض خلف صاحبه، في دائرة لا بداية لها، ولا نهاية. أركض، وهو يركض خلفي، ولا أظنه يعلم أنني لا أفعل شيئا سوى الركض خلفه. هكذا كلّ ليلة حتى أستيقظ وأنا غارق في الدماء. دماء لا لون لها، لكنها برائحة الموت.

أشعر بالألم في كل خلية من خلايا جسدي، لكن أكثر ما يوجعني هو قلبي العاجز عن رفع صوته ويديه ليدُافع عن نفسه، روحي المحبوسة بداخل جسدي، تنهشها ذاكرةٌ لم يُجدِ معها التناسي، دون أن أملك القدرة على ردّها، أو التحرر من سجنها الأبدي.

هناك حيث الوجعُ لا يهدأ، سأهب رصاصتي مُستَقرَّها، لتقتله، وتأخذه في طريقها إلى سلب روحي. هذا الوجع لا يستحقّ الرأفة به، ولا الاستسلام له. لم يعد بإمكاني احتماله، أو مهادنته. إنه يغوص في داخلي أكثر فأكثر كلما مضى الوقت وأقنعت نفسي بالنسيان، يثور حتى يكاد يقتلع قلبي، وكأنَّ يداً تمتدُّ إليه فتعصره بكل ما أوتيت من قوة.

فإذا ما استسلمت لصموده كالت إليه الركلات، وهي تعلم أنه لا يستطيع التكوّر على نفسه لدرء هجماتها، ولا يمتلك صوتاً ينادي به على الموت، ويستغيث به لينقذه.

الفصل الأول

كلّ الحكايات لها بدايات لا يعرفها إلّا أصحابُها

ستانلي

5–1

"احضر إلى باريس لأمرٍ مهم"

علت الابتسامة وجهي وأنا أُقلّب البرقية بين يدَيّ، نظرت إلى الاسم المرسل إليه طويلاً قبل أن أُوقّع تحته بصفتي حامله، فلا اسم سواه يمت لي بصلة، أنا الذي اخترت اسمي، وصنعتُه حتى أصبح ما هو عليه الآن.

"أنا لست جون رولاندز ولا حتى جيمس هورن، واسمي الذي سأحمله يوماً سأكتب أحرفَه بنفسي دون أن يعلمني إيّاها أيّ أحد ولا حتى أنتِ"

هذا ما قلته للمرأة التي قالوا لي إنها أمي حين رأيتها لأول مرة، وأنا في الثانية عشرة من عمري في إصلاحية سانت أساف، بعد أن أكّدَتْ أنها ستعرف والدي عندما أكبر وأصبح مثله. فإن اندفعتُ للشرب كثيراً، وتركتني المرأة التي أحبتني لأموت ميتة الكلاب في أحد الشوارع، بعد أن تملَّ من اصطحابي لغرفتها للمبيت معها، فلن يكون والدي إلا جون رولاندز، الذي وقعت القرعة عليه لأحمل اسمه. أما إن أصبحتُ رجلاً مرموقاً فلا بدّ أن والدي سيكون ذلك الرجل المحترم جيمس هورن، فشكلي يبدو قريب الشبه منهما هما الاثنين فقط، لكنّها تعود وتؤكد أنه ليس بالضرورة أن يشبه الأبناءُ آباءَهم.

"لست متأكدة، قد تكون ابنَ رجلٍ آخر نجح في إغوائي لقضاء ليلةٍ معه"

نظرتْ إليّ مليّاً قبل أن تقول ذلك ببرود، ثم انصرفت لقراءة بعض الأوراق التي ستوقع عليها قبل أن تخرج. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي سألتها فيها عن والدي المحتمل، دون أن أخبرها أني لا أهتم بهويةٍ رجلٍ لم يسألْ عني يوماً، ولم أكن بالنسبة إليه إلا لحظة متعة نسيها بمجرد استيقاظه، وخروجه من غرفتها صباحاً، وأنّ كل ما يهمني حمل اسمٍ أستحقّه، اسمٍ لا تمنحني إياه الصدفة، أو حجر نردٍ رُميَ عالياً في الهواء، قبل أن تلتقطه يد أحدهم، وتمنحني مصيري، أو قرعة تحتمل الخطأ بخمس مراتٍ أكثر مما تحتمل الصواب، بعدد الرجال المحتمل تكوّني من أصلابهم.

عندما أخبروني في ذلك اليوم أن امرأة غريبة تُدعى بتسي باري طلبت رؤيتي، وعرفت فيما بعد أنها أمي، اضطربت مشاعري لأني ظننت أنها أتت لاصطحابي، فأنا لا أعرف تلك المرأة، ولا أعرف كيف يمكن لحياتي أن تُصبح معها. يقولون إنها أمي، ولكن أيّ أمٍّ هذه التي لا ترى وجهها إلا بعد اثني عشر عاماً من الضياع؟ تمنيت أن تعود من حيث أتت، وأن تتركني لأكمل تصحيح ما ارتكبَتْهُ من أخطاء، ودون أن يتأكد الرب من صدق أمنيتي تلك، استجاب لها، فرحلَت دون أن تسألني إن كنت أرغب في الذهاب معها أم لا، تاركةً طفلين جديدين، سيتعين عليهما أن يتعلما تصحيح عيوبهما التي ولدتهما بها، طفلين لم تربطني بهما أيّ علاقة، ولم أسعَ للتعرف إليهما، أو معرفة أي شيء عنهما.

عرفت في ذلك اليوم ولأول مرة معنى أن تكون لقيطاً بلا أبٍ يحملك على كتفه، وكل ما تفعله أمك أنها تنجب أطفالاً آخرين تهبهم مصيرك، وفيه قررتُ ألا أكون ابن أحد، أنا ابن نفسي، وما سأكونه لن يشبه أحداً سواي، مهما تعددت البيوت التي تنقلت أو

سأتنقل بينها، بدءاً من منزل جدي الذي قضيت فيه خمس سنوات من عمري، إلى منزل العائلة التي لا أتذكر منها الآن إلا ابنهم ديك الذي اصطحبني إلى منزل العمة ماري — كما أخبرني حين أخذني معه — لأن أخوالي لم يقبلوا بزيادة المبلغ الذي يدفعونه لهم مقابل رعايتي، ولا منزل العمة ماري الذي لم يكن إلا إصلاحية سانت أساف التي قضيت فيها ما تبقّى من طفولتي.

الأعوام التي قضيتها في سانت أساف لا يمكن لأي صفة أن تنطبق عليها حقاً، إنها لا تشبه شيئاً كما تشبهني، أنا القادم من صلب رجلٍ لا أعرفه، ابن الخطيئة المتعمَّدة، والمنبوذ من كل من يعرفني، أشبهها كثيراً، بذلك الظلام في داخلي، والصوت المكتوم كذنبٍ لا مفرّ من الوقوع فيه ذات يوم، والخوف الممتد من أقصى الروح إلى مدِّ البصر.

هناك اكتشفت لأول مرة معنى تلاصق الأجساد العارية، وخطف الأطفال من أسرّتهم ليعودوا بأعينٍ مُحمرّة وأيادٍ تنام على عوراتهم وكأنها تخبئها من سارقٍ ما قد يأتي بعد أن تنام. وهناك قررت ربط كل ما أراه في الليل في أول خيطٍ للشمس يتسلل للاقتراب من جسدي، لتسحبه خلفها وهي راحلة قبل انقضاء ذلك اليوم، ومسح كل ما أواجهه من تحديات، ومنغصات، وعدم التفكير بشيء سوى الدراسة، والتفوق فيها، والتدرب على تقليد الخطوط الصعبة والرسومات التي أشاهدها.

لم أرسم يوماً شيئاً لم يرسمه أحد من قبلي، ليس لأني لم أفكر في ذلك، بل لأني لم أشأ أن يكون للاسم الذي اعتادوا مناداتي به في سانت أساف شأن. فلئن أكون ظلا لا ينتبه أحد لامتداده، ويحاول إعاقته، أفضل من أن أثير انتباه من حولي فيمدوا أقدامهم أمامي لأتعثر بها كلما حاولت التقدم خطوة.

السعادة التي كنت أشعر بها عند امتداح خطي ورسوماتي، لم تصل لتلك التي شعرت بها عندما منحني الأسقف المحلي إنجيلاً كمكافأة لي على تفوقي في الدراسة، رغم أن هذا التميّز لم يكن هدفاً، بل مجرد خطوةٍ في الطريق الذي ينتظرني خارج الإصلاحية.

بعد زيارة بتسي باري بثلاث سنوات خرجتُ من سانت أساف، وتنقلت من مكانٍ إلى آخر. ما إن تطأ قدماي مكاناً حتى تغادره، يلاحقني الإحساس بالرفض، الإحساس ذاته الذي ولد معي، وانتقل للعيش في منزل جدي، ثم منزل عائلة ديك، كما لامس كل الوجوه التي صادفتها. وحدَها سانت أساف كانت تعني لي القبول المشروط بعدم الاعتراض على أي شيء.

كنت أظن أني سيّئ الحظ، لكن انتقالي للعمل على متن السفينة الأميركيّة ويندرمير الراسية في ميناء ليفربول، بعدما عرض عليّ قبطانها الإبحار معهم إلى ميناء نيو أورلينز بعد توصيلي لطلبية لحم من محل قريبٍ كنت أعمل فيه أثبتَ عكس ذلك. ففي نيو أورلينز، لم تعد الحياة كما كانت من قبل.

هناك التقيت بالسيد هنري ستانلي، الذي أعجب بشهادتي التي قدمتها له، والتي لم تكن إلا **الإنجيل** الذي أهداني إياه الأسقف، معترفاً بأنها المرة الأولى التي يقدم له أحدٌ مثل هذه الشهادة أثناء طلبه للعمل معه، لكنّ الخلافات التي كانت تحدث بيننا بين فترةٍ وأخرى، اضطرتني لترك العمل لديه بعد أن طلب مني المغادرة.

ساءني الأمر كثيراً، لأن مغادرتي قد تتسبب بفشل خطتي التي كنت قد بدأت بتنفيذها بالفعل في سريةٍ تامة، فقررت عدم السماح له بذلك. سأترك العمل، لكني لن أترك له اسمي الذي تعبت من أجل الحصول عليه.

فكرت في الكثير من الأسماء التي تتناسب مع شخصيتي، وتبدو متوافقة مع اسم هنري ستانلي. وكأنني أصبحت أباً للمرة الأولى، وعليّ اختيار الاسم الذي سيرافق ابني مدى الحياة، وأن أجعله يشعر بالسعادة كلما ناداه أحدهم باسمه. جربت الكثير من الأسماء، وأضفتها لاسمي، لكنها جميعها لم تعجبني، حتى استيقظت في صباح أحد الأيام كمن عثر على كنزٍ دفنه أحد البخلاء ذات يوم، ولم يتمكن من الوصول إليه أحدٌ قبله.

"مورتون، نعم مورتون"

هتفْتُ وأنا أقفز من فراشي. أليست الحياة الجديدة، نظيفة التاريخ، بمثابة الكنز الذي يختص به الرب بعض عباده الصالحين، وأنا واحد منهم، وإلا لماذا أهداني الأسقف ذلك **الإنجيل** ليرافقني طوال حياتي؟

هنري مورتون ستانلي، هكذا أصبح اسمي بعد أن قلّدت توقيع السيد ستانلي، وأصبحت ابنه بالتبني. أنا لا أريد مالاً، ولن أطالب بإرثٍ عندما يموت، كل ما أريده اسمه، وعليه أن يشكرني إن عرف بذلك بدلاً من أن يغضب، لأنني سأُخلِّد اسمه عندما أصبح ابنه الذي لم ينجبه طوال حياته.

لم تكن لي من قضية في حياتي إلا اسمي، أما وقد حصلت على اسمٍ كما أتمنى، فما عليّ الآن إلا إثبات استحقاقي لهذا الاسم الأميركي، ونسيان أصلي البريطاني، ولذلك تطوعت في جيش الجنوبيين عندما اندلعت الحرب الأهلية الأميركية، كنت حينها في الحادية والعشرين من عمري، لكنني بعد يومٍ واحدٍ فقط من مشاركتي وجدت نفسي أسيراً بعدما حاصرني ستّةُ جنود شماليين.

إن كان على أحدٍ الاستسلام على وجه هذه الأرض، فبالتأكيد لن أكون أنا. وهكذا، وجدت نفسي متطوعاً لدى الشماليين، ولا أعلم كيف انطلت حيلتي عليهم عندما أخبرتهم أنني تطوعت لدى الجنوبيين لزعزعة صفوفهم من الداخل؛ فأنا نفسي لم أقتنع، خاصةً أنني لم أبذل أي جهدٍ لجعلهم يصدقوني، وكل ما فعلته أنني أشعرتهم بسعادتي لنصرهم، وحسرتي لأني غير قادر على الاستمتاع بحزن الجنوبيين لخسارتهم.

ظننتُ أنني سأظل أتنقّل بين الفريقين، تارةً مقاتل وتارةً أخرى أسير، عدو اليوم يُصبح حليف الغد، وحليف الأمس هو عدو اليوم، ولكن الدوسنتاريا التي أصابتني خلصتني منهما، وحصلت بسببها على تسريحٍ طبي، وهكذا اكتشفت أنني لم أُخلق لخوض الحروب.

وجدت نفسي أخيراً أمتهن العمل الصحافي، فهذا العمل يليق برجلٍ نبيل، يملك لغةً تهادنه ويُطوِّع كلماتها كيف يشاء، ولم تعد صحيفة سانت لويس وحدها من يستقبل برقياتي أثناء تغطيتي للحرب في الهند، بل كل صحف الساحل الشرقي.

الصحافة لا تُريد مراسلاً صادقاً، إنها تريد من يأتيها بالأخبار التي تزيد مبيعاتها، وهذا ما كنت أفعله. ففي الوقت الذي كانت فيه الحرب في الهند توشك على الانتهاء، كنت أرسل أخباراً عن معارك طاحنة، وعن هنودٍ يقتلون البيض، ولا يودون الإبقاء على أحد منهم في أراضيهم، وكانت هذه الأخبار سبباً في لفت الأنظار إليّ. وبعد صحف الساحل الشمالي، كانت صحيفة نيويورك هيرالد، حين بعث لي السيد جيمس جوردون بينت الابن، لأذهب لتغطية الحرب البريطانية ضد إمبراطور الحبشة[1] تيودروس الثاني أو كاسا هيلو كما يسمّيه أهل الحبشة.

1 الحبشة: أثيوبيا حاليّاً.

في مدينة السويس رشيت موظّفي التلغراف، وأرسلت تقارير عاجلة عن المعركة التي ربحتها بريطانيا، رغم أنها لم تكن كذلك فعلاً، إلا أنّ السماء باركت هذه الخطوة. كيف لا وأنا أحمل **الإنجيل** الذي أهداني إياه الأسقف، فكُسر كابل التلغراف الرئيسي في البحر الأبيض المتوسط، ولم يتمكن سواي من إرسال تقاريره، ولا حتى الجيش البريطاني.

وهكذا، أخيراً، وبعد سبعة وعشرين عاماً من الكفاح في هذه الحياة والتمردّ على كل ما من شأنه تحطيم إرادتي ونبذه خلفي، وجدت نفسي مراسلاً صحافياً خارجياً دائماً لصحيفة نيويورك هيرالد.

في الحقيقة لم أهتمّ يوماً بصدق ما أرسله، ولم يكن لي من هدف إلا ربح معركتي في الصحافة، بغض النظر عن انتصار بريطانيا في الحرب من عدمه. ورغم أن بريطانيا انتصرت فعلاً في النهاية، فإن النصر الذي حققتُه كان أبلغ وأشدّ تأثيراً منه، وإن تشابهت المعركتان في صعوبتهما.

بسبقٍ صحافي شكّل فرقاً في تاريخي الصحافي عدت إلى بريطانيا، ولكن ليس كما خرجت منها. خرجت منها لقيطاً تقاسمت رعايته العائلات، وغُرف الإصلاحيات، وعدت إليها صحافياً ذا شأن، إن لم أكن من أشهر المراسلين الخارجيين. خرجت منها وأنا جون رولاندز وعدت وأنا هنري مورتون ستانلي.

الملك ليوبولد الثاني

6–1

قدر كلٍّ منا يولدُ معه في هذه الحياة، وقدري كان أن تتسع عيني عن آخرها، وتظل فارغة، باحثة عما يملؤها، ولا يملؤها إلا مستعمرة ما، مستعمرة بلا حدود على مد البصر، تدفع لي بدلاً من أن أشتريها، مستعمرة تضع بلجيكا بجوار الدول العظمى، وتضعني أنا الملك ليوبولد الثاني على قائمة ملوكها، أو لنقل أباطرتها.

شغفي بالجغرافيا لم يكن عبثيّاً، لقد مثّلت لي البلاد الكبيرة التي ستخرجني من حدود بلادنا الصغيرة؛ سمعت من خرائطها صوتاً يناديني لأتبعه فتبعته، ومضيت حيث أخذني دون أن أعترض، أو أتردد ولو قليلاً.

فيما عدا لوكسمبورغ، تبدو بلجيكا كابنةٍ صغيرة غير مدللة للدول التي تحيط بها. ورغم صغر لوكسمبورغ فإنّ الدوق هناك يملك الكثير من الغابات التي وددت لو كان نصفها فقط بحوزتي؛ فأن تكون حاكماً لبلد صغير كبلجيكا أشبه بأن تكون حاكم إقليمٍ في بريطانيا، أو مجرد دوقٍ في النمسا، وقد ارتضى أبي ذلك، إلا أنني لن أواصل العيش مستسلماً مثله للوضع الذي فُرض عليّ، وألعب دور الملك المسالم، الذي يقف محايداً تجاه كل ما يحدث حوله.

ربما خشي أبي من التورط في حربٍ تعيد بلجيكا لحكم أيٍّ من إسبانيا أو فرنسا أو النمسا، أو حتى هولندا التي ظلت تحاول استعادتها، لكني مستعد لفعل ما لا يمكن لبشرٍ تخيّله في سبيل ألا يحدث ذلك، بل ليُصبح لبلجيكا ذاتها مستعمراتها الخاصة، التي تُطاول بها تلك الدول، وحبذا لو أصبح لي أنا شخصيّاً مستعمراتي الخاصة التي لا يشاركني فيها أحد، ولا حتى بلجيكا.

أذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، الغرفة ذاتها التي لم أتمكن من الدخول إليها صغيراً إلا بعد أن يمنحني أبي موافقته الخطية بعد رسالةٍ أرسلها له مسبقاً، لأطلب منه محادثته في أمرٍ ما، فإن كان في مزاجٍ رائق رد عليّ بالموافقة، وحدد موعداً بعد يومٍ أو يومين، وإن كان منزعجاً من أمرٍ ما لا يُرجئ الرد، بل يرفض طلبي مباشرة.

أنا الفتى الدميم، ذو الأنف الطويل، الذي لم يشبه والده، والثعلب الحذر والمراوغ – كما اعتاد وصفي – إذ لم يكن لي حسنة سوى ذكائي ومكري وصمتي الذي كان يُبدي إعجابه به، مشيراً إلى أنه دلالة نُضج، وعقلٍ لا يكفّ عن التفكير، لكنه لم يسألني ولو مرة واحدة فيمَ أفكر، وبكثير من اللامبالاة بما يشغلني خطب لي من دون أن يستشيرني ابنةَ الأرشيدوق يوزف، لتوطيد علاقته مع إمبراطور النمسا والمجر، كما زوّج لاحقاً، وبعد أربع سنواتٍ فقط، شقيقتي كارلوتا التي كانت حينها في السابعة عشرة من عمرها بالأرشيدوق ماكسيميليان.

كلانا لم نجنِ من هاتين الزيجتين سوى الألم، فلم تكد شقيقتي تسعد بتتويجها إمبراطورة على المكسيك هي وزوجها، حتى انقسم المكسيكيون بين مؤيدٍ ورافضٍ له. كان قد مر على زواجهما سبع سنوات، ولم تكد تنقضي ثلاث سنوات أخرى حتى أصبحت أرملة

بعد إعدام زوجها، وأصابها الجنون من أثر الصدمة، فاضطررتُ لحبسها هي وخدمها في أحد القصور.

على النقيض من ماري هنرييت، كان ماكسيميليان صاحب ذوقٍ رفيع، لطيفاً وودوداً حتى مع أعدائه، لدرجة أنه منح كل ما في جيبه من نقود لمن نفذوا فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص، معلناً أن تمسكه بالحكم لم يكن لمصلحة شخصية، بل لأنه لم يشأ أن يتخلى عن أتباعه الذين طالبوه بالبقاء لأجل المكسيك التنويرية التي يتمنونها، فطاوع أتباعه واحتلّ مكسيكو سيتي، وتم تنصيبه إمبراطوراً بعد استفتاء شارك فيه الكثيرون.

اعتبر الإمبراطور فرانز جوزيف إمبراطور النمسا تصرف أخيه ماكسيميليان خطوةً غير مدروسة مطلقاً، كمن يرمي بنفسه في حفرةٍ مليئة بالنار، بعد أن يُغرِقَ جسده في الزيت، ويتوقع ألا يحترق. ورغم تحذيراته له فإنّ ماكسيميليان لم يستمع له، وآثر الاستماع لمشورتي، ومشورة نابليون الثالث الذي دعمه، ليصبح إمبراطوراً على المكسيك، التي كانت تحت السيطرة الفرنسية حينها، وقد ظن ماكسيميليان أن دعم نابليون الثالث له سيرسخ حكمه، ولم يتوقع ما حدث، ولا أنا.

شخص كما كسيميليان كان يمكن أن يكون إمبراطوراً على النمسا لو تريّث قليلاً، ولكنه استعجل متكئا على دعم نابليون الثالث، الذي ما لبث أن تخلّى عنه عندما ثار عليه المكسيكيون، وتركه يواجه مصيره، ناصحاً إياه بالانسحاب، ولكن، هل يستطيع الانسحاب من يقع في الشرك؟!

أما ماري هنرييت، فرغم كونها دوقة، ومن أسرة أرستقراطية، فهي لا تبدو كذلك أبداً. بمجرد أن رأيتها شعرت بالورطة التي وقعت فيها، وأظن أنها بادلتني الإحساس ذاته، لأنها

ظلت طوال حياتها تندب حظها الذي أوقعها مع رجلٍ لا يعرف كيف يتعامل مع النساء المحترمات، في حين أني كنت أتساءل في الوقت نفسه عن النساء المحترمات اللواتي تقصدهن، واللواتي بالتأكيد لا تمتُّ لهنَّ بصلةٍ لا من قريب ولا من بعيد.

فتاة متهورة، تختلف عني في كل شيء. لو كان الأمر بيدها لحولت الحياة في القصر إلى ما يشبه المهرجان، بضحكاتها العالية، وثرثرتها المستمرة حتى مع الخدم، ولو رضختُ لنزواتها لما سكنتْ لحظة واحدة، ولقضت أغلب أوقاتها في التجول بين الطرقات والساحات، وأنشأت الصداقات مع العامة دون الانتباه لكونها ملكة، أما ما يتبقى من وقتها فلن تقضيه إلا في إسطبلات الخيل حيث تجد متعتها الأكبر.

من بين كل ما أعانيه، وكل الأشياء التي تنقصني، وتلك التي أحتاج إليها، لم يلفت انتباه الأمير ألبرت، زوج ابنة عمتي الملكة فكتوريا، ملكة بريطانيا العظمى، إلا البرود غير الطبيعي – كما وصفه – في علاقتي بماري هنرييت. فأضاع الكثير من الوقت في الحديث عن كيفية التعامل مع النساء، واستمالة قلوبهن، للتمكن من الوصول إلى طموحاتنا معهن. كنت أستمع له دون أن أُبدي له ضجري من حديثه، متمنياً لو أن نصيحته كانت خاصة بالحصول على مستعمرة كما الحال مع زوجته الملكة فكتوريا التي أصبحت إمبراطورة الهند.

كلما أغمضت عيني رأيت بلجيكا الكبيرة، تلك الممتدة في مكانٍ ما، مكانٍ لم أهتدِ بعد للطريق إليه. لن أكتفي بشراء بحيرات صغيرة في دلتا النيل، وتجفيفها لتكون مستعمراتي الخاصة، كما لفرنسا مستعمراتها ولبريطانيا وغيرها كذلك، بل سأبحث عن أرضٍ لم تطلها أيُّ يدٍ استعمارية.

“No me ha dejado”

أردد تلك الجملة التي قالها الملك ألفونسو العاشر، عن مدينة إشبيلية – التي أُحبُّ زيارتها والمكوث فيها – بعد تمرد ابنه سانشو عليه، والتي أصبحت لاحقاً شعاراً لها. ستكون هي شعاري أيضاً، لكنها ستخص أحلامي التي ستظل معي، ولن تتخلى عني حتى الموت، كما لم تتخلَّ إشبيلية عن ملكها.

لا تهمني إشبيلية بحد ذاتها، ولا كاتدرائيتها التي لا تماثلها كاتدرائية في أوروبا، فلم يكن لدي ميولٌ دينيّ، كما لم أهتمّ للعمران رغم جماله في هذه المدينة، حتى إنني لا أخرج للتجول في ساحتها إلا بعد أن أتعب من البحث والتقليب في سجلات كازا لونجا، لأتخيّل قصراً يحمل اسمي في بقعةٍ ما من ذلك العالم الذي أبحث عنه في تلك الخرائط، قصراً كقصر الكازار، أقدم قصر ملكي في أوروبا، بحدائقه التي تحمل الطابع العربي الإسلامي والأوروبي المسيحي في الوقت ذاته، ولكن قصري لن يحمل إلا الطراز الأوروبي، والمسيحي فقط.

أتأمل برج جيرالدا الصامد منذ ما يقارب السبعمئة عام، كجبلٍ لم يتصدّع منذ بناه المسلمون ليكون مئذنةً يصعد إليها المؤذن لينادي للصلاة راكباً حصانة من خلال خمسة وثلاثين منحدراً عريضاً من دون سلالم، حالماً ببرجٍ يحمل اسمي، يأتي الناس لمشاهدته بعد مئات السنين.

لا أملك إلا الانحناء تقديراً لمن صمّم هذا البرج، أو المنارة التي ظلت شامخة حتى بعد تحويلها لبرجٍ للأجراس المسيحية، واستُبدلَ هلالها والتفافيح الذهبية التي كانت تحمله بتمثال الجيرالدا. أتأمل ثباته، وصلابته، وحديثه الصامت عن تاريخه، وأصله العربي

الإسلامي، بينما سيحمل البرج الحامل لاسمي المسيحية حيث سيكون، رغم أني لا أهتم بالمسيحية، إلا أنها تصلح كحجة أبدأ بها الإفصاح عن طموحاتي الاستعمارية، أو لنقل أهدافي النبيلة لنشر المسيحية.

كهذا البرج تماماً أحلامي، قد أضطر لتحويلها من جهةٍ إلى أخرى، لكنّها لن تصغر، بل ستكبر يوماً بعد يوم، كصغيري ليوبولد الذي يكبر بعيداً عني الآن، ولن يحمل إلا لقب إمبراطور كما يشاء له أبوه.

قضيت شهراً كاملاً في كازا لونجا، أبحث في المخطوطات التي احتفظت بها إسبانيا هناك، والخرائط التي تحكي تاريخها الاستعماري. كنت أزداد نهماً كلما ازددت معرفة، وصرت أبحث عن أيّ خريطةٍ قد توصلني لبلادٍ تصلح لأن تكون مستعمرةً بلجيكية، مستعمرة ربحت منها إسبانيا بقدر ما سأربح منها، ويمكن ليدي أن تطوّقها بسهولة دون أن ينافسني عليها أحد.

يظن أبي أن ولعي بإشبيلية سببه حسناواتها ذوات العِرق العربي، ويستمر بتحذيري وتذكيري بواجباتي تجاه زوجتي كلما علم برغبتي في زيارتها، وأود لو أخبره أنني كنت أُفضِّل البقاء عازبا مدى الحياة بدلا من الزواج بسائس خيل في ثياب امرأة، لكني أتراجع مكتفيا بالتطلّع إلى المرأة الأجمل في نظري، التي لن تكون إلا مستعمرة أضع يدي عليها.

طموحاتي لا تنتهي، ولا يخفت وهجها، وأنا أجري كالمجنون خلفها من بلدٍ إلى آخر، أحاول القبض على حفنة رملٍ توصلني لمكان، أو دوّارة ريحٍ تحدد لي الجهة التي يجب عليّ اتّباعها قبل أن أضيع، ولكنني لا أصل إلى مكانٍ إلا ويُعيدني إلى بلجيكا خالي اليدين إلا من أحلامي التي كبُرت أكثر.

مُتعللا بآلامٍ تسكن صدري، لا علاج لها إلا في الطقس الدافئ، سافرت إلى الهند وسيرلانكا، وفكرت في شراء أراضٍ في الأرجنتين، ولكن كل تلك الأفكار لم تتحقق، لأن كل ما تقع عليه عيني، أجد يداً أخرى سبقتني إليه. ولأننا لا نملك جيشاً قوياً، فإن الدخول في حربٍ مع أحد لن يكون في مصلحتنا أبداً. لذلك تعلم الشعب البلجيكي أن يكون مسالماً، وألا يجنحَ للحرب مهما كانت الأسباب، ولا أظنه اكتسب هذه القناعة إلا من أبي الحذِر حتى من ظله.

تفاوضت مع بريطانيا على شراء جزيرة بورنيو، أو جزر فيجي في المحيط الهادي، ولكن الملكة فكتوريا رفضت رغم القرابة التي تجمعني بها، ولم تفكر في مساعدة ابن خالها البائس للحصول على مستعمرةٍ واحدة، مع أني عرضت شراءها بالمال، ولم أطلب تقديمها لي كهدية.

فكرت أيضاً في الحصول على جزيرة فرموزا في الصين بشرائها من الهولنديين، لكنهم لم يقبلوا، كما حاولت شراء بحيرة في دلتا نهر النيل من الحكومة المصرية، لتجفيفها واتخاذها كمستعمرة، إلا أن الخديوي إسماعيل رفض ذلك.

فشل محاولاتي لم يكسرني، أو يجعلني أفكر في التوقف، بل على العكس، أصبحت أكثر إصراراً، وقررت أن أحصل على مستعمرتي الخاصة بطريقتي الخاصة، بعد أن تأكدت أن المستعمرات لا تُشترى، بل تؤخذ بالقوة. فإن عُدِمت القوة، عليكَ بالحيلة لأن حيلتك ستصبح هي قوتك.

هل كنتُ كاذباً عندما ادعيّتُ ألماً في صدري لأسافر إلى تلك البلدان ذات الطقس الأدفأ، باحثاً عن أرضٍ لم يصل إليها الأوروبيون بعد؟ بالطبع لا، فثمة ألم في داخلي يأبى

الرحيل، ألم لا يبرئه، أو يخفف من حدّته إلا المال الذي يصطف فوق بعضه، ويملأ خزائني الفارغة عن آخرها، والاستمتاع برؤية الأراضي المنبسطة بامتدادها اللانهائي، دون وجود أي سورٍ يعوق بصري عن السفر بداخلها، وتأمل صناديق الذهب والألماس المتهادية فوق رؤوس العبيد، كنجومٍ تحرس عتمة الليل، بينما أكون أنا القمر الوحيد الشارق في تلك البقعة.

ستانلي

5–2

لم أفكر كثيراً، بل إنني لم أفكر مطلقاً قبل أن أحزم حاجياتي، وألبي دعوة السيد جيمس جوردون بينت الابن، للالتقاء به في باريس؛ فقد كان يُدير جريدة نيويورك هيرالد من هناك في أغلب الأوقات، بسبب شغفه بها، مُرسلاً البرقيات متى لزم الأمر.

في حي هادئ في باريس، حيث يقع فندق جراند هوتيل، التقيت بالسيد بينت الابن، وتبادلنا الحديث حول أحوال الصحافة، ودور السبق الصحافي في رفع مبيعات أيّ صحيفة. ضحك وهو يُعلّق على المبالغات في أخباري التي أرسلها، لكنّه أثنى عليها مُعلقاً أن هذه المبالغات هي التي تجذب القراء، وتجعلهم يتسابقون لشراء الصحيفة، ودون أن يُسهب في الحديث أخبرني عن المغامرة التي تنتظرني.

”أريد منك البحث عن ليفنجستون، والعودة به، وبكل تفاصيل رحلته إلى أفريقيا“

لم يكن طلباً غريباً على رجلٍ باحثٍ عن المال كالسيد بينت، طلبه وهو يعرف الشخص المناسب الذي سيُمكِنه ليس تحقيقه فحسب، بل الإتيان بكل مثيرٍ من الأخبار التي لن يأتي بها مراسلٌ سواه مهما بلغ اجتهاده.

تكفلت الصحيفة بكل مصاريف الرحلة، وكل ما كان عليّ فعله البحث عن ليفنجستون، وإرسال ما يودّ الناس سماعه عن أفريقيا، وليس شرطاً أن يكون صحيحاً

تماماً. فالناس لن تذهب إلى أفريقيا للتأكد مما أنقله لهم، وهكذا، وجدت نفسي على ظهر مركبٍ مُتجهٍ إلى أفريقيا.

أرسلت برقيتي الأولى للصحيفة والسفينة تُلقي نظرتها الأخيرة على الميناء:

"أنا ذاهب إلى أفريقيا للبحث عن ليفنجستون. لنرَ ما يمكننا اكتشافه هناك"

فكّرتُ في الأساطير التي تناقلها الأوروبيون قديماً، وتخيّلت نفسي وقد وقعت في قبضة الشيطان بعدما تعدينا على دائرة حكمه، ثم في غمضة عين كنا جميعنا قد تحولنا إلى أوروبيين سود، وما إن نجونا من قبضته، واسترجعنا ألواننا، حتى حاصرتنا سفن القراصنة بأعلامها السوداء من جميع الاتجاهات، وبدأت بإطلاق مدافعها نحونا، ثمّ ما لبثنا أن أصبحنا عبيداً نجرّ في أعناقنا السلاسل، وما عاد واحدنا يعرف الآخر. لكني تراجعت عندما شعرت أن هذه المبالغة غير منطقية، ولن يصدقها الناس، إذ كيف أرسل برقياتي وأنا في قبضة القراصنة؟ فاكتفيت بالحديث عن مهاجمتهم لنا، ونجاحنا في الهرب منهم.

توالت البرقيات عن العواصف التي تربّصت بنا بمجرد اقترابنا من أفريقيا، وكأن الشيطان أرسل جنوده للقضاء علينا قبل أن نقتحم مملكته، أو على الأقل إخافتنا وإرجاعنا من حيث أتينا كي لا نتوغّل أكثر في دائرة حكمه.

"لكننا لم نأتِ لنعود قبل تحقيق أهدافنا"

هكذا ختمت برقيتي، قبل أن أتبعها بأخرى تتحدث عن اليابسة التي أسلمتنا الشمس بحرارتها المرتفعة، وعن بقائها الطويل في منتصف السماء، وكأن اليوم كله ليس إلا نهاراً، أو كأن الليل لا يأتي إلا بعد أيامٍ عدة من النهار الطويل والحارق.

يعرف السيد بينت أنه يستطيع الاعتماد عليّ متى ما أراد رفع نسبة مبيعات الصحيفة، لذا لم يتردد في صرف المبالغ الطائلة على هذه الرحلة الاستكشافية، أو الباحثة عن ليفنجستون – كيفما أراد تسميتها – لعلمه بأنها ستدرُّ عليه مالاً يصعب عَدّه، فالناس في أوروبا متلهفون لسماع أي معلومة عن أفريقيا.

هل هي البلاد التي يعيش فيها ذوو القدم الواحدة والرؤوس الثلاثة؟ أو تلك التي يأكل سكانها لحوم بعضهم بعضاً؟ لماذا لا يرجع أغلب من يسافرون إليها؟ هل صحيح أن رؤوسهم تُقطع، وتعلق في الأشجار لتتخذ الطيور السوداء منها أعشاشاً؟

لا تنتهي خيالات الأوروبيين عندما يتعلق الأمر بأفريقيا، فهي تعني الغموض الذي لا يمكن لأوروبي إلا الانسياق خلف متعة اكتشافه، ولو بسماع الأكاذيب التي يرويها أولئك العائدون من هناك كأبطال الأساطير.

أردت لوجودي في أفريقيا أن يكون مهيباً، فاستأجرت الكثير من الحمّالين ليحملوا مؤنتنا، وطفقت أُرسل البرقيات إلى الصحيفة عن أفريقيا التي تخيّلتها، كأنها هي التي أراها أمامي. أحياناً أصف وجهها الحقيقي، وفي أغلب المرات أرسم صوراً في مخيلتي ثم أبعث ما أشعر بأنه سيثير الناس أكثر، حاثّاً خيالي على الاجتهاد، ورسم الصور والمشاهد الغريبة، والمواقف التي يندى لها الجبين، وتكاد تتوقف لحظة قراءتها القلوبُ. صدقت قليلاً، وكذبت حتى كدت أصدّقني، أو صدّقتُني فعلاً.

قضيتُ قُرابة العام أبحث عن ليفنجستون، مات فيه أغلب من كانوا معي، ولم يصمد منهم إلا القليل، كأننا في اختبار احتمالٍ، لا نكاد نخرج من ورطة حتى نقع في أخرى: كأن نكون في طريقٍ جبليٍّ وعر، نضطر معه للتخلص من أغلب مؤنتنا لنتمكن من السير

صعوداً في مَيلٍ يصعب حتى على الوعول السير فيه، ثم يخطفنا انحدارٌ يوشك أن يوقعنا في هاويةٍ لا قرار لها. لقد كان الأمر صعباً حقاً، وليس مجرد خبرٍ أرسله للصحيفة وأنا أضحك.

أذكر أننا في إحدى المرات صادفنا نهراً هائجاً تعيّن علينا عبوره، فاضطررنا لصناعة طوفٍ يتحمّلنا، وترك ما تبقّى من المؤن دون حراسة، ونحن نعلم أننا إن عدنا لن نجدها، ولكن لا خيار آخر لدينا. وما إن عبرناه، واطمأنت أرواحنا، وهدأت أنفاسنا، وظننا أننا ناجون بعد أن خطف اثنين من رجالنا، وكاد أن يقلب بنا الطوف عدة مرات، لولا عنايةُ السماء التي أحاطت بنا، أو لعلها عنايةُ **الإنجيل** الذي كنت أحمله معي، حتى تلقّفتنا تماسيحُ ضخمة، وتجمّعَت حولنا وبدأت بمهاجمتنا.

كنا قد احتفظنا ببندقيّتين تحسّباً لأي خطرٍ قد نُصادفه، فاضطررنا لاستعمالهما بعد أن تكسّرت المجاديف، ونحن نحاول إبعادها. وبعد أن نفد الرصاص ركض كلٌّ منا في اتجاه، إذ كانت التماسيح لا تزال تسير باتجاهنا. وهكذا بعد مدةٍ من الركض وجدتُ نفسي وحيداً، مُحاطاً برجالٍ لا يضعون على أجسادهم إلا ما يستر عوراتهم من ورق الشجر العريض، واضعين أقماعاً من ثمار السُّعادى لتغطية أعضائهم.

"تبّاً لليفنجستون، لولاه لما كنتُ في هذا الموقف"

كدت أكتبها، لولا أني تذكرت أني ذلك الصحافي النبيل الذي عليه مواجهة الأخطار في سبيل العثور على ليفنجستون، والعودة معه. فاستبدلت بتلك الجملة أخرى تتناسب ودوري الذي جئت من أجله، والثمن الذي سأقبضه مقابله، وكتبت:

''يا للمسكين ليفنجستون. أرجو ألا يكون قد مات وحيداً، في هذا المكان الرطب المملوء بالحشرات والحيوانات المتوحشة، والبشر آكلي اللحوم.

مقيّدَ اليدين والرجلين، يدورون حولي وهم يُشيرون إليّ، ويصرخون:

''فومبي، فومبي''

لم أفهم ما يقصدونه بكلمة ''فومبي''، ربما يقولون احرقوه، أو لنأكله سريعاً، لا أدري حقاً، ولكن الذي أنا متأكد منه أنهم غاضبون أو خائفون.

تهيأت للموت حرقاً، وتخيلت جسدي بين أيديهم، يتناوبون على التلذذ بأكلي، لا تُعجِبُ يدي أحدهم بعد أن يتذوقها، فيهبها لزميله الذي يأكلها بشراهة، قبل أن يشبَّ الخلاف بينهم على الأجزاء الخاصة من جسدي، كلٌّ يودّ استئثارها لنفسه، لأنهم يؤمنون بأن أكلها يزيد من قواهم. وهكذا أنا ستانلي، أنتهي كأنني لم أكن''.

أضحك وأنا أرسل هذه البرقيات، وأتخيّل ردة فعل القرّاء، وشغفهم بانتظار ما حدث لي بعد ذلك، وأتخيلهم يتهافتون على شراء النسخ التالية من الصحيفة، ولكنهم لا يجدون إلا مغامرةً أخرى أخوضها، دون التطرق لنهاية المغامرة الأولى، والاكتفاء بخبر نجاتي بأعجوبة.

''أوه صحيح، نسيت أن أخبركم أنني اكتشفت أن فومبي تعني الروح، فقد كانوا يظنون أنني روحٌ هاربة من قبضة الشيطان''

أُرسلُ توضيحاً للصحيفة، دون أن أقول إن كل ذلك لم يحدث، ولا بأس ألا يعرف القرّاء ذلك، فأنا لم أسمح بالتخلص من أي مؤونة، وفي حال مات أحد الحمّالين، تقاسم حمولته رفاقه، حتى أصبحوا يحملون ضعف حمولتهم الأساسية في نهاية الرحلة.

أظن أنني كنت مخطئاً منذ البداية باستئجار كل ذلك العدد من الرجال، فهؤلاء العبيد يحتملون أكثر مما نحتمل، وكلما رفعت سوطك في وجه أحدهم انحنى لك، وتسارعت خطواته مهما ثَقُل حمله.

لم يدلنا أحد على ليفنجستون، وكلما سألنا أحداً أنكر معرفته به، حتى يئست، لكنني قررت الاستمرار في رحلتي الاستكشافية بحثاً عن مصب النهر، فإن لم أجد ليفنجستون، على الأقل أعود باكتشافٍ ما، أو الوصول لمكانٍ يُنسيني تعب الرحلة.

واصلنا المشيَ حتى وصلنا إلى بحيرة يدعونها بحيرة تانغانيكا، وقررنا البقاء هناك أيامّاً عدة، للاستمتاع بامتداد الخضرة التي تكاد لا تنتهي، والأشجار الوارفة الظلال، والطقس الذي لا يمتُّ لهذا البلد الحار بصلة.

"إن كان ليفنجستون وصل إلى هذا المكان، فأنا أعذره إن لم يرغب بالعودة منه"

أرسلت برقيتي للصحيفة، وبعد أن ارتحت قليلاً، ذهبت برفقة اثنين من الحراس الأفارقة لاستكشاف المنطقة، فوجدت في مكانٍ ليس ببعيدٍ عنا رجلاً أوروبياً يبدو كأنه في الستينات من العمر، يكاد المرضُ أن يقضي عليه، ويبدو على وشك الموت. حملناه معنا، وأعطيته الدواء، وبقيت أرعاه برجاء أن يشفى، وإن حرصت على البقاء بعيداً عنه خشية أن تصيبني عدوى الملاريا التي يعاني منها.

عرفت أنه يعيش وحيداً في هذا المكان، ينعم بالسلام، والسكينة، ورغم فقده لزوجته بعد إصابتها بالملاريا، فهو لا يستطيع إلا أن يحبه، لأنه يقربه من الله.

بعد مدة من الوقت أتى رجلٌ أفريقي يبحث عنه، وعندما وجده معنا ظن أننا اختطفناه، فبادرنا بالهجوم، رغم إنه لم يكن يملكُ إلا رمحاً أسقطناه مباشرةً من يده، وكِدنا

أن نقتله لولا أن الرجل الأوروبي صاح فينا قائلاً:

''دعوه إنه رفيقي''

ثم وجه كلامه للرجل الأفريقي:

''لا تخف يا سيشيلي، لقد ساعدني هؤلاء الرجال، واعتنوا بي في فترة غيابك''.

اقترب سيشيلي منه واحتضنه وسط استغرابنا من تصرفه، لكن ما جعلنا نفغر أفواهنا دهشة وسعادة هو اسمه الذي ناداه به.

''ليفنجستون، لقد خِفت عليك، ظننتُ أنهم البور Boer''.

***

رفض ليفنجستون الرجوع معي إلى بريطانيا، غير آبهٍ بالحفاوة التي سيُستقبل بها كمستكشفٍ لوسط أفريقيا، وأخبرني أنه لم يسعَ إلى مالٍ أو سلطة، أو أي وجاهةٍ في الدنيا، وأن كل ما فعله كان من أجل المسيح، لأن ذلك هو العمل الوحيد الذي يبقى، وأنه يُفضِّلُ الموت على ضفاف بحيرة تانغانيكا على الرجوع.

لكلِّ امرئٍ منا من تنشئته ما يُشكِّل شخصيته، وكما رسمت تنشئتي طريقي، شكّلت تنشئة ليفنجستون قناعاته، فقد أخبرني أن والده كان يردد لهم دائماً أن أعظم كنزٍ يُمكن للإنسان أن يمتلكه هو القناعة مع التقوى، ولأن والده كان يقرأ له قصص المرسَلين التبشيريين إلى الدول البعيدة عن الحضارة والمسيحية، فقد قرر أن يكون مُبشراً وطبيباً، يقضي حياته في خدمة الرب والديانة المسيحية، متبعاً خُطى المرسل الهولندي كارل

جتزلاف، الذي كان حينها يعمل طبيباً في إرسالية في الصين، لكن قراره هذا اصطدم بحرب الأفيون الأولى التي وقعت بين الصين وإنجلترا.

"يخطط المرء للكثير من الأمور، دون أن يعلم أن الله يخطط له أقداراً أخرى".

هكذا علّق ليفنجستون على الأمر. فقد أوقفت بريطانيا الإرساليات إلى الصين، وتم توجيهه للسفر إلى الهند الغربية، إلا أن لقاءه بروبرت موفات حوّل وجهته عنها بعد أن أعدَّ العدة للرحيل إليها.

أملاً في الوصول إلى تلك البلاد البعيدة، التي يُرى الدخان المتصاعد منها طوال الوقت – كما وصفها موفات – عزم ليفنجستون على السفر إلى جنوب أفريقيا، ومن هناك توجّه إلى الشمال، حيث لم يذهب أوروبيّ قبله، دون أن يحمل معه إلا القليل من العتاد والمؤنة، وكأن خُطاه سلكت ذاك الطريق من قبل، أو كأنه أبصره في رؤيا أنارت له بصيرته ذات توحّدٍ مع الله، أو كما يصف هو الأمر:

"يمكن للمرء أن يسير حتى في الظلام، طالما كان نور الله يملأ قلبه".

وضع ليفنجستون العلامات التي يستدل بها من قد يذهب بعده إلى القارة المظلمة ليُنيرها بنور **الإنجيل**، وهدي المسيح، ويخدم أولئك الأفارقة البعيدين عن الحضارة، الذين لم يروا من وهجها شيئا، لكنه ورفاقه الثلاثة لم يتوقعوا أن تستقبلهم أول قرية يصلون إليها بالرماح.

"من حسن الحظ أن مرافقَينا الأفريقيَّين اللذين كانا معنا يعرفان لهجة البانتو التي يتحدثها أفراد قبيلة الباكونا، مما مكّنهما من التفاهم مع رئيسها، وإقناعه بنوايانا الطيبة، فسمحوا لي بتقديم خدماتي الطبية".

ضحك ليفنجستون وهو يتذكر الموقف. مؤكداً نجاحه بعد عدة زيارات إلى قرية موباستا في إنشاء أول إرسالية في وسط أفريقيا، إذ كانت كل الإرساليات السابقة في الأطراف الجنوبية، ولم يسبق لأحد أن توغّل إلى الداخل، فقد كان الاعتقاد السائد أن من يعيشون هناك جميعهم من أكلة لحوم البشر، لذلك لم يتجرأ أحد على المخاطرة والدخول إلى الغابات مترامية الأطراف هناك.

أخبرني أيضاً عن حادثةٍ أخرى كاد أن يفقد فيها حياته، عندما هاجمه أسد ضخم، ورفعه في الهواء، من يده العاض عليها، ولولا أن مبالو – رفيقه الأفريقي الذي كان يصحبه – أطلق الرصاص على الأسد لكان التهمه.

"لم يكن أمامي حلّ إلا إرشاد مبالو لجبر الكسور التي طالت يدي بعد تلك المعركة الشرسة مع الأسد، لكنه لم ينجح في إعادتها كما كانت. ومنذ ذلك اليوم أصبحت يدي المشوهة علامة بارزةً في جسدي، كما تراها الآن".

لم يبدُ على ملامحه أي ضيق، رغم التشوه الواضح في يده، وقبل أن أسأله إذا كانت ذكرى الحادثة تزعجه، ابتسم وهو يمازحني، كأنه يستقرئ المستقبل من كتابٍ في يده:

"من يدري، قد يفشل وجهي في إخباركم عني بعد موتي، فتدلكم يدي عليّ".

يُحب القرّاء مثل هذه القصص، لذا تعمّدت بعدها الكتابة عن مغامرات أخرى مشابهة تعرضت لها برفقة ليفنجستون تارة، ووحدي تارةً أخرى، وفي كل مرة كانت النجاة بأعجوبة هي النهاية السعيدة لكل القصص المؤلَفة بعناية شديدة، وإن لم تخلُ من الغرابة.

بعد كل حدثٍ أرسله للصحيفة أسأل نفسي: هل حدث هذا الموقف فعلاً، أم أنه من بنات أفكاري كغيره من المواقف التي أرسلها للصحيفة؟

الكذب سهل جداً، لكن وصف الأمور بتلك الدقة جعلني أصدق كل ما أكتبه، بعد أن أستحضره في خيالي كأني عشته فعلاً، ولقد حدث أن قلت لنفسي كثيراً: لا بد أن هذا الأمر حدث معي في وقتٍ سابق، وإلا كيف لي أن أعرف كل تلك التفاصيل؟

لا أظنّ أن أحداً من القراء توقّع أن يجد ليفنجستون فتاةً تشبهه في تلك البلاد، لكن ذلك حدث، فأحبّ الآنسة ماري موفات، ابنة الرجل الذي أقنعه بالذهاب إلى جنوب أفريقيا أول مرة، وتزوّجها، وعاش سعيداً معها، إلا أن البلاد التي أحبها أبت إلا خطف حبيبته منه.

حاول ليفنجستون إنقاذ حياة زوجته، وأرسلها إلى بريطانيا لتستعيد صحتها التي تهاوت من أثر الأمراض المتتالية في تلك البيئة الخصبة بالحشرات، لكنها لم تتمكن من التكيّف على الحياة في بريطانيا، لأنها ولدت في أفريقيا، ولم تعرف سواها بلداً لها فاختارت العودة معه. ولا يمكن للمرء التعجب من هذا التفكير لزوجته، إن علم أن ليفنجستون نفسه فضّل البقاء في أفريقيا على العودة إلى بريطانيا رغم إلحاحي الشديد عليه، مردّدا:

"بلادك ليست تلك التي تحملها في هويتك، أو حتى تولد فيها. إنها تلك التي تجد روحك فيها".

حكايات الحب التي تنتهي بالزواج أيضاً يحبها القرّاء، لكني أجدني مضطراً للقول إن حياة ليفنجستون لم تكن بذلك الجمال الذي قد يتخيّله القارئ، فقد عانت عائلته التي كانت تسافر معه من مكانٍ إلى آخر، وتوفت زوجته في الحادية والأربعين، كما لا يليق بسيدةٍ بريطانيةٍ كان يمكن أن تتذكر ما خاضته مع زوجها من مغامرات في شيخوختها، وهي تشرب الشاي الإنكليزي في حديقة منزلها في إحدى ضواحي لندن.

حياة ليفنجستون في أفريقيا لم تكن سهلة، وليست كل القبائل كقبيلة باكونا التي التقى بها عند وصوله. فبعض القبائل تتعمد السطو على القبائل الأخرى، وقتلَ أفرادها، وسرقةَ مؤنهم، وأسر من يتمكنون من أسره لبيعه. من هذه الجماعات جماعةُ البور التي هاجمته هو وقبيلة الباكوين التي استقر معها، والتي ظن رفيقه سيشيلي أننا منهم عندما رآنا أول مرة.

تهاجم جماعة البور السكان بغرض أسرهم كعبيد، ومن ثم المتاجرة بهم. ورغم مقاومة أفراد قبيلة الباكوين الطويلة لهم فقد اضطروا أخيراً للرحيل من كولوبنج التي استقروا فيها برفقة ليفنجستون. ولولا صلاته لله ليرفق بهم، لماتوا عطشاً في صحراء كلهاري التي هربوا عبرها، فبعث الله لهم امرأة تحمل الماء، وسقتهم.

تُذكرني صلاته ب**الإنجيل** الذي أهداني إياه الأسقف، والمعجزات التي ترافقني لأني أحمله معي أينما ذهبت، رغم أني لست قويّ الإيمان مثله، ولا حتى مؤمناً كما أظن، بل إنني أحيانا أشك في أن الله لا يعلم أني غير مؤمنٍ به، وإلا لما وجّه خُطاي كما أريد، وحقق لي كل ما أرجوه منذ حملت **الإنجيل** معي.

لم يعلم ليفنجستون عندما اتخذ لإرساليته موقعاً جديداً أنّ أعيُنَ البور تترصدهم حيثما ذهبوا، وبينما كان خارجها وصله نبأ هجومهم على الإرسالية، وسرقة كل أغراضه من كتب وأدوية، كما أسروا المئات من الباكوين كعبيد، وقتلوا آخرين، بينما تمكن رئيسهم سيشيلي من الهروب مع من تبقّى من قبيلته، والوصول إليه.

لم أذكر في الخبر الذي أرسلته للصحيفة أن هؤلاء البور ليسو إلا أوروبيين استوطنوا جنوب أفريقيا بغرض المتاجرة بالعبيد من الأفارقة، لأن خبراً كهذا قد لا يخدم هدفي الذي

أفكر فيه، فيتحول الأوروبيون هنا من تبشيريين ودُعاة سلام وحرية إلى دُعاة عبودية، كالعرب الذين يتاجرون بهم بصكوك ملكية يتوارثونها جيلاً بعد جيل، رغم أن ذلك واضح من ظنّ سيشيلي أنني ورفاقي من البور، لكني لا أظنّ أنّ القراء يمتلكون من الذكاء ما يؤهلهم للتفكير، والتوقع، والقليل منهم ممن سينتبه للأمر، سيتغاضى عنه، ولن يذكره لسواه. فنحن الأوروبيين متشابهون تماما في أفكارنا وتعصبنا لبعضنا عندما يتعلق الأمر بمقارنتنا بالأفريقيين.

ترافقتُ معه أشهراً عدة، تجوّلنا خلالها في أفريقيا. كان وجوده يمنحني الأمان الذي أفتقده دون حراسة، وإن حملت السلاح. فالكثيرون هنا يعرفونه، كما يعرف الكثير من الأماكن التي سعد بأخذي إليها عندما شعر باهتمامي.

على الواحد منا أن يعرف كيف يتعامل مع الآخرين، والطريقة الأنسب لكسب ثقتهم، فالتعامل مع رجلٍ يُبشر بالمسيحية يختلف عن التعامل مع رجلٍ لا يأبه إلا بالمال، لأن لكل واحدٍ من هؤلاء الصّوت الذي يتقن الاستماع إليه، وتلبية ما يريده. فالناس كالأقفال، وكل قفلٍ له مفتاح لا يفتحه سواه.

كما آمنت بقدرة الصحافة على تغيير واقعي، وانتشالي من الوحل الذي كنتُ أعيشُ فيه، آمنت بأن الطريق الذي سلكه ليفنجستون لا يشبه الطريق الذي أود المضي فيه، ولكن ذلك لا يعني أن الدروس التي تعلمتها منه لن تفيدني، لذا حرصت على استيعابها كلها.

كل صحافي مشهور جيد، ولكن ليس كل صحافي جيد مشهوراً، وأنا لا يهمني أن أكون صحافياً جيداً وصادقاً بقدر ما يهمني أن أكون مشهوراً.

كانت هذه قاعدتي التي مضيتُ بها في عالم الصحافة. أرسل كل ما يضمن استمرار القراء في شراء الصحيفة، والبحث عن الخبر الذي يُوقّع باسم هنري. م. ستانلي، ولو كان هذا الخبر محض كذبة لم تحدث أبداً.

"تخيل أن يؤمن كلَّ هؤلاء الأفارقة؟"

قلتها له كأمنيةٍ في متناول يدي، ويعلم ليفنجستون الذي عاش هنا ما يزيد على الثلاثين عاماً بأنها عصية.

"إذا كانت معرفة الناس ب**الإنجيل** مهمة بهذا المقدار، فلماذا مَرَّ كل هذا الزمان دون أن يأتي الأوروبيون ليخبروا عنه الأفارقة؟"

كان هذا السؤال الذي طرحه سيشيلي رئيس قبيلة الباكوين يؤرقه دائماً. سألني يوماً إن كنتُ أملك إجابة له، فلم أُجبه، لكني في قرارة نفسي، علمت أن هذا السؤال هو مفتاح زيارتي القادمة لأفريقيا.

الملك ليوبولد الثاني

6–2

وضعتُ الصحيفة جانباً، وبسطت الخريطة أمامي، أُراوِح بصري بين بلجيكا ومملكة الكونغو: ستبدو كأمٍّ تحمل وليدها الذي وضعته للتو قبل أن يُتمّ شهره السابع.

بدا مشهداً جميلاً ما فكرت فيه وأنا أتخيّل بلجيكا في قلب الكونغو، هذا البلد الكبير لن يكون لسواي. عليّ التفكير بهدوء، والتخطيط جيداً لأصل إلى هناك، دون أن ينافسني أحد من هؤلاء الملوك الذين سبق لهم بسط سيطرتهم على بلدان أخرى.

عجلة الأيام تدور بلا توقف، وأنا ما زلت في مكاني لم أبرحه. سبع سنوات مرّت منذ استلمت الحكم بعد والدي، ولا زلت حتى اللحظة غير قادر على تحقيق حلمي بالحصول على مستعمرة بلجيكية كغيرنا من الدول، وكأننا لسنا إلا نكِرة، أو كأننا لا زلنا مُستعمَرين من هولندا، هذا البلد البغيض، والذي يود ملكه لو سنحت له الفرصة للاستيلاء من جديد على بلجيكا.

ترددتُ في وضع الخريطة التي حفظت الخطوط المرسومة كحدودٍ بين دولها من طول النظر إليها على الطاولة، وكلما هممتُ بوضعها شعرت بخطوطها تمتد كأيادٍ تُمسك بي كي لا أتخلى عنها. لكن الخبر في الصحيفة بدا أقوى هذه المرة، أو ربما كان هو الفرجة

التي انسل منها ذلك الوميض من الخريطة، وميض صغير سيكبر، ولن يمكن لأحدٍ إيقاف انتشاره، إنه الكونغو ليوبولد.

ابتسمت للاسم الجديد الذي ستحمله الكونغو سراً، دون أن أفصح به لأحد، قبل أن أتناول الصحيفة وأعيد قراءة الخبر الذي نشرته نيويورك هيرالد عن ليفنجستون، المستكشف الإنكليزي الذي عثر عليه الصحافي الأميركي هنري مورتون ستانلي عند بحيرة تانغانيكا.

ترى إلى أي مدى توغّل هذان الرجلان في أفريقيا، وما الذي تمكّنا من اكتشافه فيها، وأي فرصة ستجعلني ألتقي بالمدعو ستانلي؟ رغم فضولي الكبير، فإن الاستعجال في كشف أوراقي لن يفيدني بشيء. كل شيء سيحدث في وقته المناسب، فلا بأس بالانتظار، ووضع الخطط المناسبة في أثناء ذلك.

أزحت الستارة عن النافذة، الفراغ يملأ حديقة القصر، لم يعد لدي من يملؤها بالضجيج بعد رحيل ليوبولد، الذي رحل سريعاً، كأنه ما أتى إلا ليرحل، أو كأن أبي اشتاق إليه فناداه ليتبعه بعد ثلاثة أعوامٍ فقط من رحيله.

كان أبي يحب ليوبولد كثيراً، ويرى أنه الحفيد الذي سيخلفه، فأحبه أكثر مني، ربما لأنه لم يكن يشبهني، فقد كان جميلاً، بخدّين متورّدين اصفرّا كثيراً بعد مرضه، وجسمٍ ممتلئ نحُل حتى كاد أن يصل إلى نحول جسمي وأنا صغير. ترى، هل فزع أبي من أن يتحول إلى نسخةٍ أخرى مني فآثر أن يلحقه على أن يُصبح مثلي؟

لم أبكِ من قبل، ولكنني لم أتحمّل رؤيته مُسجّىً في تابوت، وقد انعقدت يداه على صدره، في اعتراضٍ صارخٍ على القدر، فلم أتمكن من رد دمعي الذي انحدر بغزارة، يرافقه

نشيج لفت نظر كلّ من في الكنيسة إلي.

لم تكن الأقدار نزيهةً معه، ولا معي، فأخذته في اللحظة التي عدتُ فيها إليه، كأنه أراد أن يقول لي:

"لقد انتظرتك كثيراً، ولكنك وصلت متأخراً"

عندما بكيت في الكنيسة، لم أكن أبكي ابني الذي رحل فقط، بل إمبراطور بلجيكا الذي لن يكون، والمستعمرات التي لم أصل إلى أيها حتى تلك اللحظة، وأحلامي التي توشك أن تتخلى عني. لكن ماري هنرييت التي لا يعجبها شيء مما أفعله، لم يرق لها هذا الحزن، فرمقتني بنظرةٍ جمعت بين الغضب والاشمئزاز عندما طلبتُ من مرافقي إرسال طلبٍ إلى البرلمان للموافقة على تكفّل الدولة بمصاريف الجنازة، فلا يعقل أن أخسر ابني ومالي في الوقت ذاته، ثم إن هذا حقّي كملك، وكل فرنك أصرفه يجب أن يخرج من خزينة الدولة.

حتى هذه اللحظة أجدني غير قادر على فهم أبي، حين منح البرلمان سلطة التحكم في الأمور المالية، وأخذ القرارات نيابة عنه. لماذا لم ينفرد بالقرارات الخاصة بالمالية باعتباره ملكاً؟ لقد صعّب الأمر كثيراً عليّ. لو أنه لم يؤسس هذا البرلمان، ولم يسمح للمدن الكبيرة باستقلالية التصرف والحكم في الكثير من الأمور، لكان من السهل ضمّ الكثير من تلك المدن لملكيتي الخاصة. لا أفهم ما فائدة الملك من دون أملاك، وما فائدة حكمك لبلدٍ لا تتعدى حدود صلاحياتك فيه جدران قصرك؟ وكلما هممت بأمر اضطررت لأخذ موافقة برلمان متعدد الرؤى والأهواء بتعدد الشخصيات فيه.

قد يكون له عذره، إذ كان حديث عهدٍ بالملكية، كما كانت بلجيكا حديثة العهد بالاستقلال، وربما ودَّ كسبَ حكّام تلك المدن إلى صفّه بدلاً من التآمر عليه مع بلدٍ كهولندا التي ظلت تحاول استعادة بلجيكا لحدود مستعمراتها، فاشترى ولاءهم بحكمٍ مطلق على مدنهم، كما اشترى رضا الشعب بتكوين البرلمان الذي أصبح هو الآمر والناهي، وصاحب القرار المطلق والأخير.

شبابي يوشك على الرحيل، دون أن تؤتي محاولاتي أُكلها. اشتريت كل الأراضي المحيطة بقصر ليكن، وضممتها له، وصادرت تلك التي رفض مُلّاكها بيعها بعد أن وجدت لذلك أعذارا لم يتمكنوا من ردها، وحاصرت التي لم أجد عذراً مناسباً لأخذها بأسوار قصري، التي كانت تلتف حولها كأفعى حتى يختنق صاحبها، ويقرر بيعها من تلقاء نفسه، فأفكر في دفع ثمنٍ زهيد، لا يتعدّى نصف الثمن الذي عرضته مقابلها ورفضه، لعله يتعلم كيف يطيع رغبات حاكمه، لكنّي لا أفعل، بل أضاعف له الثمن لأخبره كما أنا نبيل، ويخجل من التحدث إلا عن كرمي معه.

أتأمل المساحات الصغيرة المحيطة بالقصر، وأتساءل:

"كيف لملكٍ ألا يمتلك أراضي يتنعّم بها خارج بلده؟"

حتى هولندا البائسة لها مستعمرة في الهند الشرقية. إن هذا أكثر ما يغيظني، ويجعلني أكره النظر إلى تلك الأرض الصغيرة.

استأجرت بعض الأراضي خارج بلجيكا، بعضها في مصر، وأخرى في الأرجنتين، وثالثة في البرازيل، ولكن الأرض التي ندفع لها لا نجني منها ما نحلم به من أرباح، وكل ما نفعله فيها سيعود لأصحابها يوماً ما، ما دامت ملكيتها لم تنتقل إليّ، لكني لم أجد من يرغب في

بيع أراضيه أو مستعمراته. لذلك فكرت في أرض تمنحني نفسها طائعةً دون مال، أرضٍ لا ينازعني على ملكيتها أحد، بل يبارك الجميع استيلائي عليها، فأين أجد هذه الأرض؟

لو أن شقيقتي كارلوتا وزوجها نجحا في بناء إمبراطوريتهما الجديدة، ولم تفشل محاولتهما في تتبع خُطى الفاتحين، لوجدت في إمبراطوريتهما بعض العزاء، وربما كنت حصلت منهما على بعض الأراضي التي يمكنني الانتفاع بها؛ فالأرشيدوق ماكسيميليان طيب وكريم، ولا أظنه سيبخل عليّ بقطعةٍ صغيرة من الأرض الكبيرة التي يحكمها. لكنني لم أنل من تلك المغامرة إلا تأنيب الضمير لأني شجعتهما عليها، ونصحتهما بعدم الالتفات لمخاوف الإمبراطور فرانز جوزيف حين نصحهما بألا يجازفا بخوض مغامرةٍ غير مأمونة العواقب.

تبدّد حلمي بمستعمرةٍ يهبني إياها الإمبراطور ماكسيميليان، وقبل أن أتجاوز الأمر فقدت وريثي الوحيد لعرش بلجيكا الأمير ليوبولد، وكأني لم أكتفِ من الحسرة، والقهر، اضطررت مجبراً إلى إعادة علاقتي بماري هنرييت لإنجاب طفلٍ شرعيٍّ آخر، يصبح الوريث الجديد للعرش، كي لا ينتقل الحكم إلى أخي الأمير فيليب، ولكنها أنجبت بنتاً، فعلمت أن ما لا أتمناه لا بدّ حادث، لأن ماري هنرييت لن تنجب إلا البنت تلو الأخرى، وأنا لا أحب البنات، ولا أمّهنّ.

ثلاث فتيات يسكنَّ القصر، لا أكاد أراهنَّ، وإن جمعتني بهن صدفة أتذكر ليوبولد وفقدي له، وأتمنى لو أن إحداهن افتدته، ورحلت بدلاً عنه، فيزداد حنقي عليهن، وغضبي الذي لا أُخفيه. وأظنُّ أنهن بِتن يعلمن أنني لا أحبهن، وأنني غضبت كثيراً لأن ذات الرئة لم تُصب إلا ليوبولد، في حين تجاوزت أخته الأميرة لويزا التي تكبره بعام، والأميرة ستيفاني التي تصغره بخمسة أعوام.

ما حاجتي للفتيات؟ إنهن غير مؤهلاتٍ لاستلام الحكم، كما أنهن لا يجلبن إلا المتاعب، كأمهن المهووسة بالخيول تماماً، تعلّمن منها ضحكتها العالية، التي قد توقظ المرء من نومه إن ضحكت بجواره، حتى لو كان يغطّ في سُباتٍ عميق.

قررت التوقف عن التفكير بوريثٍ للعرش، والاكتفاء بالتمتع بكوني ملكاً على قيد الحياة، والبحث عن المستعمرة التي حلمت بها؛ فكتبت برقيةً لأبعثها لستانلي، ليحضر لمقابلتي بشكل عاجل وسري، دون أن أخبره بسبب رغبتي تلك، إذ لم أشأ أن يمتنع عن الحضور إن لم يرغب في مشاركتي الحديث عن كل ما رآه في أفريقيا، والأحداث التي صادفت وجوده، وكيف هم الأفارقة الذين لم نرَ منهم إلا العبيد القادرين على تحمّل كل تعب، والعاجزين عن الاعتراض على أبسط أمرٍ يُوجّه إليهم.

كنت قد تتبعت قبل ذلك أثر كل مستعمرةٍ بريطانية، أو فرنسية، أو إسبانية، أو أي بلدٍ يدّعي أن جيشه يسيطر على منطقةٍ ما، فلا طاقة لبلجيكا على حربٍ تستنزف مواردها، وتقضي على جيشها الذي لا يعتبر جيشاً حقيقياً مثل الجيوش الكبرى، والأدهى من ذلك أن مثل هذه المغامرة قد تعرّضني لمصير الإمبراطور ماكسيميليان، ويعيد بلجيكا إلى ما قبل عام 1831 حين كانت مجرد مستعمرةٍ هولندية.

أردت مناقشته في إمكانية سفره إلى هناك للإتيان بالمعلومات التي أحتاجها لدخول أفريقيا، دون أن أدخل في حربٍ مع أي بلدٍ تفرض سيطرتها على أي جزءٍ منه. لكن، قبل أن أرسلها، علمت أنه سافر مجدداً إلى أفريقيا لاستكشافها.

ستانلي

5–3

التعرّف إلى ليفنجستون ألهمني سراً من أسرار الحياة. فكما تعلّمت قبله أن أكثر الأخبار تميّزاً هو ذلك المغلّف بالمغامرات والمفاجآت التي لا يتوقعها أحد، بغض النظر عن كونها صحيحة أو العكس، تعلمت أيضاً أن استكشافات ليفنجستون لم تكن سبب شهرته، ولا حتى كونه طبيباً أو مبشراً.

"إنه اختفاؤه"

وهكذا كان عليّ أن أختفي، على أن أظهر قبل أن يأتي أحدهم للبحث عني، وإلا سحب الشهرة مني، كما فعلت مع ليفنجستون. خططت لذلك بشكلٍ جيد، لكنّي وجدت نفسي فيما بعد متورطاً أكثر مما توقعت، حتى كِدت أفقد الأمل في النجاة، أنا أو أيّا ممن كانوا معي، فقررت البقاء في المكان الذي نحن فيه، والاقتصاد فيما تبقّى لدينا من غذاء يكاد لا يكفينا، حتى نجد من يمدّنا بالمؤنة أو تحدث معجزةٌ ما تنقذنا مما نحن فيه.

في اللحظة التي تشعر فيها بأنك على حافة النهاية، فكّر في كلّ ما من شأنه مضاعفة طاقتك، وقدرتك على التحمّل، فالاستسلام للموت ليس بالأمر الجيد. مهما كانت الظروف المحيطة بك، عليك أن تثق أن ثمة أمراً قد يُحوّل وجهته عنك وإن رأيته متربصاً

بك، ويكاد ينقضُّ عليك. هذا ما آمنت به طوال الوقت، وربما كان هذا الإيمان هو ما منحني القدرة على مواجهته أكثر من مرة، دون منحه فرصة النيل مني.

تخيّلت سعادة السيد جيمس جوردون بينت الابن صاحب صحيفة نيويورك هيرالد الأميركية، والسيد إدوارد ليفي لوسون صاحب صحيفة ديلي تلجراف اللندنية بعد أن اشتركا في تمويل رحلتي الاستكشافية هذه، وما قد تدرّه أخبار عبوري القارة الأفريقية من زنجبار شرقاً إلى إمبومّا غرباً، والوصول إلى مصب نهر الكونغو، لأصبح أول أوروبي يصل إليه، بعد أن تتبعت مجرى النهر؛ فآثرت الحياة على الاستسلام للموت.

رحلة جمعت الجنسيتين اللتين أحملهما في رعايتها، وهكذا كنت باراً ببريطانيا موطني الأصلي، وأميركا التي أتبعها حسب الاسم الذي حصلت عليه. ورغم أن السيد بينت حاول إقناعي بضرورة أن تحوز أميركا على الفضل كله، وأن نبحث عن شريك أميركي ليموّل الرحلة، فإنّ شيئاً بداخلي كان يرغب في وجود بريطانيا بقوة، وهذا ما دفعني إلى الاتفاق مع صحيفة ديلي تلجراف.

قد لا يكون هذا الشيء حباً، أو امتناناً بقدر ما هو رغبة في إظهاري للرجل الذي أصبحته، والذي على بريطانيا أن تندم لأنها لم تُقدِّر مواهبه جيداً، وتركته يرحل، بعد حياةٍ لم تحمل بين طياتها إلا البؤس.

عامان ونصف، وأنا أرتحل برفقة فريقي بين الطرق المتعرجة، تلك التي لم يسلكها أحدٌ قبلنا، مُصرّاً على الوصول إلى مصب نهر الكونغو، راسماً خريطة للطريق الذي أتبعه، ليصبح سهلاً على من يأتون بعدنا، وتُسجّل كل هذه الإنجازات باسمي. ولكنني كنت مُنصفاً لرُعاة رحلتي، فكنت أترك أسماءهم في الكثير من الأماكن التي أصل إليها، هذا

جبل جوردون، وهذه تلال ليفي، وهذا نهر بينت، وهذه غابة لوسون، ولم أترك اسمي على أي شيء إلا مساقط ستانلي، تنفيذا لرغبة مساعدي فرانك بوكوك الأخيرة.

المسكين بوكوك، أنساه إعجابه بتلك الشلالات التحذُّر، فسقط في أسفل النهر، وغرق، ولم نتمكن من إنقاذه، ولكنني متأكد أن روحه راضية حيث ترقد هناك براحة تامة في ذلك المكان الساحر، بعد أن أبلى حسناً في تلك الرحلة الصعبة.

بدت تلك الشلالات السبعة فائقة الجمال، وعلى عكس أغلب مجاري نهر الكونغو تشكل في نهايتها اتساعاً يصلح للملاحة طوال السنة، وهو يتّسع بشكلٍ مُذهلٍ في البحيرة التي أسميتها ستانلي أيضاً إكراماً لذكرى المسكين بوكوك.

لا بدّ أن السيد هنري ستانلي الذي أخذت اسمه دون علمه راضٍ الآن، ولو كان حيا لشكرني على ما فعلته، وربما قرر توريثي ممتلكاته، ولكن ما حاجتي إليها وأنا أحقق كل ما أريده بجهدي الشخصي، دون أن يكون له أو لسواه فضل عليّ، بل على العكس، هو من يجب عليه أن يشعر بالامتنان، وليس أنا، فقد جعلت اسمه يتردد على الألسن، وتتخاطفه الصحف، ولولاي لأخذ اسمَه معه برحيله.

ترى ماذا كانت ستقول السيدة بتسي باري لو علمت بإنجازاتي، ولصلب أي رجل سترد انتمائي، لا بد أنها ستعلم أني لست ابن جون رولاندز الذي وقعت القرعة عليه لأحمل اسمه، ولا أنتمي لأي من الرجال التافهين الذي أضاعت عمرها في معاشرتهم، ورمي بذراتهم في المياتم والإصلاحيات.

"أنا ابن نفسي"

قلتها لها يوماً، ابن نفسي، ولست ابن أي أحد ولا حتى هي.

كلما شردت بي أفكاري بعيداً حيث الذكريات، والألم، أعادني هدير نهر الكونغو إليه، حيث الجمال، والسحر، والمفاجآت التي لا تنتهي. فما إن تظن أنك وصلت امتداده المنبسط حتى تُفاجأ بشلالاتٍ أخرى أكبر من سابقتها، كأنه يجري في سماواتٍ متطابقة، أو أرضين تعلو بعضها بعضاً، لا تشبه الأرض التي نعرفها ونمشي عليها.

أطلقت على الشلالات السبعة التي وجدناها لاحقاً اسم شلالات ليفنجستون، تخليداً لذكراه كأول أوروبي يقرر استكشاف أفريقيا من الداخل، ولولاه لما كنت الآن هنا، أتتبع هذه المجاري والمساقط الواحد تلو الآخر.

لم تكن رحلتنا سهلة، فقد اضطررنا مراتٍ عدّة للدخول في قتالٍ مع القبائل التي نصادفها، ولحسن الحظ فقد كان معنا أحدث البنادق، ومدفعٌ وقنابل مُتفجّرة، في حين لم يمتلك أولئك المعتدون إلا السهام والرماح، أو بنادق تالفة باعها لهم تجار الرقيق مُقابل العبيد الذين اشتروهم، وقد كان على أفراد تلك القبائل أن يعرفوا أننا لم نأتِ إلا للاستكشاف، أما حين يرفعون السلاح في وجوهنا، فلا بد أننا لن نقف مكتوفي الأيدي، وننتظر منهم أن يقتلونا دون أن ندافع عن أنفسنا؛ فأن نُخلِّف عشرات القتلى خيرٌ من أن نُخلَّفَ قتلى.

شيءٌ ما في داخلي لا أستطيع التصريح به، يجعلني أتمنى القضاء على كل من يقف في طريقي، وأؤمن أن هذا البلد الكبير، بكل امتداده الذي يبدو لا متناهيا يجب أن يكون لي أنا، لا لهؤلاء العراة حاملي الرماح، لذلك كلما رأينا مجموعة منهم تقف على ضفة النهر الذي تسير فيه مراكبنا، أطلقنا عليهم رصاصاتنا لنخيفهم، فيهربون بعد أن يسقط منهم عدد لا بأس به من القتلى، بينما نُكمل مسيرنا وكأن شيئاً لم يكن.

بودّي لو أردّ على المطالبين بالدعوة إلى المسيحية في رحلاتي تلك، بأن هؤلاء البشر خلقوا للخدمة، ولم يخلقوا للعبادة، وبأنني مستكشف ولست مبشراً، لكنّ الحكمة تقول إن عليّ السباحة باتجاه مجرى النهر لا عكسه كي لا أغرق، وهكذا وجدتني في أحد الأيام مع ملك أوغندا أقنعه باعتناق المسيحية، وبعد أن أخبرته بالوصايا العشر نظر إليّ كمن يقول ماذا تريد؟ فعلمت ما يفكر فيه، وأخبرته أن ثمة وصية أخيرة تقول:

"عظّموا واحترموا ملوككم لأنهم رُسُل الرب"

هنا انفرجت أساريره، وقرّر اعتناق المسيحية ودعوة شعبه إليها، وبعث معي أكثر من ثلاثمئة شخص، جميعهم لخدمتي، ولا يتجرأ أحد منهم على رد كلمة تخرج من فمي، أو الاعتراض على أي أمرٍ، مهما بدا مستحيلاً أو غير منطقي، فكيف لهؤلاء أن يُفكّروا؟ إنّهم مجرّد أجساد خُلِقت للخدمة وحمل الأثقال، أمّا العقول فلنا نحن الأوروبيين البيض.

هؤلاء الأفارقة بلا عقول، وأكبر دليل على ذلك تكرار تمردهم، وعدم استيعابهم أن ما يفعلونه لا يعود عليهم إلا بالسوء. ولا أنسى تمرّد بعض أولئك الحمّالين، وهربهم بالحمولة التي كانت معهم، ولكن لسوء حظهم أن كل حمولتهم كانت من الطعام، فأمرت البقية بتتبعهم، وإرجاعهم، مع توصيتهم بعدم قتلهم، لأننا بحاجة إليهم، فعادوا راضخين تحت تهديد السلاح، وقمنا بتقييدهم، وأكملوا المسير معنا مقيّدين، وجائعين، لأنني عاقبتهم بحرمانهم من الطعام الذي حاولوا سرقته.

بعد أشهر عدة من وجودي هناك توقّفت عن إرسال التقارير الصحافية، لتشويق القراء، وجعلهم يفكرون في لغز اختفائي، ولكنني وجدت نفسي بعد مدة غير قادر على ذلك

فعلاً بعد أن توغلنا كثيراً في الغابة، وما عاد من الممكن إرسال أحد المرافقين لبعث البرقيات.

قضيت عامين ونصفاً في غابات أفريقيا، جمعت خلالهما كل المعلومات التي أحتاجها، ورسمت الخرائط للمنطقة، بكل التفاصيل، بما في ذلك الصغيرة، كأشكال زوارق الكانو المحفورة في جذوع الأشجار، والأشجار ذاتها النامية على هذه الأرض، والدوامات المائية في الأنهار، أماكنها وشدتها، ومدى خطورتها على المراكب والسابحين، والشلالات، ولم أنسَ أن أضع اسم خطيبتي أليس على إحدى الجُزر، مؤكداً حبي وإخلاصي ووفائي لها رغم المسافات الشاسعة التي تفرق بيننا في تلك اللحظة.

لا تنسيني هذه الاكتشافات أليس، حبيبتي التي لا أعلم إن كانت تنتظرني، أم يئست من انتظاري، وقررت المضي في حياتها، والزواج برجلٍ لا يعرف السفر البعيد عنها، رغم أنها أحبتني للشهرة التي اكتسبتها بعد عودتي من رحلة البحث عن ليفنجستون. لكن هؤلاء النساء لا أحد يمكنه التنبؤ بمَ يفكّرن فيه، أو يُخططن له، فهُنَّ يثرثرن كثيراً لأنهن يحاولن ألا يقُلن ما في دواخلهن، فيُكثرن من الكلام كي يضيع المعنى في زخم المفردات.

وقّعت مع أليس عقداً، اتفقنا فيه على الزواج بمجرد عودتي، لأتأكد من انتظارها لي، وتطمئن أنني لن أهجرها، أو أستبدل أخرى بها في أحد البلدان التي أمر بها، أو ألتقيها مصادفة على ظهر السفينة العابرة بي من أو إلى الولايات المتحدة. وهكذا رحلت وواحدنا لا يثق بالآخر.

ولتتأكد من أنها لم تفارقني لحظة في سفري، فقد أطلقت على الزورق الذي كنا نتنقل فيه اسم الليدي أليس، وقد تميّز هذا الزورق عن سواه بإمكانية فكّه ليسهل حمله، وإعادة

تركيبه بربط أقسامه الخمسة مع بعضها ليصبح زورقاً يمكن الإبحار فيه.

أفكر في إحساسها حين تعلم بذلك، ومدى الفخر الذي ستشعر به لأن اسمها كان يطوف أرض الكونغو، في الوقت الذي تتمتع فيه بالجلوس في منزلها، أو التجول مع صديقاتها، وبينما هي غارقة في أحلامها نواجه نحن أمواج النهر الغاضبة، على ظهر المركب الحامل لاسمها.

قررنا العودة بعد استكمال الاستكشافات التي أتيت من أجلها، ولكن طريق عودتنا لم يكن كطريق ذهابنا، وكدنا نموت جوعا بعد أن نفدت المؤونة، رغم أننا كنا نقتصد في الطعام قدر استطاعتنا، ومات أكثر من نصف رجالي، ولم يبقَ منا إلا ما يزيد على المئة بقليل، حينها قررتُ التوقف، وبعث أربعة من الأفارقة الذين أثق بأنهم لن يهربوا إلى قرية قريبة، يسكنها بعض الأوروبيين، حاملين رسالة مني، لطلب المعونة قبل أن نموت، موضحاً لهم أن تلك المعونة ستساهم في نجاح هذه الحملة الاستكشافية، وأن مساعدتهم سيكون لها دورٌ بارز، وختمت رسالتي بتوقيعي المعتاد: هنري مورتون ستانلي.

تلك الرسالة أعادت لي حامليها الأربعة بما نحتاجه من طعام من قرية بوما، فتمكّنا من إتمام طريقنا إلى إمبومّا، وبعدها العودة إلى زنجبار من حيث بدأنا مسيرنا قبل عامين ونصف، تتبعت خلالها نهر الكونغو، ولم يبتلعني مثلما يعتقد الأفارقة بأنه يبتلع كل الأنهار، ولهم عذرهم في ذلك، فنهر كاساي الذي لا يعدو أن يكون أحد روافده الثلاثة يبلغ طوله نصف طول نهر الراين، أما نهر أوبانجي فطوله ضعف طول نهر الراين، لذلك فكرت في أنه من المهم استغلال هذا الطول والاتساع في تكوين خط سير تجاري لسفننا البخارية في هذه الأرض.

كتبت لأليس أصف لها مشاعري، مشبهاً شوقي الذي بدأ يزداد بالدوامات التي نصادفها بين فترة وأخرى في النهر. كنا قد عدنا إلى زنجبار، حيث بدأت رحلتي، لنعود منها إلى أميركا، بعد أن حققنا هدفنا الأسمى، ولكنني لم أبعث رسالتي عندما وجدت كمّاً من الرسائل في البريد هناك بانتظاري، كان من ضمنها خبر زواجها من أحد الأثرياء بعد انقطاع أخباري بعام.

رميت الرسالة التي كتبتها لأليس، وكتبت لصحيفتَي نيويورك هيرالد وديلي تلجراف، أخبرهما بعودتي، ونجاح رحلتي، وأدعو محبّي الخير للذهاب إلى أفريقيا لنشر المسيحية، وتحرير أولئك الأفارقة المساكين من استعباد العرب لهم.

لم تكن دعوتي تلك في حقيقتها إلا للباحثين عن مستعمرةٍ يصلون إليها باسم الدين، أو الحرية، لعل الخيرات في هذه البلاد تعرف طريقها إلى أوروبا بدلاً من طمسها في هذه البقعة المتأخرة عن العالم.

الملك ليوبولد الثاني

6–3

كالسجلات التي احتفظ بها الإسبان في كازا لونجا، وجدتني أعدُّ سجّلاتي الخاصة عن أفريقيا، حددت مكان كل موطئٍ يمكن لقدمي أن تدوس عليه، أو تأخذ خيراته، والرد الذي سأرد به على كل من يفكر في اتهامي باستعمار أفريقيا، أو المتاجرة غير الشرعية بالعبيد. لم يتبقَ الآن سوى الوصول إلى من سيأخذني إلى هناك.

تحولت بداية كل يوم إلى رحلة للبحث عن طرف خيط في خبرٍ صحافي ربما، أبدأ منه الخطوة الأولى. أتناول إفطاري، وأتصفح الجريدة بعد أن يحضرها الخادم، أقلّب صفحاتها البسيطة، وأمر ببصري على كل الأخبار، أملا في العثور على كلمة واحدة: أفريقيا.

لم أتخلَّ يوماً عن هذه العادة، حتى أتى اليوم الذي حمل لي الخبر الذي فتشت عنه طويلاً بين الأسطر كمن يفتش عن كلمة السر التي ستفتح له الباب المغلق في طريق حلمه.

ذكر الخبر أن المستكشف البريطاني فيرني لوفيت كاميرون لن يتمكن من إتمام رحلته العابرة لقارة أفريقيا، وأنه للأسف لن يستطيع أن يكون أول أوروبي يعبر القارة من شرقها إلى غربها، بسبب نفاد المال الذي لديه.

طويت الصحيفة على ذلك الخبر، ووضعتها أمامي على الطاولة، أفكر فيما يمكنني فعله. بدا جليّاً أن مسألة نفاد المال لم تكن إلا للحصول عليه من أحد المغفلين أو المهووسين بأفريقيا، والطامعين بما فيها من خيرات لم يصل إليها أحد، ولكن لا بأس بتمثيل ذلك الدور من أجل الوصول إلى هدفي الأسمى.

المجازفة ببعثرة أموالي أو مجرد صرفها يُعدّ أمراً غير وارد مطلقاً، فما بالك بتفريقها على عمل الخير، أو أي عملٍ لا يأتي لي بفائدة، ولكني أصل إلى حد الأمور المتعلقة بأفريقيا، وأدفع دون السؤال عن العائد، وكأني قد ضمنته سلفاً.

بعثتُ بمئة ألف فرنك لكاميرون، ليتمكن من مواصلة رحلته التي انتهت سريعاً، دون إنجازٍ يُذكر سوى وضع اسمي على قائمة المهتمين بأفريقيا، والرحلات الاستكشافية هناك. بالنسبة إليّ، وفي ذلك الوقت بالذات، كان هذا الانجاز كافياً، ومرضياً. إنه الخطوة الأولى في طريقي إلى الكونغو.

نشرت الصحف عن رعايتي لرحلة كاميرون، وتنافست في تضخيم دوري في خدمة البشر في أفريقيا، وتقديم المساعدات لهم، حتى كدت أن أصدق ما كتبوه، لولا أني أعلم أنهم يتحدثون عني، وليس عن أي شخصٍ آخر لا أعرفه، كما أعلم أنني أنا من موّلهم للكتابة عني بتلك الصورة المشرِّفة.

بعد عام واحدٍ من تمويلي لرحلة كاميرون ارتأيت أن لحظة الصفر قد اقتربت، وأنني أوشك على قطف ثمرة صبري كل تلك السنين، فقررت استضافة مؤتمر أدعو له كل المهتمين بالتبشير، والاستكشاف، والجغرافيا، والقضاء على العبودية، وخدمة الإنسانية

التي أطمح لها، من رؤساء منظمات، ورجال أعمال، من دول أوروبية ذات سطوة وريادة في هذا المجال، كبريطانيا وفرنسا وألمانيا، وقد وجدتْ دعواتي تلك ترحيباً أكبر مما تخيلت.

يقودني إلى ذلك حرصي على إنقاذ الأفارقة المساكين، أولئك الذين ذكرهم ستانلي في كتابه الذي أسماه: ''كيف عثرت على ليفنجستون''، وما كتبه عن القبائل الأفريقية الآكلة للحوم البشر، وقوافل العبيد التي تسير في الدروب الوعرة، مقيدة الأيدي والأرجل والأعناق، منتقداً العرب القساة الذين يشترونهم بأبخس الأثمان، ويتاجرون بهم كأي بضاعةٍ أخرى بين أيديهم.

بريطانيا التي حرّمت العبودية، وأصدرت قانوناً يجرّم المتاجرة بها، كانت وجهتي الأساسية. هناك التقيت بكاميرون الذي أخبرني عن أفريقيا، وأرض الكونغو خصوصاً، تلك الأرض الغنية بالذهب والفضة والفحم والحديد والنحاس، بأنهارها العريضة التي يسهل الإبحار فيها لنقل البضاعة إلى الميناء، حيث تقبع السفن لأخذها إلى أوروبا، مبدياً استعداده للذهاب إلى هناك إن موّلته، فاكتفيت بابتسامة عريضة قابلها بمثلها، متوهماً قبولي عرضه، وهذا ما أردته، إذ كنت أحتاج إليه للتحدث عن رعايتي لرحلته في المؤتمر، وخشيت أن يُصرّح بمعلومات تكشف طموحاتي إن قلت له إن دوره انتهى.

بعد ذلك ذهبت لزيارة ابنة عمتي الملكة فكتوريا لكسب ودها، رغم أنها لم تكن ذات فائدةٍ لي فيما سبق، ولكن كسب ودها أفضل من معاداتها، والفتى الذي لا يعرف عن الحياة شيئاً، والذي زارها عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، لم يعد كما هو، لقد أصبح يعرف الباب الذي يتوجّب عليه طرقه، ليحصل على ما يريد، من الشخص الذي يريد.

تجوّلت في لندن، وذهبت لمشاهدة نصب ألبرت التذكاري، لأستمد منه الحافز القوي لتحرير العبيد في أفريقيا، والتقطتُ لي صورةً إلى جواره، عملتُ على نشرها في الصحف البريطانية والأوروبية، رابطاً بين رعايتي لحملة كاميرون، واهتمامي بتخليص أفريقيا من العبودية، وتجارة الرقيق، وحملات التبشير لنشر المسيحية في بلادٍ لا تعرف إلا الرقص حول النيران المشتعلة، وتقديم القرابين من الأحياء لتلتهمهم النار، حاملة معها الأرواح الشريرة في دخانها الصاعد إلى السماء.

تأملت المرأة الأوروبية التي تُلقِّن الرجل الأفريقي الأسود وصاياها، لا يغطي جسده سوى بعض الأوراق الخضراء، بينما تتناثر الأغلال المكسورة تحت قدميه، في إشارة إلى دور بريطانيا في تحرير العبيد، رغم أن الحقيقة لم تكن كذلك أبداً، ولكن من يأبه بالحقيقة؟ لا يهتم الناس بما يحدث في الخفاء ولا تقع عليه أعينهم، بل بما يرونه، أو ينقل لهم، وأحياناً حتى ما يرونه يتغاضون عنه، إن لم يرقْ لأفكارهم وأهدافهم.

تطوف ثورة جامايكا التي قادها صموئيل شارب ضد البريطانيين في ذاكرتي وأنا أتأمل نصب ألبرت، تلك الثورة التي قام بها ما يقارب الستين ألفاً من العبيد ذوي الأصل الأفريقي، الذين ثاروا على أسيادهم، بعد أن فشلت مطالباتهم التي ذهب بها المبشِّر توماس بورشيل إلى الملك ويليام الرابع، وعاد إليهم بالخيبة، والوعيد بالعقاب.

لم يحلم العبيد بأكثر من راتبٍ بسيط، يتقاضونه مقابل الجهد الذي يبذلونه في خدمة أسيادهم، وأن يُمنحوا الحرية التي ولِدت معهم، إلى أن أتى أولئك البيض، واختطفوهم، أو اشتروهم من رجالٍ آخرين بيضٍ وسودٍ اختطفوهم. وعندما لم يقبل الملك بمطالباتهم، اعتصموا وأضربوا عن العمل، إلى أن تسرّب لهم خبر الحملة العسكرية التي سيّرتها بريطانيا

لقمع ثورتهم بها، فأحرقوا الحقول، والقصور، وكل ما وصلوا له من ممتلكات البيض، ولم يكتفوا بتدمير الممتلكات، بل امتدّ غضبهم إلى أسيادهم، قتلاً وإحراقاً.

ثورة جزر الهند الغربية جميعها أُخمدت، وليست ثورة جامايكا وحدها، ولكن لا أحد يمكنه نسيان جامايكا أبداً؛ فالخسائر التي خلّفتها جعلت بريطانيا تعيد حساباتها، وتقرر سنّ قانون يُجرّم العبودية.

أتأمل المرأة البيضاء الجميلة في النصب، أفكر في أنها قد تكون آني بالمر ساحرة جامايكا البيضاء، وبدلاً من أن يذكرها التاريخ كقاتلة للعبيد الذين امتلكتهم، أصبحت منقذتهم. فهل سينسى أهل جامايكا ما فعلته بهم، من قتلٍ لرجالهم وأطفالهم في الطقوس شبه اليومية التي كانت تمارسها؟ وهل ستعود لهم الجثث التي رمتها في البحر من سراديب سرية في قصرها، أم أن السحر الذي كانت تمارسه سيعلمهم النسيان والتجاهل، كما فعلوا عندما لم يتجرأ أحدهم على حرق قصرها كما فعلوا بالقصور الأخرى، خشية أن تلحقهم اللعنة الأبدية للأرواح الشريرة التي تسكن القصر؟

إنه لأمرٍ مضحك فعلاً ما يفعله هؤلاء البريطانيون، يقتلون الثوّار العبيد، ثم يمنحون من تبقّى الحرية التي يطالبون بها، وكأنهم يتفضّلون بها عليهم، غير آبهين بتاريخهم الذي كان. ولكني أعذرهم، فأولئك العبيد لا يستحقون إلا هذه المعاملة.

أدرت ظهري لكل التناقض الذي رأيته، وعدت إلى بلجيكا، لإدارة المؤتمر، وكم بدا رائعاً ما رأيته من رضا في أعين الحضور، بعد أن حوّلت المكتب الملكي إلى قصر سكني للضيوف، احتلّ كل ضيف جناحاً كاملاً فيه عدة غرف، ونقلنا المكاتب إلى المخازن والسراديب، ونام الخدم في دواليب الأغطية التي فرغتْ منها، أو على أرضية المطبخ،

وبعضهم اضطُرّ إلى النوم في الحديقة، مُتّخذاً لنفسه مكاناً لا تراه فيه الأعين، حتى نتمكن من تغطية بُعد القصر الملكي عن مكان المؤتمر، وتأمين راحة الضيوف الذين شغلهم المكان الذي قضوا وقتهم فيه، أكثر من المؤتمر نفسه. بعد القصر جعل رغبتي في الحصول على أملاكٍ أكثر تزداد، وتمنيت لو أن أملاكي امتدت من القصر الرئاسي إلى المكتب الملكي.

تعود العبيد على العيش مُكبّلين في القيود، عُراةً إلا مما يستر عوراتهم، أما نحن فقد خُلقنا لنتنعّم بالخيرات التي تأتينا من بلدانهم، وليخدمونا ما امتدت بهم الحياة.

هذا ما لم أقله في كلمتي، مقرراً الاحتفاظ به لنفسي، وقلت ما ود الآخرون سماعه، حتى أقنعتُهم أننا سنُبحر لنحمل مشاعل النور إلى بلاد الظلام، وننشر المسيحية المتسامحة في تلك البلاد التي رزحت طويلاً تحت أوزار العبودية، ولنرسم خارطةً توضّح هذا العالم الذي لم يرسم خارطته من قبلنا أحد، وأننا لا نطمح إلا في نشر السعادة والسلام والحرية في هذا العالم.

"سنسعى للمصالحة بين رؤساء القبائل، وتأسيس قواعد لنشر العلم، ومحاربة تجارة الرقيق، لن يكون هناك عبدٌ بعد الآن. سنسعى لتحريرهم جميعاً، والقضاء على العرب المتوحشين الذين يتاجرون بهم، كأنهم لا يقربون لهم في الإنسانية".

كان هذا ملخص ما تركته كلماتي في عقولهم، كما أقنعتهم أن بلجيكا هي الدولة الوحيدة التي ليس لها طموحات استعمارية، وهي الوحيدة التي لم تحارب أي بلدٍ من قبل، ولا ترغب في ذلك. إنها بلدٌ محايد، ولذلك لن نُرسل إلا المبشرين والمستكشفين والمعلمين، كما سيكون هناك الأطباء الذي سيحافظون على صحة أعضاء بعثتنا، وعلاج أولئك

المساكين الذين يرزحون تحت وطأة الأمراض الغريبة، التي تقتل أعداداً لا نعلمها، ولكنها كبيرة، والقليل جداً – وشددت على القليل جداً – من الجند الذين سيعملون على حماية أولئك الرجال الطيبين هناك.

لأول مرة أشعر أن الحياد الذي التزم به أبي آتى أُكله أخيراً، ولو علم وهو في قبره الآن لابتسم من فرط السعادة، وافتخر بابنه الذي لم يحبّه يوماً، لأنه حقق طموحاته التي لم يتجرأ على التصريح بها، بينما كانت عيناه تحومان باحثتين عن منفذٍ يوصلهما إلى مستعمرةٍ ما، ولو كانت بنصف حجم بلجيكا. وها هو ابنه يُقرّبه من مستعمرة يفوق حجمها بلجيكا بأكثر من سبعين مرة.

أتراه سيتمكن من السخرية مني كما كان يفعل؟ وهل سيرفض مقابلتي حين أطلبها، وأنا آتيه بخبرٍ كهذا، أم سيسارع إلى فتح باب مكتبه بنفسه لاستقبالي؟ لن أستغرب إن جعلني أجلس مكانه، واتخذ له مقعداً قبالتي.

في الاجتماع الأول، جلست في الخلف، وتركت من هم أعلم مني يجلسون في الأمام، فأنا لا أطمح إلا لأن أكون وسيطاً طيباً، يبذل كل ما يستطيعه من جهدٍ ومال ليحقق هذا الهدف الإنساني العظيم، وأول ما أعلنت عنه: التبرع بأرضٍ في بروكسل ليُقام عليها مبنى للاتحاد.

توالت التبرعات للاتحاد من كل الدول المهتمة، كما ترأس اللجان الفرعية الأمراء والدوقات من تلك الدول، ولكن تلك اللجان ظلت اسماً فقط، ولم يظهر لها وجود حقيقي، في الوقت الذي كانت فيه أحلامي الاستعمارية تتحقق بمباركة الجميع دون استثناء، وبميزانية يساهم فيها جميع الحمقى الذين انطلت عليهم حيلتي.

”لا ينقص هذا المؤتمر إلا ستانلي، وإني لأرجو أن يكون بخير“.

شردت بفكري قليلاً، وشعرت بحزنٍ حقيقي لانقطاع أخباره بعد سفره إلى الكونغو قبل عامين. لقد كان الشخص الوحيد من بين المهتمين باستكشاف أفريقيا الغائب عن المؤتمر، وأكثر شخصٍ تمنيت وجوده فيه، أما هؤلاء، فجميعهم ليسوا إلا دُمىً أحرّكها وفق خططي التي وضعتها لهم، وعندما ينتهي المؤتمر أو المسرحية المشاركين فيها، سيعود كل منهم إلى وطنه حاملاً صورةً تذكارية لي في إطارٍ مذهب، لتتربع على عرش جدران مكاتبهم في بلدانهم، تذكرهم بجهودي في خدمة أفريقيا.

انتهى المؤتمر بقرارات أهمها إنشاء الاتحاد الدولي الأفريقي، على أن تُنشِئ كل دولة لجنة خاصة بها، تختلف عن اللجنة الدولية، وصوّت المشاركون على انتخابي رئيساً للاتحاد رغم رفضي لذلك، ولكني وافقت بعد إصرارهم، بشرط أن أكون رئيساً لمدة عامٍ واحدٍ فقط، فأنا كما أكدت لهم لا أطمح لمنصبٍ ولا مال، ولكنهم في العام الذي يليه أعادوا ترشيحي، موقنين أن أحداً سواي لا ينفع لترأس هذا الاتحاد.

في النهاية، اتفق ممثلو كل الدول أن ما أقوم به هو أعظم عمل إنساني على الإطلاق، وتسابقت الصحف إلى نشر انطباعاتهم. وبقدر سعادتي بهذا الأمر، وربما أكثر، سعدت بالخبر الذي نشرته صحيفة ديلي تلجراف اللندنية.

الفصل الثاني

انظر جيداً، وأنصتْ لكل ما يحدث، وإن لم يُصِدرْ صوتاً فثمة صمتٌ أبلغ من الكلام.

ستانلي

5–4

”سندفن قلبه في الأرض التي أحبَّها، أما جسده فيمكنكم أن تأخذوه“

مؤمنين أن قلب المرء يجب أن يُدفن في الأرض التي أحبها، استخرج أصدقاء ليفنجستون قلبه ليدفنوه بجوار بحيرة بانغويولو، حيث أدى صلاته الأخيرة، قبل أن يصعد للرب، الذي ظل يخدمه طوال حياته، في حين أرسلوا جسده إلى بريطانيا، بعد مطالبتها بجثمانه، ولولا التشوّه في يده لما تأكدوا من جثته، التي وصلت بعد عامٍ كاملٍ من السفر في البحر، تنقّلت خلاله من بلدٍ إلى آخر.

لو كان ليفنجستون حيّاً لشكر رفاقه، لأنهم لم يستمعوا لمواطنيه الذين أصروا على حمل جسده كاملاً، قبل أن يرضخوا لرفاقه الذين انتزعوا قلبه، واكتفوا بحمل جسده، وتركوا لهم قلبه. كنت أود لو أوصي رفاقي أيضاً، وأقول لهم:

”لا تدفنوا قلبي عندما أموت، اتركوه للطيور تطعمه لصغارها، لعلها تعرف معنى أن تقضي عمرها كله بلا وطن. أما الأرض فلا حاجة لها بقلوبنا، يكفيها أجسادنا كي تقتات منها“.

ولكني بلا رفاق، أُفضي لهم بأسراري الكبيرة، أو حتى الصغيرة، ولا حبيبة أعود إليها في آخر العمر لتنفض عن قلبي تعبه، وتدفع عني البرد الساكن في جسدي من يوم مولدي.

أنا وحيد، منذ اليوم الأول لي في هذه الحياة. مرّت الأيام، وكبرت وأنا وحدي، بلا أمٍّ تردُّ عليّ كلما ناديتها، وتخبئني عندما أخاف من الظلام، وتضمني ضاحكة كلما هممت بالبكاء، ولا أبٍ يحمل لي قطع الحلوى في طريق عودته إلى البيت كل مساء، ويمدّ يده ليساعدني على الوقوف عندما تعثّرت خطواتي الأولى.

لا أشبه ليفنجستون في شيء. لقد سحرته أفريقيا، وسلبت لبّه، أما أنا فما زال قلبي مُعلّقاً في بريطانيا، ولا زالت ويلز التي رفضتني ترقص في قلبي كصبيةٍ فاتنة سلبت عقلي منذ النظرة الأولى، وتغريني لأجري إليها، وأرتمي في حضنها، معترفاً لها بحبي الذي لم تتمكن من رؤيته في عينيّ، وأطلب منها أن تغفر لي كتماني الطويل له، وعدم بوحي به، ولا زال جون رولاندز حيّاً بداخلي، يُعيدني إلى بريطانيا كلما خرجت منها، وها أنا بعد أن تبرأتُ منه، أعود للبحث عنه، ولا أجده. أطرق أبواب المنازل التي أوته قليلاً قبل أن تطرده، وأحوم حول الإصلاحية لعلّي أراه، أمرُّ حيث واصل الليل بالنهار في أعمالٍ لا يجني منها إلا ما يسمح له بالبقاء مدةً أطول في نُزُلٍ لا يرتاده إلا الفقراء والمعدومون، أتلفّت يمنةً ويسرة، وأينما التفتُّ لا أرى إلا ستانلي.

إصراري على مشاركة الديلي لندن في تمويل رحلتي لأفريقيا، كان لأغرس علمها حيثما ذهبت بجوار العلم الأميركي، ولكن البريطانيين الحمقى اتهموني باستغلال علم بلادهم لأغراض شخصية، إنهم لا يرون فيّ إلا هنري ستانلي، الصحافي الأميركي الباحث عن الشهرة.

أثناء عودتي من أفريقيا، وبعد وصول أخبار استكشافاتي، وجدت حفاوة لم أعهدها من قبل في كل بلدٍ أمرُّ به، ولأني بريطاني الأصل، فقد أصررت على أن تكون وجهتي الأولى،

رغم أن ذلك أغضب السيد بينت الذي تمنّى أن أتجه إلى أميركا للاحتفاء بي، وكان قد أعدَّ العدة لذلك، سعيداً بمبيعات صحيفته التي فاقت كل التوقعات، وأخبار الاستكشافات التي ستكتب اسمه واسم صحيفته في صفحات التاريخ.

رحّب بي المستكشفون البريطانيون، رغم الغيرة التي بدت من بعضهم، إلا أن الغالبية هنّؤوني على ما وصفوه بأعظم اكتشاف ليس في تاريخ بريطانيا وحسب، بل في العالم كله، وكانوا يهنئونني باعتبار أن بريطانيا مشاركة في تمويل الحملة، لا باعتباري بريطانيّ الأصل والمولد.

من حفلٍ لآخر، ومن تكريمٍ إلى تكريم. جلسات، ومقابلات، وحوارات لا تنتهي. تلقّفتني الصحف لتضع صورتي في صفحاتها الأولى، ولكن ذلك كله لم يشغلني عن محاولة اقناع البريطانيين بأهمية استغلال الموارد الطبيعية في أفريقيا، إلا أنني لم أنجح، وقد كنت على استعداد لأن أواصل الأمر لولا ما حدث في حفل التكريم.

ارتديت كل النياشين التي تلقّيتها في حفلات تكريم سابقة، وألقيت كلمة تحدثت فيها عن ذلك النهر العظيم الذي يمكنه أن يصبح طريقاً جديداً للتجارة تتحكم به بريطانيا، والعوائد التي سيعود بها، والإمبراطورية التي ستكبر دون أن تُتَّهم بأي نوايا استعمارية، أو تجد من يحاربها.

كان الأمير إدوارد السابع أمير ويلز حاضراً، وهذا ما جعلني أبذل كل جهدي في الحديث عن الثروات المحتملة، والمجد الذي سيناله من سيذهب إلى أفريقيا لينشر المسيحية، ويحرر أهلها من العبودية، ولم أنسَ أن أذكر تاريخ بريطانيا المشرف في تحريم العبودية، وتحرير العبيد الذين يعملون فيها أو في المستعمرات والمحميات التابعة لها.

تلبّس الفخر كل حركاتي، وسكناتي، حتى التقيت بولي العهد بعد إلقائي الكلمة، بابتسامةٍ عريضةٍ سكبتُ فيها كل عبارات الثناء التي توقّعتُ سماعها منه، مُتعمداً نفخ صدري بزهوٍ غيرٍ مفتعل، وقبل أن أبدأ معه الحديث عن أحلامي بادرني بقوله:

''إن بلادنا تكتفي بما لديها من مستعمرات ومحميات، وهي غير مستعدة للدخول في أي مجازفة جديدة''

حاولت الرد عليه، ولكن إشارته لنياشيني التي علقتها على صدري أوقفتني:

''ألم يعلّموك كيف ترتب النياشين؟''

قالها بسخرية واضحة، وازدراء لم يحاول إخفاءه، فكانت جملته تلك بمثابة الكف التي امتدت لفمي، فأغلقته، وطمست على الابتسامة العريضة التي كانت طافيةً عليه قبلها، ولم أتمكن من الرد عليه، أو إقناعه بأن ما سيحصل عليه هناك أكبر من كل العوائد التي تردِ لبلده الآن.

ليس إحباطاً ما شعرت به، بل التحطّم في أقسى صوره، وفي تلك اللحظة جمعت ما تبقّى من جون رولاندز ودفنته دون تابوت، فلا يليق بمن هو مثله أن يوضع في تابوتٍ خشبي، ويسير في جنازته الخيّرون، ثم يُترك على قبره شاهد يخبرهم كم كان يعاني، ولكن ستانلي حتماً يستحق ذلك، إلا أن الوقت لم يحن بعد.

سافرت إلى أميركا، والتقيت بالسيد بينت لأقنعه بمواصلة ما بدأناه، ولكن هذا الأخير أيضاً أبلغني أنه لم يعد مهتماً بأفريقيا، وأن الناس سترى أننا نكتب المواضيع ذاتها، ولن يصاحبها الشغف ذاته الذي كان، لذلك علينا الذهاب إلى حيث لا يتوقعون، وإتيانهم بالجديد والمثير والخطير.

ركّز كثيراً وهو ينطق كلمة الخطير قبل أن يُضيف:

– القطب الشمالي مثلاً، ما رأيك؟

– لا بُدَّ أنك جننت، لقد عانيتُ ما عانيته في أفريقيا، وحده الحظ جعل الحياة تنجح أكثر من مرة في استعادتي من قبضة الموت. وحين عدت، وبدلا من مكافأتي، تريد مني الذهاب للموت في قطبٍ متجمد، لتزيد من مبيعات صحيفتك؟!

– لكنك أخذت أجرك على سفرك، كما أننا كافأناك، وحصلت على تكريمٍ من الكونجرس، ماذا تريد بعد ذلك؟

احتدم الحوار بيني وبين السيد بينت، وخرجت من مكتبه غاضباً، لا أنوي العودة إليه مرة أخرى.

من أين آتي برجلٍ له أنفٌ طويل، يشم رائحة المال ولو كان مُخبّأً في جوف حوتٍ يسكن المحيط، ويفهم مخططاتي دون التصريح بها؟ قلتها لنفسي، وأنا في طريقي إلى البيت، لأخفف عنها وطء الاحباطات المتتالية، وندمي على رفض عرض الملك ليوبولد الثاني الذي أرسل مساعده البارون جول جريندل والجنرال هنري سانفورد لإقناعي بالعمل في الاتحاد الأوروبي الأفريقي، الذي أنشأه قبل عودتي بعام.

الملك ليوبولد الثاني

6–4

الرجل الطيب الذي سيذهب رجاله إلى أفريقيا، لنشر المسيحية، ومساعدة أولئك البشر الذي يحتاجون إلى المساعدة دون مقابل سوى التقرّب إلى الرب هو أنا، ولْيُعِنّي الله على إنجاح أهداف الاتحاد الدولي الأفريقي.

أرسلت برقية لسفيرنا في لندن، وطلبت منه التقصّي بشكلٍ سري عن صحة الأخبار المتناقلة حول عودة ستانلي واكتشافاته، وإن كان فعلاً قد وصل إلى نهر لوالابا، وأن يُرسل له برقية تهنئة قبل كل ذلك.

قرأت الخبر مرتين، وتأملته كثيراً وأنا شارد الذهن، قبل أن أترك الصحيفة، وأدور في الغرفة كمن يبحث عن شيء لا يعرف ما هو، ثم عاودت قراءته مرة ثالثة، وناديت بعدها الخادم ليُحضر لي كوباً من القهوة، وقرأته رابعة وأنا أنتظر القهوة التي شربتها لاحقا وأنا واقف أمام النافذة، أجول بنظري في المساحات الممتدة لحديقة قصر ليكن. لكن مرور ماري هنرييت على ظهر حصانها في الحديقة منعني من قراءته للمرة الخامسة، فأغلقت النافذة وعدت إلى طاولتي، وقد تضاربت مشاعري بين الفرح بعودة ستانلي، والانزعاج من رؤيتها.

اتصلت بمساعدي البارون جول جريندل، وطلبت منه التواصل مع الجنرال الأميركي هنري سانفورد، متيقناً من قدرته على مساعدتي في إقناع ستانلي. فالجنرال ذو شخصية محبوبة بين الناس، وله مكانته الاجتماعية التي تجعل الجميع يُصغي لما يقول.

اجتمعت بهما، وحدثتهما عن رغبتي في تعيين ستانلي في الفرع الأفريقي من الاتحاد، فتفاجأ الاثنان من الأمر، وبادرني البارون جريندل بقوله:

– لكننا لا نملك فرعاً هناك.

– لكننا سنملك، فنحن لم ننشئ الاتحاد إلا لخدمة البشر هناك.

التفتُّ إلى الجنرال سانفورد، وأوكلت إليه مهمة التحدث مع ستانلي، ودعوته للاحتفال به في قصره، وطلبت من البارون جريندل مرافقته إلى بريطانيا للقاء ستانلي، ولكن ظني بهما خاب بعد أن رفض ستانلي العرض، متعللاً بأنه يطمح لأن يستمر باستكشافاته، ولا يرغب بأي عمل يُعيقه عنها.

"ربما لم يكن العرض الذي قدموه له مغرياً"

فكرتُ، ولم أعرف كيف أتصرف، فالوقت يمر، وأخشى أن يأتي من يؤثر في ستانلي، وتضيع من يدي المستعمرة التي خططت لامتلاكها سنواتٍ عدّة، لكنني غير قادرٍ على إظهار نواياي، وإلا لهاجمني كل من وقفوا معي في سبيل إنشاء الاتحاد الأفريقي، ووجدت نفسي غيرَ قادرٍ على استعادة سمعتي الطيبة مرة أخرى.

أعلم أن أحداً سواه لن ينجح في تحقيق طموحاتي في الكونغو، فقد أرسلت سابقاً أربع بعثات استكشافية تحت مسميات مختلفة، جميعها لا يُشير إليّ، وكنت دائماً أحرص على عدم ظهور اسمي كممول لتلك الاستكشافات خشية أن ألفت الانتباه إليّ، ولكنني لم

أجنِ من تلك الرحلات إلا الخسائر المتتالية لأني منحت ثقتي لمجموعة من الرجال الحمقى.

كل فريق بعثته كان يضع خططه، كأنه ضمن الكونغو في يده، وفي حين بدا ستانلي مُنظَّماً، يعرف ما يريد، ويسجل الخطوة تلو أختها، ولا يتحرك إلا بعد حسابٍ متأنٍ لما سيحتاج إليه، كانت تلك الفرق تأخذ المال، وتصرفه في شراء ما يحتاجون إليه للرحلة وفق تقديرات غير مدروسة، ولا أكاد أفرح برحيلهم حتى يصلني خبر فشلهم.

تتبعتُ أخبار ستانلي، والحفلات التي تُقام على شرفه، والتكريمات والنياشين التي تُقدم له، وعلمت برفض بريطانيا وأميركا لتمويل الحملة التالية، والإحباط الذي أصابه، وهنا تدخّلت بإرسال الجنرال سانفورد مرةً أخرى، ومنحته ثقتي، هامساً له بسر تأثيره العجيب على الآخرين.

"أخبره أنني وجدت مستكشفاً آخر سيذهب بدلاً عنه، وأنك ذهبت إليه لأنك أميركي مثله، ولا تريد لهذا المجد أن يذهب لغير أميركا".

وكانت تلك الخطة التي أحضرت ستانلي اليائس إليّ، ليتم اللقاء الأول بيننا، فأنا الوحيد المهتم بأفريقيا، وأنا من سيعيده إليها، وإن لم يتمسّك بطموحاتي، فستتلاشى معها طموحاته التي لم تتعدَ المال كما يبدو واضحاً.

– خمسون ألف فرنك عن كل عامٍ تقضيه في أفريقيا، وخمسةٌ وعشرون ألفاً عن العام الذي تقضيه في أوروبا.

– وسيكون عقد عملي معك شخصيا.

– بالطبع، معي أنا الملك ليوبولد الثاني.

– ولن أصرف من هذا الراتب شيئاً.

– وسأتكفل بمصروفاتك هناك، كما سأتكفل بتمويل الرحلة كاملة.

عرفت منذ البداية أن ستانلي لا يطمح لشيء كما يطمح للمال، وفي لقائي معه تأكدت من ذلك. رغم محاولته عدم إظهار ذلك، فهو لم ينجح إلا في الظهور بمظهر الشاب البائس الباحث عن مالٍ يصنع منه مجده، ولكن عليّ الاعتراف أيضاً أن مستكشفاً آخر لا يملك حماسه.

اتفقنا على أن يعود إلى أفريقيا، ويؤسس قاعدة للاتحاد الدولي الأفريقي في الكونغو، ثم يتوسّع منها في كل الاتجاهات، ومنحته كامل الصلاحيات في التصرف دون الرجوع إليّ، على ألا يُقصّر في التوسع في إنشاء القواعد التابعة للاتحاد، وأن أكون أول من يطّلع على أي اكتشافٍ جديد، وأول من يقرأ أي كتابٍ قد يفكر في تأليفه عن الرحلة، ومراجعته، وتعديل أيّ معلومة أرى ضرورةً في تعديلها بعد الاتفاق معه قبل طباعته.

غيرنا اسم الاتحاد إلى رابطة الكونغو الدولية، وقد أضفنا الدولية لإسكات أي صوتٍ قد يُفكر في الارتفاع، بينما لا يحكم هذه الرابطة إلّاي، كما لن يكون للكونغو حاكماً أو مالكاً سواي.

اشترى ستانلي ملوك الأفارقة، وأراضيهم، وأنا اشتريت الصحافيين الأوروبيين لينشروا ما أود نشره من معلومات عن رابطتنا الدولية في الكونغو، ولم أتخيل بعد كل ما عملته أن ينافسني على ملكية الكونغو أحد. فأنا من ذلك النوع الذي ينام بعينٍ مفتوحة، خشية أن ينقضّ أحدهم على حلمه، أو يخطفه على غفلةٍ منه، وهو ما كنت قلقاً منه منذ البداية. ولكن المستعمرة التي حلمت بها تكاد تنفرط من يدي، تنافسني عليها فرنسا التي طمعت

بها بعد انتشار وجودنا هناك، كما أن البرتغال أيضاً ارتأت أن يكون لها حصة، ورغم أنني أملك عقود شراء لمناطق كثيرة، فأحدٌ لن يعترف بتلك العقود، وإظهارها في هذا الوقت يعني اعترافي بنواياي الاستعمارية، وحينها قد أواجه حرباً لا طاقة للشعب البلجيكي بها، مما قد يعرضني لانقلابهم علي. لذا فكرت بحلٍ يقلب الوضع لصالحي، ورجلٍ يمكنني الاعتماد عليه للتحكم في الرؤوس الكبيرة في أوروبا، دون إثارة الانتباه.

اليد التي تحوّل الذهب إلى رماد، قد تنجح في تحويل الرماد ذاته إلى ذهب في ظروفٍ أخرى، وحسب معطياتٍ مختلفة، والجنرال ستانفورد هو أحد الأشخاص الذين ينطبق عليهم هذا الأمر، فرغم فشله في التجارة، وخساراته التي لا تنتهي لما ورثه من أموال، هو ذاته الرجل الذي يمتلك قدرة على إقناع الآخرين. كل ما يحتاجه فقط أن تدعمه بالثقة، والخطط المناسبة لاتباعها، وقبل أن تخبره بطلبك عليك أن تؤكد له أن لا أحد غيره قادر على أداء تلك المهمة، ليؤديها كما لن يؤديها أحد غيره فعلاً. وكما أقنع ستانلي بالسفر إلى الكونغو، لن ينجح في إقناع الرئيس الأميركي تشستر آلان آرثر بالاعتراف بسيادتي على الأراضي في الكونغو سواه.

كنا قد غرسنا علم الرابطة في سبع عشرة محطة، يبلغ عدد سكانها بالملايين. أقنع سانفورد الرئيس أننا شكلنا دولاً مستقلة في تلك الأقاليم التي تخلّى عنها رؤساء القبائل، وباعوها لنا، فنحن لم نذهب إلى هناك – كما أكّد له – إلا لأهدافٍ سامية، أهمها تحرير السكان هناك من العبودية، ومنحهم الحرية التي يستحقونها كبشر، ولم ينسَ أن يُغريه بدعوة الشعب الأميركي لشراء أراضٍ في الكونغو، كما وقّع معه اتفاقية إعفاء من الرسوم الجمركية على السفن الأميركية.

على المرء أن يعرف كيف يؤثر في مُستمِعِه، وكيف يوصل له المعلومة غير الدقيقة بطريقة تجعلها تبدو في منتهى الدقة. فالولايات المتحدة التي أنشأت دولة مستقلة في ليبيريا من العبيد المحررين من سفن العبيد بدلاً من إعادتهم إلى بلدانهم الأصلية، لم تفعل ذلك كبلد، بل فعلته جمعية خاصة، هي جمعية الاستعمار الأميركية، وقد منحوا تلك البلد اسمها المشتق من ''ليبرتي'' التي تعني الحرية، وهو ما ستفعله مؤسسة ليوبولد الدولية في الكونغو، وهذا ما أقنعنا به الرئيس تشستر، مؤكدين أن العبيد السابقين سيحصلون على المزيد من الحرية والمساواة في أفريقيا.

إرسال السود إلى أفريقيا أيضاً كان حلاً مريحاً للبيض المتخوّفين من تزايد نفوذهم في أوروبا، لتعود أوروبا خالصة للأوروبيين، وهو ما سيساعدني أنا أيضاً على توفير العمالة التي نحتاجها هناك، بمباركة دولية، دون أن يشتبه أحد بصدق نوايانا، وإخلاصنا لمبادئنا التي آمنا بها.

أظهر سانفورد كتأكيد على نوايانا الحسنة إحدى المعاهدات التي أبرمناها مع رؤساء القبائل في الكونغو، بعد أن محوت منها النقاط المتعلقة باحتكاري للتجارة، وأعترف أنني اضطررت لخداع سانفورد الطامع إلى تجارةٍ هناك، ولكنه هو بالذات لا يمكنني السماح له بالذهاب إلى الكونغو للتجارة، فكل خساراته هنا لن تجد عصا سحرية هناك تحولها إلى أرباح. إنه رجل سياسي، لكنه ليس بتاجرٍ أبداً.

يحب سانفورد الملكية، ويتمنى لو يكون الحكم في أميركا ملكياً بدلاً من كونه جمهورياً، وفي الحقيقة إنه يملك حس التصرّف كملك، فهو رجل مهذب، ولطيف، ويمكنه استمالة الجميع بحديثه المنمق، حتى إن بعضهم كان يقول له إن صفات الملوك تسري في دمه.

هذه الصفة تجعله محباً للإطراء، لذلك لم أترك فرصةً إلا أثنيت عليه فيها، وثمّنت جهوده، وكنت أقول لكل من يعرفه إنّ شخصاً كسانفورد وُلِدَ ليكون ملكاً، ولا أستبعد أن يحدث هذا في يومٍ ما، وكان هذا الإطراء الأخير يجعله يبذل كل ما بوسعه لتحقيق ما أطلبه منه.

كما نجح سانفورد مع ستانلي، كذلك نجح مع الرئيس الأميركي، واستطاع بحنكته السياسية جعل الكونجرس يصدر بياناً يؤكد فيه أن أحداً لم يقمْ بعمل نبيل يهدف إلى تحويل شعب همجي إلى شعب متحضر، مثلما فعلتُ، ونجح أخيراً في أن يجعل الولايات المتحدة تعترف بحقوقي في الكونغو بشكل رسمي.

الاتحاد الدولي الأفريقي الذي كان، أضحى الآن في عداد الأموات، يتذكره الجميع كما يتذكر الأحياء فقيدهم الطيب. ما تبقّى منه هو مؤسسة ليوبولد الدولية، التي هي مؤسستي الشخصية باعتباري مالكها الوحيد. كل هذه المسميات لا تهم، بقدر ما تهم الأعمال التي تقوم بها.

ما إن تخلصت من أميركا، حتى ظهرت لي فرنسا، التي صوّر لها غرورها أن بلجيكا لن تكون منافستها، وأن منافستها الوحيدة هي بريطانيا، فقمت بتضخيم الفكرة في رؤوسهم، وقد ساعدني على ذلك إصرار ستانلي الدائم على أن يكون لبريطانيا دور في الكونغو، وكان أن نلت اعترافهم بعد أن منحتهم الأفضلية في الكونغو، سواء من حيث التملك أو التجارة. ولأنهم حمقى لا يدرون عما يحدث في الخفاء، فقد ظنّوا أن خط سكة الحديد الذي بدأت به في الكونغو سوف يجعلني أُشهر إفلاسي، وسأضطر لبيع الأراضي التي سيكون لفرنسا منها حصة الأسد.

أشعر بالشفقة على أولئك الطامعين المغرورين، الذي يعميهم غرورهم عن التفكير، كما تُصوِّر لهم أطماعهم ما يودون تملّكه في أيديهم فعلاً.

الوحيد الذي كاد أن يُفشل خططي هو بسمارك؛ فهذا الرجل له رأس كالحديد، لم يُخطئ من لقّبه بالمستشار الحديدي للقيصر الألماني فيلهلم الثاني. ولكن، من لا يملك جيشاً عليه أن يحتال لينجو. ألا يقولون إن الحرب خدعة؟

ببعض التحايل اقتنع بسمارك أن بلجيكا الضعيفة أفضل من فرنسا الطامعة، وبريطانيا القوية. فمنحنا تأييده، واعترافه بالدولة الجديدة، مقابل ضمان حرية التجارة، والتسهيلات لألمانيا. وبما يظنه دهاءً، وفي محاولة منه لإبراز دور ألمانيا، اقترحَ إقامة مؤتمرٍ في برلين لمناقشة بعض الأمور الخاصة بالكونغو، على أن ندعو له كل الدول العظمى، فباركنا اقتراحه، وساندناه.

تعمّدت ألا أحضر ذلك المؤتمر لأؤكد له أني غير مهتم بأي ظهور أو إبراز لعمل الخير الذي أفعله، لكني كنتُ كالعنكبوت التي مدت أذرعها في كل الاتجاهات، ونصبت شبكتها فأوقعت الكل في حبائلها. طوال أيام المؤتمر كانت الأخبار تصلني أولاً بأول، ولا تكاد تُلفظ كلمة من أحدهم هناك حتى تجد طريقها إلى أذني المصغية، لأسجلها في ملاحظاتي، ويجد صاحبها الرد المناسب، من الشخص المناسب، في الوقت المناسب.

في نهاية المؤتمر تم الاعتراف بدولة الكونغو المستقلة من جميع الدول، كما تم الثناء على جهود الرجل النبيل الذي يسعى لإنارة تلك البقعة المظلمة من العالم، ولم يكن ذلك الرجل إلاي أنا الملك ليوبولد الثاني.

تحولت الدويلات المستقلة التي أنشأناها في الكونغو إلى دولة واحدة مستقلة، وتمكنت من تطويع الصحافة المأجورة لتنشر عن تلك الدولة طوال الوقت، وفي كل مكان، وتُوجِّه الناس إلى ما نود ترسيخه في دواخلهم من حقائق، حتى استقر في العقل الباطن للمجتمع الدولي اسم جمهورية الكونغو الحرة.

باكامبو

5–1

منذ فتحنا أعيننا على الحياة ونحن نرى المطاط دون أن نعيره أدنى اهتمام، حتى أتى الرجال البيض، فأصبح أغلى من البشر، والكروم التي كانت تملأ الغابة بدأت بالتناقص يوماً بعد يوم، فأصيبوا بالجنون، ولم يعد لديهم من عمل إلا البحث عنه، ولو دفع الناس أرواحهم وأطفالهم في سبيل الوصول إليه.

لا زلت أتذكر عندما أتوا إلى قبيلتنا، وتحدث قائدهم مع رئيس القبيلة ليؤمِّن لهم رجالاً يساعدونهم على استخراج المطاط.

”لن يعمل الرجال دون مقابل“.

أجاب رئيس قبيلتنا على طلبهم، ولكنه وجد نفسه ودون أن يعلم، يوقّع على عقد عملٍ بالسُّخرة لكل أفراد قبيلته لدى أولئك البيض، كما يلتزم بإحضار الكثير من العمال كلما طُلب منه ذلك، والأسوأ من ذلك أنه اكتشف لاحقاً أنه باع لهم الأرض التي نعيش عليها، مقابل قطعة قماش لم يعرف ما يفعله بها.

الثمن ذاته أصبح لاحقاً ثمناً للرجال الذين نستولي عليهم كغنائم، أو أولئك الذين يهربون من العمل، فنأمر ببيعهم والعودة بأثمانهم حيث تتم مُقايضتها مرةً أخرى بالأراضي والرجال.

في البدء أتى الكثير من الرجال الراغبين في العمل في جمع المطاط، ظنا منهم أنهم سينالون أجراً على عملهم، فحضروا مصطحبين معهم زوجاتهم وأطفالهم لأن ذلك كان شرطا لقبولهم، باعتبار أن وجود الأسرة بالقرب من مكان العمل سيمنع الرجال من التفكير بتركه.

لم يتخيل أحد أن الأمر مجرد كذبة، وأن المطاط لن يأتي بالخير إلا لأولئك البيض القادمين من خلف البحر، وأننا لن نكون إلا أدواتٍ يسخّرونها لخدمة مصالحهم، تختلف الطرق ويتوحّد الهدف.

شيئاً فشيئاً بدأت الخدعة بالتكشّف، ولكننا كنا قد تورطنا فيها، ولم يعد بمقدورنا التخلّص من الشباك التي حاصرتنا، وقطعة القماش التي أخذها رئيس القبيلة أصبحت القيد الملتفّ حول أعناقنا، يضيق أكثر فأكثر في كل يوم، ولم يكن لنا بعدها إلا السطو على القرى الغافلة، للحصول على الطعام.

حاول البعض منا الهرب عندما اكتشف أنه خُدِعَ، وأن ما ظنه عملاً، لم يكن إلا سُخرة، واستعباداً بشكلٍ ما، ولكنه استعباد يُتيح لك استعباد غيرك، وممارسة الدور الذي يُمارسه سيدك عليك بشكلٍ أكثر ساديّة، ودمويّة، وشيئاً فشيئاً تجد نفسك مجرد أداة تعذيبٍ في يد جلادك، وأنك انتزعت قلبك بيدك ورميته عند أول مواجهةٍ بينك وبين الموت الذي رأيته ينقض على غيرك ويخطفه بمنتهى البرود.

رغم المحاولات الكثيرة والمستمرة، لم ينجح أيٌّ منا – نحن الجنود كما يُطلقون علينا – في الهرب، بل إن كل من قُبض عليهم كانوا يُعاقبون بالعقاب ذاته الذي يُعاقب به العاملون في جمع المطاط في حال حاولوا ذلك؛ فيُعرّى الواحد منهم من ملابسه، ويُصلَب

أياماً عدة عارياً في جذع شجرة مطاط كبيرة، ويُصبح مُتاحاً لكل من يرغب في الانتقام منه، أو التنفيس عن غضبه في جسده، أو يُغريه جسده اللامع، ورأسه المتغضّن على كتفه، ثم يُخصى ليفقد ما بقي من رجولته وكرامته، قبل أن يتم أخذه إلى الميناء ليُباع هناك كعبدٍ يتناقل السادة سند ملكيته، أو يتوارثونها جيلاً بعد جيل.

"على الأقل نحن لا نخصي من نبيعهم في الميناء".

هذا التفكير جعلني أشعر بعظمة ما نفعله، إذ ننقذ هؤلاء المساكين من الموت، والخصي، ونجعلهم يتمتعون بحيواتهم، ورجولتهم بعيداً من هذه الغابة البائسة، ولعنة المطاط التي طالت كل فرد فيها.

عندما أتيت للعمل كنت أظن أني سأعمل جندياً فعلاً. تخيّلت الزي الذي سأرتديه، ذلك الشبيه بما يرتديه البيض القادمون من خلف البحر، بساقيه القصيرتين وهما تغطيان ساقيّ إلى ما فوق الركبة بقليل، وقبعةٍ تحميني من الشمس كلما اشتدت، وتنجح في تخبئتي من المطر أينما هطل فوق رأسي دون سابق إنذار كما يفعل دائماً، ولم أتخيل أني سأكون مجرد أداةٍ في أيدي القوات العامة، تفعل بنا ما يحلو لها، وتوجهنا لأوامر لا نملك الجرأة على رفضها أو مناقشتها، وليس لنا من الأمر إلا السمع والطاعة.

ظننت أنني سأحصل على أجرٍ مناسبٍ جرّاء عملي، ولم أعلم أن الأجر الوحيد الذي سأحصل عليه هو بقائي حيّاً طوال مدة عملي التي لا تقل عن سبع سنوات، يسمح للجندي منا بعدها بالعودة إلى قريته، خاليَ اليدين، ولكن ليس كما جاء أبداً.

بعض الجنود جاء من بلادٍ أخرى، نجحوا في إغوائهم بالعمل نظير مقابلٍ مادي قليل، لكنه يعني الكثير لمن لم يملك يوماً مالاً في يده، ولم يتعامل إلا بتبادل البضائع. أما أنا

ورفاقي فقد أتينا بناء على عقدٍ وقعه رئيس قريتنا للعمل كجنود مقابل مبلغ مادي، وسرعان ما اكتشفنا أن العقود التي وقعها حملت صكوك عبوديتنا لهم. عملنا بالسخرة مدة لا تقل عن سبع سنوات، وإن عوقب أحدنا نتيجة تقصيره، فقد تزيد المدة حتى تصبح عشر سنوات، وربما أكثر، بحسب الذنب والعقاب الذي يستحقه.

كل ذلك وأسرنا بلا مُعيل لها، سبع أو عشر سنوات تضيع من أعمارنا، فنشيب خلالها، ويكبر صغارنا دون أن نراهم، لا نعلم عنهم ولا يعلمون عنا شيئا، وبعد كل تلك السنين نعود لهم خاوين الوِفاض، بلا شيء في أيادينا، كأننا لم نذهب عنهم إلا لنذيقهم مرارة الفقد والحرمان.

لقد كنا أنقياء، حملنا أحلامنا في قلوبنا، كعصافير صغيرة تحلم بالطيران، وكانت الغابة هي السماء الفسيحة، والقوات العامة بمثابة الأجنحة القوية التي ستجعلنا نطير إلى حيث حلمنا. لم نتخيّل لحظة أن تلك الأجنحة ستكون أثقل من أجسادنا، وبدل أن تصعد بنا إلى السماء هوت بنا إلى الجحيم.

بينغا

6–1

”كوتوكوتو، كوتوكوتو“.

نصرخ من بعيد، ونحن نتقافز فرحين، عندما نسمع الهدير في نهر كاساي، صغاراً لا نفهم عن ذلك الكوخ الذي يكبر أكواخنا بكثير.

لأول مرة نشاهد كوخاً يُبحر كقاربٍ على سطح الماء، والناس بين واقفٍ وجالسٍ على أرضه، آمنين، يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، غير عابئين بأعين الأطفال التي تراقبهم من بعيد.

”هل هذا كوخ الرب؟“

أسأل أبي، فيقول:

”ربما“

ثم يعود فيقول، مُشيراً لخروج الدخان منه:

”أظنهم يشوون اللحم للرب بداخله“

نركض بموازاته من بعيد، فنشاهدهم من حيث لا يشاهدوننا، إلى أن يختفي عن نواظرنا، فنعود إلى أحضان عائلاتنا، نحدث أمهاتنا عن كوخ الرب الذي يتجول في النهر.

”لقد رأيت الرب“.

لا أذكر كم مرةً أعاد أبي سرد حكاية رؤيته للرب. يقولها بفخر لأن أحداً سواه في قريتنا لم يشاهده من قبل، ولم نسمع أحداً من بعد أبي يقول إنه شاهده.

"كان يسير في موكبٍ مهيب، يحيط به عشرات التابعين، يُمسك بيده عصاً طويلةً، تُطلق ناراً، يقتل بها أفراد قبيلة الباسوكو، تلك التي لم تترك قبيلة لم تخطِفْ أحداً من رجالها، لتُضحي به في الليالي التي يختفي فيها القمر، ثم تأكل لحمه بعد أن تشويه على نارٍ تظلُّ متّقدةً لليلتين متتاليتين بعد ذلك، حتى يرضى القمر، ويعود ليبزغ من جديد"

لم يكن قد تزوج أمي بعد حين رآه، ولكن هذه الحكاية ظلت أجمل ما يؤنس به لياليهما بعد زواجه بها بعد تلك الحادثة بوقت قصير، يُحدثها عن جماله، وكيف أنه لم يرَ وجهاً يسكنه النور كوجهه، حتى إنه يلمع تحت الشمس، بينما ينطلق الشرر الكبير من عصاه.

"تخيّلوا أن شرارة واحدة كانت كافية لتقتل الرجل منهم"

يقولها بدهشة، قبل أن يصمت قليلاً، ثم يُكمل الحديث عن موكبه العابر في النهر الهائج، لا يخشى الغرق، هو أو أيّ من أتباعه المخلصين، الذين يقفون حوله، كأنهم حرس مستعدون للتضحية بأرواحهم من أجله، لا تصدر من أيٍّ منهم أيّ حركة، إلا إن أشار إليهم بحركةٍ من يده، فينفذون ما يطلبه منهم، لدرجة أن الناظر إليهم من بعيد يظن أنهم مجرد تماثيل، ويتفاجأ بحركتهم بإشارةٍ من يد الرب.

"ما إن تراجع الباسوكو حتى أكمل مسيره نحو النهر نزولاً، دون خوفٍ من الشلالات الهادرة هناك"

يحكي ويتحسّر لأن قدمَيه لم تمكناه من اللحاق به قبل أن يختفي عن ناظريه، رغم أنه ركض بكل قوته، وهو يتتبع الموكب من الضفة الموازية للنهر.

منذ ذلك اليوم لم تعد قبيلة الباسوكو لمهاجمة أحد، خشية أن يظهر لها الربُّ في أيّ لحظة، ويقتلهم كما فعل في المرة الأولى، ولظنهم أنه لن يترك أحداً منهم هذه المرة، أوقفوا أفعالهم، بينما أجبر الرب القمر على العودة دون قربان، ولم يظهر بعدها أبداً.

كان أبي الوحيد الذي تمكّن من رؤية الربّ، حتى أتى ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى قريتنا، فخرجنا كلنا لرؤيته، بعد أن أخبرنا ميمبو — الفتى العامل مع رئيس القبيلة — أن الرب الذي رآه أبي يجلس معه. يرافقه بعض المساعدين الذين يشبهونه، حتى إننا ظنناهم أبناءه في بادئ الأمر، والكثير من الجنود السود، يحملون عُصيّاً غريبة الشكل، وسياطاً مُسننة من الجانبين يلفّونها بشكلٍ دائري، ويعلّقونها في أوساطهم.

مدّ الرب يديه لمصافحتنا، وكلما صافح أحدنا سرت قشعريرة في جسده، تجعله يوشك على السقوط، فظننا أن تلك القوة واحدة من معجزاته التي لا يشابهه فيها أحد.

منح رئيس القبيلة بعض الهدايا التي أحضرها معه، والتي بدوره وزّعها على نساء القبيلة فلم يتمكّنَّ من إخفاء فرحتهن بتلك الهدية التي زينت أعناقهن بقلائد مصنوعة من الزجاج الملون، فيما احتفظ لنفسه ببعض القطع من الأقمشة التي اختصّه بها، بعد أن طلب منه معاونته على بناء طريقٍ يُسهل للناس الدخول إلى الغابة، والخروج منها، ويمكن من خلاله حمل البضائع في عربات، دون أن يضطر رجالنا لحملها على أكتافهم مسافات طويلة، كما اعتادوا.

شعرنا يومها بحبه لنا، وأنّه اختارنا لجعل حياتنا أسهل، وأجمل، وأنه لم يمر في النهر في ذلك اليوم إلا ليطمئن على أوضاعنا، ويحدد الطريقة الفضلى التي يمكنه مساعدتنا بها، كما قال أبي.

كنا فرحين جداً لأن الرب يطلب مساعدتنا، وقد تعهدنا بفعل كل ما نستطيع حتى يكون راضياً، وسارع رئيس القبيلة للتوقيع على الاتفاق بينهما، برسم خطين متعاكسين لأنه لم يفهم ماذا يقصد بالتوقيع، عندما مد رجاله ببعض الأوراق، وطلبوا منه التوقيع عليها؛ فرسم الرب خطين صغيرين متعاكسين على الأرض، وطلب منه أن يفعل ذلك على الورق، مؤكداً أن ذلك سيمنحنا الحق باستخدام تلك الطرق، وأنه اختارنا لنكون أتباعه المخلصين، ومعاونيه الذين ستنهمر عليهم أفضاله مع الوقت، لأنه رأى فينا الخير الذي لم يجده في سوانا على الأرض، مؤكداً أننا ما زلنا كما خُلقنا أبرياء لم تلوثنا الحياة، وأكد أن عطاياه لنا ستزيد مع إخلاصنا، وكلما كنا متعاونين معه أجزل لنا عطاياه، وقدم لنا المفاجآت التي ستدهشنا.

قرر الربُّ اشعال النار للاحتفال بتوقيع المعاهدة، وبقدر دهشتنا برؤيته، وطيبته، وقوته، كانت دهشتنا بطريقة إشعاله للنار. فهو لم يشعلها كما اعتدنا، كما لم يطلب منا إشعالها، بل اكتفى بالإشارة للشمس بقطعة لامعةٍ في يده، وأغمض عينيه وهو يردد بعض الكلمات التي لم نسمعها، فاشتعلت النار في الأوراق اليابسة، واحتفلنا بالغناء حول النار لأول مرةٍ في النهار، لذلك ربما لم يتمكّن غناؤنا من طرد الأرواح الشريرة التي رافقت وجود ذلك الذي ظنناه ربّاً.

اكتشفنا فيما بعد أن ذلك الرجل لم يكن ربّاً، بل رجل أتى ليأخذ أرضنا، ويجبرنا على العمل معه دون مقابل، وأن تلك العصي السحرية التي يحملها ورفاقه، لم تكن إلا بنادق تقتل كل من لا يمتثل لأوامره.

منذ ذلك اليوم ونحن نهرب من الرجل الأبيض، بعد أن كنا نتبعه كلما مر في النهر عندما كنا نظنه ربّاً. نهرب منه لأننا عرفنا أنه لا يحمل لنا معه إلا الموت، لا فرق لديه بين أفراد قبيلة الباسوكو، أو القبائل الضعيفة كقبيلتنا، وأنه ما أتى إلا لينهب أرضنا، ويسرق محاصيلنا، ويدفع بنسائنا إلى رجاله. نهرب منه وينجح في كل مرةٍ في الوصول إلينا، والاقتصاص منا.

ستانلي

5–5

"يحلمُ المرء كثيراً، ولا يُحقّق إلا ما يجتهد في تحقيقه، ويوفّقه إليه الرب".

للمرة الأولى أجدني أؤمن بهذه الجملة التي قالها ليفنجستون يوماً عندما كنت معه. فبعد أن يئستُ من إقناع بريطانيا بتبنّي حلمي، اضطررت لقبول عرض الملك ليوبولد الثاني الذي اتفق تماماً مع رغباتي.

هذا الملك يملك أطماعاً توازي أطماعي، وتمشي معها في الاتجاه ذاته، وعنده استعداد لفعل أي شيء في سبيل ذلك، وإن لم يصرّح، إلا أن الصلاحيات التي أعطاني إياها، والتي كانت غير مشروطة أكدت توقعاتي حوله.

بدأت بإنشاء القواعد، الواحدة تلو الأخرى، وتعبيد الطرق بين تلك القواعد، واضعاً علم الرابطة ذا اللون الأزرق والنجمة الذهبية في منتصفه، في إشارة إلى دور بلجيكا في إنارة الظلام الذي تعيش فيه الكونغو، كما غرست اللوحات المكتوب عليها اسمي (م. ستانلي) وتجنبت – بناء على أوامره التي صدمتني لاحقاً مخالفته لها – ذكر اسم الملك ليوبولد في أي مكان. فبدأ ذلك الحذر يخفت تدريجياً حتى ذوي، وأصبحت أُطلق اسمه على الأماكن التي نضع أيدينا عليها، مثل نهر ليوبولدفيل، وبحيرة ليوبولد الثاني، وغيرها من الأماكن التي أصبح يملكها اسماً وفعلاً.

أكثر من خمسمئة كيلومتر من الطرق شققتها بين بوما وفيفا، وصولاً إلى محطة ليوبولدفيل الواقعة بين كينشاسا وندولو، مُلتفّاً حول شلالات ليفنجستون، للتغلب على الدوامات، والمساقط المائية التي لا يمكن عبورها بأمان في نهر الكونغو.

في بداية رحلتي أخذت معي بعض الرجال الأوروبيين لمعاونتي، وكان على كل واحدٍ منهم أن يوقّع عقداً بالتزام الصمت مهما كان الشيء الذي يراه، لأن السرية هي أهم ما في عملنا هنا، وكنت أختار الأشخاص الذين يرافقونني بعناية تامة، ومن أهم ما أحرص عليه لمرافقيّ الذكاء المنخفض، لأن الذكاء العالي يعني أن يُفكِّر الشخص في أمور لا ينبغي له التفكير بها، رغم أن هذا الأمر كان يجعلني في ورطة أحياناً حين أكتشف أنني لا أستطيع الاعتماد مُطلقاً على أيٍّ منهم.

حرصي الشديد قابله استهتار لا حدّ له من الملك، فبعث اثنا عشر رجلاً أوروبيّاً آخرين، وبدلا من توقيعهم لضمان محافظتهم على سرية مهمتهم، جعلهم يُقسمون ألا يتحدثوا عما يرونه، مهما بلغت درجة استغرابهم منه، أو عدم فهمهم له، وبينما كنا نعمل لإنشاء مستعمرته في الكونغو بسريةٍ تامة، كان هو يوسّع دائرة العارفين بهذه المستعمرة.

كثيراً ما يُعطِّل الملك ذكاءه، إلا أنه لا يمكنني إلا الثناء عليه، فخدعة امتلاكي للقوى السحرية التي انتشرت بين السكان، لم تكن إلا فكرته، بعد أن نصحني بوضع جهاز صغيرٍ جداً في يدي، يصعق كل من يقترب مني ويصافحني، ففزع السكان، ظناً منهم أني أمتلك قوى سحرية، فرضخوا لي، وأصبحوا يطلبون رضاي، الذي ما إن وصلوا إليه حتى توقفت عن فعلها لكي أبعث الاطمئنان داخلهم.

ثلاثة أعوام متتالية، والعمل على تأسيس مستعمرة الملك ليوبولد الثاني لا يهدأ، من تعاون معنا منحناه الهدايا، ومن رفض أسكتته مدافعُنا إن فشلت في إسكاته بنادقُنا التي زادت على الألف بندقية، جلبناها معنا من أوروبا مع بعض المدافع والبنادق الآلية.

خلال تلك السنوات وقّعت ما يقارب الأربعمئة معاهدة مع زعماء القبائل، وبنيت قواعد امتدت على مساحة من الأرض تزيد عن الألف وخمسمئة ميل في داخل الكونغو، كنا نشق الطرق في الصخور، حتى لقبني السكان هناك "بولا ماتادي"[2]، لأني أحطم كل الصخور التي تقف في طريقي، حتى وإن كانت صخوراً بشرية ذات رأسٍ صلب، عصيٍّ على الإقناع.

2 محطّم الصّخور.

الرجل الأفريقي أغبى من أن يُفكّر، يكفي أن تمنحه ثوباً، ليمنحك أرضاً، لذلك لم أجد مشكلة في مد القواعد، وإنشاء الطرق داخل أراضيهم بعد إعطائهم بعض الهدايا الرخيصة التي فرحوا بها، وقد استعملت خطة الكولونيل بيتر مينوت نفسها، عندما خدع السكان الأصليين في الولايات المتحدة، واشترى منهم جزيرة منهاتن بقطعة حُليّ لم تتعدَّ الأربعة والعشرين دولاراً فقط، لكني لن أكون أحمق كمينوت، وأدفع مبلغاً مقابل تلك الأراضي، وإن دفعت فلن يكون لما أدفعه أيّ قيمة.

أوهمت الحكام بأن المعاهدة هي لمد الطرق، في حين أنني كنت أشتري منهم الأراضي مقابل قطعة قماش يفرحون بها. ولأنهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، جعلتهم يوقعون برسم علامة × في أوراق المبايعة، وقد تملكنا الكثير من القرى التي نمتلك ضِمناً المساحات

الشاسعة الفاصلة بينها بهذه الطريقة مثل تومبا، وبولوبو وإيكوكو وبوتومايو وغيرها الكثير مما بعثت أوراق ملكيتها إلى الملك.

بعض القبائل وقّعت تلك الاتفاقيات لإنشاء طرق تسهل تنقلاتهم، وبعضها وقعتها كمعاهدات صلح بينها وبين قبائل أخرى، كالمعاهدة التي وقعتها قبيلتا مافيلا ونجومبي اللتان ملّتا من الصراع، والموت الذي يسكن بينهما، فظنتا أن هذه المعاهدة هي للصلح، بينما كانت تنصُّ حقيقة على بيع الأراضي، وتنازلهما عن الحكم، وتوفير العمال لأي عمل يقوم به المالك الجديد دون أي مقابل، سوى قطعة قماش تدفع شهرياً لكل واحدٍ من الحكام الموقعين على المعاهدة، وحتى قطعة القماش تلك كان يُعتقد أنها هدايا يجب على كل رئيس أن يقدمها لرئيس القبيلة الأخرى، أي أنهم كانوا يدفعون لبعضهم، أما أنا فلم أدفع شيئاً.

سلّموني الأراضي، والغابات، وفرضت عليهم الضرائب إن استغلوا تلك الأراضي، أو استخدموا المجاري المائية المارة بها أو تلك القريبة منها، حتى الحيوانات التي ترتع في تلك المناطق تحولت لملكية ملك بلجيكا، فلم يعد أمام هؤلاء إلا الانصياع لأوامرنا، وتنفيذها دون أدنى اعتراض. وشيئا فشيئا أصبح أهل الكونغو مدينين للملك ليوبولد الثاني، ولا يملكون إلا العمل المتواصل لتسديد ديونهم التي تزيد كل يوم.

العمل في الكونغو ليس سهلا كما قد يتصوره من لم يجربه، فقد كنا نشق الطرق وسط الغابات المكتظة بالأشجار، أو نجعلها تلتفّ حول الأنهار الهائجة عندما نعجز عن عبورها، وأحياناً كنا نقيم الجسور فوق الوديان الصغيرة من جذوع الأشجار، وننقل عبرها المؤن والمعدات من ضفةٍ إلى أخرى، على رؤوس الحمّالين، لأنهم يحتملون أكثر من

الحيوانات التي كانت تموت بسرعة، وترفض المشي فوق جذوع الأشجار المعلقة، وحين نضربها ونجبرها على المشي كانت تقع لأنها لا تتوازن وهي تمر خائفة، فنخسر الحيوان والحمولة.

كان على الرجل مواصلة المسير حتى يلفظ أنفاسه، ويسقط، فيتلقّف رفاقه حمولته، ونتركه خلفنا، تحوم روحه حوله، وتحرسه ريثما تأتي الحيوانات وتأكله.

بعد التجربة اكتشفت أن الرجل الأفريقي يمتلك قوة بدنية أكثر من الحيوانات، لكن الخسارة الفادحة كانت عندما نخسر مجموعة من الحمالين دفعة واحدة، عندما يقع أحدهم بحمولته من الجسر أعلى النهر، فيقع الآخرون معه لأنهم مقيدون مع بعضهم بعضاً بسلاسل لا تمنح أحدهم فرصة للنجاة، ورغم ذلك كنت مضطرا لإبقائهم في القيود بعد محاولات هروبهم المستمرة.

هروب العامل الواحد يجعلنا مضطرين للبحث عن بديلٍ له، أو توزيع حمولته على رفاقه، مما يرهقهم، وهو ما لا أبالي به لولا أنه جعلني أفقد الكثيرين بعدما سقطوا الواحد تلو الآخر صرعى التعب، والحمولة الزائدة. كما أن نجاح الواحد في هربه تتبعه محاولاتُ آخرين، ووجدتني أنشغل بمحاولة الحد من محاولاتهم بدل الالتفات لعملي الأساسي.

قد لا أكون رجلا جيدا بمقياس من لم يخرج من أوروبا يوماً، أو يُجرّب العيش في هذه البلاد، والتعامل مع هؤلاء البشر، ورغم ذلك، لا يمكن لأحدٍ القول بأني سيئ. فحين يكون لديك جدول مهام، بتوقيت معين، يجب عليك إتمامها مهما كانت التضحيات، لذلك لم أكن أعبأ بأي حمّالٍ يمرض، بل لا أسمح له بالتوقف، إلا إذا لفظ نفسه الأخير، وسقط هو وحمولته.

الدوسنتاريا، والملاريا، والحمى الصفراء، والسل، ومرض النوم، أمراضٌ منتشرة في الكونغو بشكلٍ كبير. ونادراً ما يمنح المرضُ فرصةً لمن يختلي به للنجاة. غالباً يموت الرحالة والمستكشفون الذين لا يتمكنون من مقاومة المرض الذي تطول مدة إقامته في أجسادهم النحيلة، أو إن لم يجدوا دواءً يعينهم على طرده خارج أجسادهم.

مرضتُ أكثر من مرة خلال السنوات الثلاث تلك، وأوشكت على الهلاك، حتى إنّني في إحدى المرات أوصيت مساعديّ بأن يعتذرا من الملك ليوبولد الثاني لأني لن أتمكن من إتمام ما وعدته به، ولكني نجوت، لأعود وأمرض مرة أخرى، فحملوني إلى أوروبا لأخذ قسطٍ من الراحة. ورغم نصائح الأطباء لي بألا أعود إلى الكونغو بعدما لاحظوا نحولي، والكيلوغرامات التي فقدتها هناك، إلا أنني لم أتمكن من رد الملك حين قال لي:

"أتتركني وأنا أعتمد عليك؟"

جهزت للرحلة وعدت إلى الكونغو أُكمل ما بدأته، لأتفاجأ بمعاهدةٍ وقعها رجل فرنسي يُدعي بيار سافورنيان دي برازا مع الحاكم الأفريقي الباتيكي ألماكوكو، تمنحه جزءاً من الأرض مقابل بحيرة ستانلي، أسماها مدينة برازافيل. وإن كنت سأغفر له ما فعله، رغم غيظي منه، إلا أنني لن أغفر للملك ليوبولد الثاني الذي طلب مني مراقبته، وعدم السماح له بالتوغل أكثر في المنطقة، في حين استدعاه وكرّمه، وأهداه وسام ليوبولد الثاني، في محاولة لشرائه ليعمل تحت إمرته.

أحياناً لا أفهم ما يقوم به الملك، وأكاد أشك في نواياه، ودوافعه، كما أتساءل عن مدى صدقه معي، ولكني قررت أخيراً ألا أهتم، وليفعل ما يحلو له؛ فما يهمني هو الحصول على أجري الذي اتفقت عليه معه، بعد نهاية السنوات الخمس — مدة العقد

بيننا – وأن أفعل كل ما بوسعي من أجل تحقيق الهدف الذي جئت من أجله، أما هو فليفعل كل يطيب له فعله ما دام لا يضرني.

الكونغو نبعٌ لا ينضب من الخيرات، والسنوات الخمس لا تكفي لتحقيق كل ما جئت لأجله، ولكني على الأقل فعلت كل ما استطعت فعله، ولم أتوانَ ولو للحظة في بذل جهدٍ مضاعف. فقد نقلنا العاج، وبالأخص الأسود منه، والذي تعبنا جداً في سبيل الحصول عليه من أعماق الأدغال، بعكس العاج الأبيض الذي كان الحصول عليه سهلا من الفيلة التي تعيش في السهول. والأسهل من هذين الاثنين كان ذلك المجلوب من مقبرة الفيلة، حيث تذهب الفيلة المسنة لتموت، ورغم صعوبة الوصول إليه فإن الكمية الموجودة هناك تستحق العناء، ولا نخسر لأجلها أرواحا جديدة، لعدم وجود فيلة أحياء ندخل في صراعٍ معها.

الكنوز في الكونغو كثيرة، لا تُعد ولا تحصى، ولو ظللنا مئات السنين ننهل منها فلن تنضب، لكن خزائن الملك ليوبولد الثاني لا تمتلئ، وكأنّ ثمة نفقاً سرياً فيها، كلما أطعمناها لتمتلئ ازدادت نهماً لالتهام المزيد من الكنوز، والأجر الذي أتقاضاه منه لا يعد أكثر من ذرة تراب على هذه الأرض، أو ورقةٍ يابسة تسقط من أشجارها.

أخيراً، اكتشفتُ أني لا أفرق عن أولئك الأفارقة، وأن العقد الذي أمضوه معي، وهم مطمئنون لي، وقّعتُ توأمه مع الملك ليوبولد الثاني وأنا مبتسم، بعد أن خدعني لتحقيق مصالحه، وأنه لم يكن في حقيقته إلا رجلاً جشِعاً أراد امتلاك كل شيء، فاستغلني استغلالاً سيئاً إلى أبعد حد.

انقضت السنوات الخمس بشكلٍ لم أتوقعه، ووجدت نفسي غير راغب في الرحيل عن أرض الكونغو، وبينما كنت أعد العدة للعودة إلى بلجيكا كان ثمة سؤال ينقر في رأسي: هل يمكن للمرء أن يحب الأرض التي عاث فيها فساداً وتدميراً؟

أعلم أن الأمر يبدو غريباً، ولكن ذلك ما شعرت به في نهاية رحلتي، عندما مررت بأول قاعدة أنشأتها في الكونغو، حيث زرعت أربع أشجار مانجو، ورحلتُ عنها، دون أن أكلف أحداً برعايتها، وحين مررت بها بعد خمس سنوات كانت ثمارها تتدلى بغنجٍ واضح، وامتلاءٍ شهي. شعرت أنهم أطفالي الذين كبروا بعيداً عني، ووددت لو أني لا أتركها أبداً.

باكامبو

5–2

نحن الجنود الأفارقة لا نفرق عن السياط التي في أيدينا، أو البنادق الرابضة على أكتافنا، مجرد سلاح في أيدي الرجال البيض، نفعل كل ما يضمن رضاهم؛ لأنهم لا يتوانون عن فعل أي شيء في لحظات غضبهم، وبعد المرة الأولى التي رأيت فيها غضب القائد ظللت أصلي دائماً ألا أشهده مرةً أخرى.

كان كل شيء يجري على ما يرام، حتى توقّف أحد العمال من قرية بونغيندا عن العمل، بعد سقوط صاحبه، وأعلن أنه لن يعمل حتى يطمئن على ذلك الساقط على الأرض، ولم تُجد معه الضربات بالشيكوت، بل زاد عدد الغاضبين، والمتوقفين عن العمل. وما هي إلا لحظات حتى أمر القائد بقطع أصابع أياديهم وأقدامهم، فثاروا علينا، وقتلوا بعضنا بالسكاكين التي كانوا يجرحون بها أغصان المطاط، وقبل أن تخرج الأمور عن السيطرة، أعملنا فيهم بنادقنا، وأسقطنا أغلبهم قتلى، ثم أمر القائد بإحراق القرية على من فيها، وكل من حاول الهرب من النار تلقّفته أيادينا، وقيّدناه بالسلاسل، واقتيد إلى السجن، لتصبح تلك القرية أثراً بعد عين.

في لحظةٍ ما نصبح بين نارين، نار القائد وأوامره من جهة، ونار العاملين واعتراضهم من جهة أخرى، فنضطر للدخول في قتالٍ أبعد ما يكون عن رغبتنا، أو إرادتنا، وقد يسقط

منا بعض القتلى على أيدي العُمّال لا يقل عدداً عما يسقط منهم على أيدينا.

لا يفهم العمال أننا مجرد أدوات في أيادي أولئك الرجال البيض الذين أحضرتهم الرياح الغاضبة، يوجهوننا أينما شاؤوا، ونفعل ما يطلبونه منا دون تأخير، وما إن يفكر أحدنا في الاعتراض حتى يُقتل، أو يجد نفسه بضاعةً تُساق إلى تلك السفن حيث لا يعود مرة أخرى.

أحياناً أحاول إقناع نفسي بأننا نحن الجنود أفضل حظاً من أولئك العاملين في جمع المطاط، فنحن على الأقل نملك خيارات أكثر، إننا نقتِلُ بدلاً من أن نُقتَل، ويتم التجاوز عن اعتداءاتنا المتكررة على نسائهم كلما أظلم الوقت، أو حتى في وضح النهار، وأمام الجميع، إن أغضب أحدهم القائد، ورغب بمعاقبته من دون أن يخسره.

"هل فعلاً نحن أفضل حظّاً، أم أنني أحاول مواساة نفسي بقول ذلك؟"

يقف عقلي لأفكاري بالمرصاد لينفضها من رأسي قبل أن تستوطنه، فأعجز عن الرد عليه، ليقيني بصدقه، أنا العاجز عن درء الموت عني، إلا بتوجيه مساره نحو رجلٍ آخر، والهارب من خيانة زوجتي إلى نساء الآخرين، وكلما قلت سأنسى تحضر تلك المرأة التي اختفت ذات مساء، ولم يتمكنوا من العثور عليها، رغم البحث الذي استمر عدة أيامٍ، وامتدّ لمسافة يصعب على امرأةٍ لم تأكل منذ أربعة أيام قطعها، ولكننا لم نعثر لها على أثر، أو جثة، أو حتى بقايا تركها حيوانٌ مفترس انقضّ عليها ونحن نائمون، كأن الغابة انشقت وابتلعتها.

أنا الوحيد الذي يعرف أين ذهبت، لأنني أنا الذي ساعدتها على الرحيل، وخلصتها من الاعتداء اليومي الذي تتعرض له؛ ففي تلك الليلة أخذتها كعادتي في ليالٍ سابقة من بين

رفيقاتها النائمات، أو مدعيات النوم، وما إن ابتعدنا قليلاً حتى نزعتُ القماش الذي تلفه حول خصرها، ولففته حول فمها لأمنعها من الصراخ، وبدأت الانتقام لرجولتي الجريحة، دون الالتفات للدم المنحدر كشلالٍ غاضب، يحاول إجباري على التوقف قبل أن يجرفني في طريقه.

لم أحاول النظر إلى وجهها أبداً، خشية أن أرى زوجتي فيها، وقد اتخذت لها رجلاً غيري في غيابي. كان هذا كل ما يسيطر على فكري كلما رأيت امرأة حُبلى، يشتعل الغضب في صدري، ولا يخمده إلا الانتقام لرجولتي، وكلما ازداد غضبي على زوجتي نفّست عنه في جسد تلك المسكينة.

بدأت أنفاسي تتقطع من شدة التعب، فرميت بجسدي جوارها، متجاهلاً أنّاتها التي بالكاد كانت تخرج متقطّعة، لأنتبه على يدها تستل السكين الخامدة في حِزامي؛ ففززتُ واقفاً ظنا مني أنها تود قتلي، انتقاما لما فعلته، ولكنها كانت أسرع مني حين غرسته في صدرها وهي تردد بصوتٍ واهن:

"لقد قتلت طفلي الذي انتظرته عشرة أعوام".

سحبَت الخنجر مرةً أخرى، وأعادت غرسه في جسدها دون الإتيان بأي صوت، سوى الجملة ذاتها التي ظلت ترددها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

شيءٌ ما في داخلي دعاني إلى فتح بطنها لرؤية ذلك الطفل الذي رحلت خلفه، كان صغيراً جداً، بلا ملامح واضحة، لا يدلك على أبيه أو أمه، ولكنه كان قادراً وهو في كنف الموت على شهر رجولته في وجهي.

استسلمت لبكاءٍ مرٍّ، كان قد تكدّس في صدري منذ انضممت إلى القوات العامة، ولم أجد بدّاً من حمل جثتها وطفلها بعد أن أعدته إلى داخل جسدها، وربطته بقطعة القماش ذاتها التي كانت تستر عورتها وصوتها عني، ورميتها في النهر ليأخذها إلى حيث يريد، لعلّ حياةً أخرى تنتظرها في مكانٍ ما، لا يوجد به رجالٌ بيض، ولا سود، يسحبها أحدهم في ليلةٍ مظلمة ليثبت لها رجولته وهو يعلم أنه فقدها منذ النظرة الأولى التي ألقاها على جسدها.

الفصل الثالث

المثالية ثوبٌ فضفاض، يمكن للجميع ارتداؤه، كما يسهل خلعه حين يتحتّم على المرء الاختيار بين أن يكون مقتولاً أو قاتلاً.

باكامبو

5–3

جمع المطاط لم يكن سهلاً كما ظننا، ليس لأنه صعبٌ في أصله، بل لأن ما كان يُطلب من الرجل الواحد لا يقوى على جمعه اثنان في ريعان شبابهما، ومنتهى فتوتهما، وكان العمل يستمر دون استراحة من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، عندما يسمح للعاملين بالاستراحة، وهم في قيودهم، وتناول طعامهم الذي تعده زوجاتهم، وعدا ذلك الطعام لم يحصل أيّ منهم على أي أجر.

نراقب العمال وهم يجمعون المطاط، كخلية نحلٍ لا تتوقف لحظة عن العمل حتى بعد مغيب الشمس، ولكن ما يجمعونه لا يملأ تلك السلال المعدة لتخزين المطاط، فكلما امتلأت بعض السلال حملوها، وعادوا بسلال فارغة لملئها من جديد، دون أن يُسمح لهم بالراحة، ولا التوقف لمسح العرق النازف من جباههم، أو إراحة أرجلهم من الوقوف الطويل تحت الكروم الجريحة كأجسادهم بعد عدة ضربات من الشيكوت.

يعلم أولئك الرجال أن عليهم أن يكونوا قادرين على ملء تلك السلال، حتى وهم في أصعب حالاتهم، ولو كانوا يلفظون أنفاسهم، لأنهم يعرفون أن من يسقط تعباً أو عطشاً تتلقّفه السياط لتمنحه القوة لمواصلة العمل، وإن خفض أحدهم يده ليُريحها قليلاً، ارتفعت البنادق لتردها عن تخاذلها عن أداء عملها.

يبدو المطاط كطفلٍ يفعل ما بوسعه كي لا يفارق حضن أمه، فيما الشجرة أمٌّ رؤوم ما إن يبدأ دمعها بالتساقط بعد جرحها حتى تجففه، مما جعل الرجال يعجزون عن جمعه. حتى اقترح علينا السيد الأبيض طريقة تساعدنا على جمعه بشكلٍ أفضل، وأسرع، إذ يقوم بعض الرجال الأصحاء بقطع أغصان الكرمة، ثم يلصقونها من الجهة المجروحة على أجساد رفاقهم العاجزين عن العمل، ليجف المطاط بعد التصاقه بأجسادهم، وعندها يقوم آخرون بجمعه من تلك الأجساد، دون الالتفات للجلود التي تأتي معه، أو الندبات التي يتركها على تلك الأجساد. هكذا تمكّنا من جمع محصولٍ أوفر مما اعتدنا.

أما الكروم البرية، التي أُبيد أغلبها، فقد كانت أغصانها تمتد متعانقة، وبدلاً من جرح الأغصان الكثيرة، والصبر على تقاطر المطاط، أصبحنا نقطع الأغصان من أصولها، لينهمر المطاط. شيئاً فشيئاً فقدت تلك الكروم حياتها، فصرنا ننتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن كرومٍ لم يقتلها جشع الرجل الأبيض، وكلما وجدنا مجموعةً منها، سطونا على القبيلة القريبة منها، وأخذنا غذاءها وما تمتلكه من حيوانات في حال نجحت في الهرب قبل وصولنا إلى مكانها، وإلا فإننا نأخذ رجالهم ونساءهم وأطفالهم للعمل ضمن مجموعة جمع المطاط.

أحياناً كنا نسمع صوت البوق المحذِّر ونحن في طريقنا، فنعلم أن هناك من علم بتقدمنا، فنفخ في البوق لتحذير القرية القريبة، وقبل أن نصل نجدها فرّت بنسائها وصغارها، وتركت كل شيء خلفها، فنأخذ ما نشاء منها، ونحرقها انتقاماً من أهلها الذين تركوها، وهربوا من العمل، مما سيضطرنا للاعتماد على الرجال الذين أتينا بهم معنا

فقط، وهذا يعني تأخرنا في حصاد المطاط المطلوب منا، أو البحث عن قريةٍ أخرى قريبة، نحصل منها على الرجال.

في إحدى الليالي أصدر القائد أوامره بحرمان الرجال العاملين في جمع المطاط من الطعام عقاباً لهم على تقصيرهم، لأنهم لم يجمعوا ما يكفي من المطاط حسب قوله، كما أكد لهم أنهم سيباتون كل ليلةٍ بلا طعام، إلى أن يموتوا جوعاً إن لم يعملوا جيداً.

بات العمّال جوعى، وتلذّذنا نحن بطعامهم، وما بقي منه أرسلناه للكلاب التي تحرسنا من الحيوانات المفترسة، والتي يتم تجويعها لإطلاقها عليهم، كلما فكر القائد في مشاهدة عراكٍ بين الكلاب والعمّال، ينتهي بفوز كلابه، والويل للعامل الذي يُصيب الكلب بأذى، إذ سيكون عقابه القتل، مما يعني أنه ميت في الحالتين، لكنّ تمزيقه بأنياب الكلب أهون من انتقام الضابط منه، ويمنحه ميتة أسرع.

نجحت خطة القائد مع بعض الرجال، فقد بذلوا جهداً أكبر مما بذلوه في اليوم الفائت رغم التعب البادي عليهم، لكيلا يُحرموا من وجبة العشاء لليلة الثانية، لكن رجالاً آخرين لم يتمكنوا من العمل نظراً لهزالتهم الشديدة، وضعفهم البادي على أجسادهم، فباتوا ليلتهم الثانية يأكلهم الجوع، ويقبض على أنفاسهم التعب.

في صباح اليوم التالي تم جمع هؤلاء الرجال المنهَكين، وربطهم في أشجار المطاط المجروحة للتو، ثم أمرنا بإحضار نسائهم، وأمهاتهم، وطلب من رفاقهم الآخرين اغتصابهن أمامهم، ومن تردد توجهت البنادق إليه لتُعلمه تنفيذ الأوامر دون مناقشتها، أو الاعتراض عليها، أما من وقف عاجزاً عن فعل ما طُلب منه فقد أرضخته رصاصة اخترقت صدر آخر لم ينجح في اختبار رجولته مع زوجة جاره، وفي آخر المطاف أمر بقطع أعضاء من لم يأمر

بقتله ممن فشل في أداء ما طُلب منه. لكن كل ذلك لم يهدئ من فورة غضب القائد، فصرخ بهم:

"يبدو أن اغتصاب نسائكم لا يكفي لتعملوا جيداً"

ثم أمر بإحضار أطفال الرجال الذين لم يبلغ ما جمعوه مقدار ما طُلِبَ منهم. وما هي إلا لحظات حتى انفصلت كفوف أولئك الأطفال عن سواعدها، وملئت الجراح بما يوقف نزيف الدماء التي ملأت المكان، فيما سقط الأطفال مغشيّاً عليهم، وآباؤهم ينظرون إليهم دون أن يتمكّنوا من مد أيديهم لمسح دموعهم التي تساقطت لاحقاً وهم في أحضان أمهاتهم، أو مداواة جراحهم التي ظلت تنزُّ دماً لأيامٍ قادمة، لم يصمد بوجهها إلا قلة منهم.

تنفلت تلك الأيام من ذاكرتي كلما فكرت في طمرها في ركن قصي لا تتمكن من العودة منه، ولكنها تأبى إلا المثول أمام عينيّ، وأنا أقضي ليلتي في مراقبة الرجال القابعين في شبكتي، أملاً في خمود طاقاتهم سريعاً، ونفاد مخزون الصبر من أرواحهم.

لم أتحرر من تلك الأيام إلا حين تمت معاقبة بعض العمال، وطُلب من بعض الجنود – وكنت واحدا منهم – أخذهم إلى الميناء حيث سيتم بيعهم وقبض أثمانهم. هناك تعرفت على الكثير من الرجال البيض الباحثين عن أجسادٍ سوداء فتية يحملونها معهم حيث تأخذهم الريح أو يبتلعهم البحر، ولا يعودون مرة أخرى.

حينها قررت ورفاقي المضي في هذا الطريق، فهو أقل خطراً وأكثر فائدةً من العمل السابق، وكلما كان صيدنا من الرجال وفيراً تمكّنا من العودة سريعاً إلى زوجاتنا وأطفالنا، مُحملين بالغنائم التي تُنسيهم غيابنا الطويل، والذي مهما امتدَّ فلن يصل إلى سبع سنوات،

بل لن يكون أكثر من عدة أشهرٍ في كل مرة، نقضيها ما بين الانتظار الطويل لصيدٍ مُحتمل، وما بين انتظارٍ صعبٍ لتطويع ذلك الصيد، ومن بعدها الرحلة التي تستمر ليالي طويلة نقضيها في السير، والاختباء صباحاً كي لا يرانا أحد.

كان قراراً جريئاً تشاركنا جميعنا في اتخاذه، وقضينا ما يُقارب العامين هاربين، خشية أن يعثر السيد الأبيض علينا فيما لو فكر في الذهاب إلى قبيلتنا باحثاً عنا بعد أن فررنا بقيمة العبيد الذين بعناهم في الميناء. فأردناه أن يظن أننا ضعنا في الطريق، أو متنا، أو ليظن ما يشاء، المهم أننا لم نعد، ولا بد أن سبباً قوياً منعنا من العودة، فنحن نعلم أن جزاء الخائن القتل.

بينغا

6–2

استعبدتنا القوات العامة طويلاً، يتساقط على أيديهم في كل يومٍ منا رجل ما بين قتيلٍ يُرسل للموت لأنه قال كلمة لم تعجب قائد الفرقة المسؤولة عن مراقبتنا، وعاجزٍ عن العمل يُقتل هو الآخر، لأنه لم يجمع ما يكفي من المطاط المطلوب منه خلال اليوم، أو رجلٍ حاول منعهم من التمتّع بزوجته، فأخرسته رصاصة واحدة، وتمّتعوا من بعده بزوجته.

حين نقص محصول المطاط للعم أمورو عما طُلِبَ منه، لم يجد له مُنقذاً، فُبترت يدُه على مرأى القبيلة جميعها. اعتراضٌ واحدٌ منّا كان كفيلاً باجتثاث روح صاحبه وإرسالها بعيداً من جسده.

كبصقةٍ بعثها جسده على ضعفنا، وجبننا عن الدفاع عنه، والوقوف معه، تناثرت دماؤه على وجوهنا وأجسادنا، وما سترناها به من أقمشةٍ لم ندفع مقابلها كرامتنا، كما فعلت الكثير من القبائل. لم نهتم بمسح الدماء عن وجوهنا، فالخزي والعار اللذان شعرنا بهما شلّا أيدينا وأذهاننا.

”في المرة القادمة لن نكتفي بقطع يد المقصِّر منكم، العقاب الرحيم سيكون بتر ساقٍ من منتصفها“ صاح أحد الجنود، متنقّلاً ببصرهِ بيننا. لكنَّ أحداً منا لم يتجرأ على تحسس

موضع البتر الذي قد يناله يوماً ما، رغم أننا ظللنا نتحسّسه بعد ذلك كلّ ليلةٍ قبل أن ننام ونتأكد من أن أرجلنا ما زالت في مكانها، لم تمتدّ إليها يدٌ لقطعها.

يزيد عمر العم أمورو على السبعين عاماً، ولكن ذلك لم يشفع له لدى القوات العامة لتتجاوز عن ضعفه، وعدم قدرته على جمع الكمية ذاتها التي يجمعها الآخرون من المطاط.

"إن كانوا بتروا يد العم أمورو، فما الذي قد يفعلونه بنا إن نقصت حصيلتنا من المطاط؟"

تساءل كونتا، الذي نُعدّه من أقوى شباب القبيلة، دون أن يحاول إخفاء الخوف الذي يبسط سطوته على ملامحه، وصوته، مما دفعه إلى الهرب خوفاً على ساقه من البتر، ورغم البحث عنه الذي استمر عدة أيام، فإننا لم نعثر له على أثر، ولكن القوات العامة لا تترك أمراً كهذا يمر دون أن تنتقم من صاحبه، فإن عجزت عن الوصول إليه دفعت أسرته ثمن ما ارتكبه. وليس أحب على قلب كونتا من زوجته ميتيو، فاقتادوها عوضاً عنه، ومن يومها أيضاً لم نسمع عن ميتيو، لكنهم يقولون إن من يؤخذ يُباع ليُصبح عبداً، يتناقل البيض ملكيته.

"ليتها تُباع فقط، إنهم يغتصبون كل أنثى تقع بين أيديهم، كان أشرف لكونتا أن تُبتر ساقه بدلاً من أخذ زوجته"

تمتمت بيلا بسخط، ولم تحاول مسح دموعها التي كانت تجري كشلالات موسي أوا تونيا الهادرة، ثم أردفت:

"المسكينة ميتيو، ترى كيف ستحتمل ما يحدث معها؟"

لم أشأ أن أعقب على بيلا، وأقول لها بأنهم كانوا سيأخذونها بكل الأحوال، سواء رحل كونتا أم بقي، وسواء بترت ساقه أو لم تبتر، فلا أحد بمأمن ولا حتى أنا أو هي، ولكني فضلت الصمت بدلاً من إثارة قلقها.

كان قد مضى على زواج ميتيو من كونتا عامان، لم ينجبا خلالهما طفلاً. تهامس بعض أفراد القبيلة عن السبب المحتمل لذلك. تظن بيلا أن كونتا لا يمنح زوجته رحيق عاطفته كما يجب، ولكن أمي تردّ السبب إلى صغر سنّها:

"لم تكن قد أينعت بعد حين تزوجها".

أحبَّ كونتا ميتيو منذ النظرة الأولى، ولم يتحمّل الصبر حتى تكتمل أنوثتها، خطبها وتزوجها بعد أن أهدى والديها الكثير من الضباء ليقبلا بتزويجه ابنتهما الصغيرة، لكنّه هرب وتركها، ولا أظنه فكّر فيما قد يحدث لها من بعده، أو ما سيسببه لها رحيله، وإلا لما فعلها، أو على الأقل أخذها معه، فإما أن يعيشا معاً، أو يموتا معاً.

هرب كونتا، وبقينا نحن نرزح تحت وطأة تلك القوة. كلما قتلوا رجلاً منا، قطعوا يده، وأحياناً يقطعونها قبل أن تفارقه الروح، يقطعون الأيدي ويجمعونها في سلال كما تُجمع الفاكهة، فإن لم يعجبهم منظر السلال غير الممتلئة اختاروا رجلا وقطعوا يده.

لا يوجد مقياس لاختيار الرجل الذي تُقطع يده، فغالباً يتحكم مزاج الجندي في الأمر، يتأمل الوجوه، ويُعاين الأجساد، فإذا ما لمح الرجفة على شفاه أحدنا اقتاده، وربما استل أحدنا من الصف لمجرد أن شكله لم يعجبه، وأكثر من مرة مرر إصبعه علينا، وهو يردد بعض الكلمات، قبل أن يسحب الرجل الذي يصمت عنده.

في نهاية كل يومٍ يقارنون بين عدد الأيدي وعدد الرصاصات التي فقدوها، فإن نقص عدد الكفوف عن عدد الرصاصات، اختاروا رجلاً منا، وقطعوا يده. وفي إحدى المرات اختار القائد ثلاثة أطفال دون أن يكون لديه أي نقص في الرصاصات، قطع أيدي الثلاثة، وبعد أن انتهى أطلق ثلاث رصاصاتٍ في الهواء وهو يضحك.

عندما علموني العدّ في ميتم هاورد، تذكرت تلك الكلمات التي كان يرددها الرجل الأبيض، لاختيار من يقطع يده، فرفضت العد معهم، لأني كلما عددتُ، رأيت يداً تسقط في السلة.

الأيادي المقطوعة تُعلَّق على غُصنٍ ممدّدٍ بين غصنين آخرين، وتوقد تحتها النار الهادئة طوال الليل ليحفظها الدخان من التعفن. لا بد أنهم تعلّموا هذه الطريقة من حفظنا للحوم الحيوانات التي نصطادها، إذ نُقدد اللحم، ونعلّقه، تحت الدخان الذي لا يهدأ، ليظل طازجاً، وكأننا اصطدناه للتو، لأننا إن لم نفعل ذلك، فسيأتي إليه الذباب، والبعوض، وقد تشتمّ رائحته الضباع، والحيوانات المفترسة، فتتشجع على الاقتراب.

عاجزون عن الوقوف في وجوههم، ليس ضعفاً، ولا جُبناً، ولكن خوفنا على زوجاتنا، وأطفالنا، منعنا من الاعتراض، فاحتملنا إلى أن ثارت قبيلة الياكا، وأرسلوا ما يزيد على نصف الجنود المكلّفين بحراستنا ونحن نعمل على جمع المطاط، لقمع ثورتهم. يومها علمنا أن الفرصة قد أتت إلينا مُغمَضة العينين، فإما أن نستغلها، وإما أن نظل أسرى لهم طوال حياتنا.

يومان وانتهى كل شي. خططنا ونفذنا الهجوم عليهم، وسلبناهم أسلحتهم، وقتلنا من تمكّنا من قتله، بينما نجح الكثيرون منهم في الهرب، لأننا لم نكن متمكنين من استخدام

أسلحتهم. وما استيلاؤنا عليها إلا لمنعهم من استخدامها ضدنا، ولولا خبرتنا في استخدام الرماح، ورمي السهام، لفشلنا في الثورة عليهم.

هربنا تاركين خلفنا أرطالاً من المطاط، غير آبهين بالتعب الذي بذلناه في جمعه، ولا الثمن الذي دفعناه فيه، من أيادٍ مقطوعة، وأرواحٍ أزهقت، ونساءٍ حملن في أرحامهن أطفالاً لرجالٍ قتلوا أزواجُهن للوصول إليهن.

نخطو بحذر فوق الأوراق المتساقطة والمتكومة على بعضها كمن يبحث عن ظهرٍ يحتمي به، نخشى صدور أنّةٍ من أحد توقِظُ الحيوانات الغافلة، أو تلك المتربّصة بفريسةٍ متهوِّرة، كما لم يفعلوا أبداً. كانت أقدامهم تمر فوق أجسادنا المتراصة، دون الالتفات لصرخةٍ مكتومةٍ، لا تملك حق الاعتراض على حذاءٍ جلديٍّ سميك بهتت صفرته بعد أن تخلّت عنه الحياة، داس على قدمٍ حافية تكاد تتجمد من البرد، وساقٍ شبه عارية.

ابتعدنا كثيراً، وتنقّلنا في الغابة من مكانٍ إلى آخر، في كل شهرٍ نغير المكان الذي نعيش فيه، خشية أن تصل أخبارنا إليهم، ورغم ذلك نجحوا في الوصول إلينا. كنت حينها وبعض الرجال في رحلة صيد، وعندما عدنا حاملين صيدنا، كان كل شيءٍ قد انتهى.

كانت ليلة شبه غائمة، كلما أطلّت نجمةٌ برأسها من خلف غيمة، ألقت أخرى عليها غطائها. الكل في سُباتٍ عميق، لا يغيب عن القرية أحد، أو هكذا ظنّت القوة العامة التي اشتراها الملك ليوبولد الثاني لخدمته وبسط نفوذه وسيطرته.

في اللحظة الحاسمة كان الرصاص ينهش أجساد أهل القرية، استيقظ البعض مذعوراً وقبل أن يستوعب ما يحدث كان قد فارق الحياة، في حين أكمل البعض الآخر غفوته

الأخيرة، دون أن يسمح لأحدٍ بإقلاقها.

لم تجد القوة المبعوثة أيّ مقاومة، وأيّ مقاومةٍ قد يُبديها أناسٌ غارقون في النوم. جُلّ ما كانوا ينتظرونه خيطٌ للشمس، ينسلُّ من بين فُرُجات الخيزران المحيط بأجسادهم الممددة على فرشٍ صُنعت من جلود حيواناتٍ اصطادوها سابقاً، يوقظهم بلسعةٍ دافئة ليبدؤوا يوماً جديداً يشبه سابقه كثيراً إلا فيما ندر.

عُدت ورفاقي من رحلة الصيد، مزهوّين بما اصطدناه. في الطريق تحدثنا عن عبارات الثناء التي سيُمطرنا بها كبار السن من رجالٍ ونساء، ونظرات الإعجاب في أعين زوجاتنا، ولم ننسَ التفاخر بمكافآتهن لنا نظير شجاعتنا الفائقة والمتفرّدة ليس في قبيلتنا فقط، بل كل القبائل الأخرى التي تعيش في غابة إيتوري وما يجاورها، خاصة أننا من القبائل القليلة التي نجحت في الهرب من قبضة القوات العامة.

"بدءاً من الغد سنتخذ لنا موطناً جديداً"

قلت لرفاقي، حاثّاً إياهم على الاستعجال للوصول إلى القرية، وجمع ما نستطيع حمله لنذهب للمكان الذي وضعنا به ما اصطدناه، بعدما اخترناه ليكون موطننا الجديد، حيث لن تتمكن قوات الملك ليوبولد الثاني من الوصول إلينا.

لا يمكن وصف سعادتنا بالمكان الذي قررنا أن يكون وطننا الجديد، لأن أحداً من القوات العامة لم يقترب يوماً من ذلك المكان، ولا يعرف عنه شيئاً، كما أنه يبعد كثيراً عن آخر مكانٍ وصلوا إليه، مما يجعلنا قادرين على الهرب كلما علمنا باقترابهم.

تحدثنا بكل شيء، شاكسنا بعضنا بأريحيّةٍ شديدة، وضحكنا، حتى إن الطريق أخذ منا وقتاً أطول مما يجب، وتوقعنا الكثير مما سنجده لحظة وصولنا، إلا الذي رأيناه فعلاً.

باكامبو

5–4

لا أحتمل الوقوع في شبكة صيد، كما لا يمكنني الهرب منها طوال حياتي، وإن نجحت في الهرب منها اليوم، فلا شكّ أنها ستطال ذريتي حتما، لذلك كان عليّ الاختيار، واخترت.

ألا تتصارع الحيوانات في الغابة من أجل البقاء؟ لماذا عليّ أن أكون ظبياً ضعيفاً تنهش جسده الأسود ثم تترك ما يفيض من لحمه للضباع الجائعة، وحين لا يتبقى سوى عظامي وبعض الدهن الساقط سهواً من بين أنياب السباع، والمتيبس على الأرض، يستقوي عليّ الذبابُ والنمل وكل طائر وزاحف على أرض الغابة.

لا يُمكن لأحد أن يشعر بعدالة هذا القرار إلا من تذوّق طعم الخوف، والتوجّس من أضعف صوت. من اعتاد النوم بعينٍ مفتوحةٍ، وأذنٍ تتحسس من دبيب النمل. من يمشي على الأرض، وكأنَّ الخطوة ستشقُّها أسفل قدمه، لتنفتح على حفرةٍ ممتلئةٍ بالأجساد المتكوّمة فوق بعضها، يصارعها الموت، بينما تُنبّش هي عن بعض حياة. كلما عبر جسدٌ فوقها مدت أياديها لاصطياده، وشُرب دمه، علّه يهبها بعض الوقت الذي يوشك على النفاد.

إنها الحياة، إما ان تكون صياداً وإما أن تكون طريدة، وأنا اخترتُ أن أكون صياداً. لم يكن من السهل الاختيار، ولكنني اخترت. لن أكون ظبْياً، سأكون أسدا يصطاد فريسته

دون أن ينظر إلى عينيها كي لا يشعر بالشقة عليها، أو يتهاون في اصطيادها، أو حتى تركها تهرب. وبعد أن آخذ حصتي منها سأهبها للضباع، تتلقف ما أجلبه أنا وكل من اختار أن يكون أسداً.

الضباع المنتظرة في الميناء لا تختلف عن تلك الموجودة في الغابة. كلاهما يحاول الأخذ دون دفع أيّ ثمن، بل إن ضِباع الميناء أشد غدراً، لا يمكنك التنبؤ بالتفافها عليك، وغدرها بك، ولا تعلم من أي جهة ستنهشك حينما توليها ظهرك رغم أنك أشبعتها، أو هكذا تظن لأنها لا تشبع، لذا عليك التيقّظ دائماً، والانتباه لكل لفتة عينٍ تصدر منها، وسماع كل نفسٍ يخرج من صدرها، واستشعار ما تريد قوله قبل أن تنطق به.

أنا لست سيئا، كل ما أفعله أنني أحمي نفسي وأسرتي، أقطع كفوف أبنائهم كي أحمي أيادي أبنائي، وأغتصب نساءهم خشية اغتصاب زوجتي، وإن كنت لست واثقا من خيانتها لي في سفراتي الطويلة، وإلا فكيف يولد لي طفل تام الخلقة بعد ستة أشهر من عودتي من إحدى رحلاتي.

وكأنه أتى إلى هذه الحياة ليصبح عبئا ثقيلا يُضاف إلى أعبائي التي لا حد لها. كلما نظرت إلى وجهه، تذكرت الأشهر الستة التي أتى بعدها، وكيف أن زوجتي تقرّبت مني في أول يومٍ وصلتُ فيه، ثم بدأت تتحاشى اقترابي منها حتى أنجبت طفلها، وكأنها تخشى أن أكتشف شيئاً ما نما بداخلها في غيابي، متحججةً بانزعاجها من رائحتي، التي تُصيبها بالغثيان، وتجعلها تتقيأ طوال الوقت.

هممت بالتخلص منهما لولا أن أمي أخبرتني أنني أنا أيضا ولدت بعد حملٍ دام ستة أشهر، ضحكت وهي تقولها:

"لقد أثبتَ هذا الطفل أنه ابن أبيه، فأنت لم تكد تُكمل الستة أشهرٍ في بطني حتى بدأت الاعتراض على وجودك سجيناً هناك".

قد تكون أمي صادقة، ولكن ماذا لو لم أكن أنا أيضا ابن أبي؟! يقف السؤال معلقا بين صدري وحنجرتي، ولا أجرؤ على منحه للساني وإعلاء صوتي به، خشية أن أشعل ناراً لا أتمكن من إطفائها.

"هيا تحركوا"، أصرخ بأولئك الكُسالى، المقيّدة أرجلهم، يجرُّ واحدهم الثاني خلفه، بينما يبطئ من خلفه من سرعته، كلما خطا أحدهم خطوةً للأمام، تراجعت قدم الثاني به إلى الوراء، فلا يكادون يتحركون، وكأنهم لم يعتادوا الركض حتى تتقطّع أنفاسهم في رحلات الصيد التي لا تنتهي، لا يفهمون أنهم تحولوا من صيادين إلى فرائس ليس لها إلا الاستسلام بمجرد وقوعها في الشباك.

المقاومة تعني عذاباً أطول، واستسلامها يجعل الأمر أسهل لها ولصيادها، ولكنها لا تفهم ذلك، تظل تقاوم حتى تفقد كل طاقتها. هكذا هم هؤلاء الحمقى، لم يتعلموا من تجاربهم مع الظباء شيئاً.

صيد الرجال أصعب من صيد الضباء، وكذلك خطورته، لكنه أفضل من البقاء تحت رحمة القوات العامة، وهذا ما جعلنا نقدم على هذه المغامرة، ونحن نعلم أن العائد القليل الذي سنحصل عليه سنضطر لتقسيمه على خمسة صيادين أكفاء.

قسمةٌ اعتدناها، لا أحد يتجرأ على الإخلال بها. فجميعنا يعلم أن الخائن مصيره التحوّل من صياد إلى صيدٍ تنهش لحمه الحيوانات الضالة، لا يعلم من أي جهةٍ سيأتيه الرمح الذي سيستقر في صدره.

لا نهدر الرصاص على الخونة، هكذا اتفقنا، وهكذا لم يعد بيننا خائن منذ أن حاول موكونزو – رفيقنا السادس الذي لم يعد – السيطرة على نصف حصيلة بيع خمسة من الأسرى، مُعلناً أنه الأحق بالجزء الأكبر من القيمة، لأنه هو من دلنا عليهم، وهو من وقعوا في شبكته، في حين أننا لم نكن إلا معاونين له في السيطرة عليهم، وضربهم حتى خارت قواهم، وبدؤوا في الاستسلام، والانصياع لأوامرنا لهم بالبقاء هادئين.

ثلاثة أيام قضاها أولئك الرجال في الشبكة دون طعامٍ وشراب، وكلما نطق أحدهم برغبته في الأكل أو الشرب ضربناه ومن معه حتى تخفت أصواتهم تماماً، في حين لم يحاول أحدهم التعبير عن رغبته في قضاء حاجته، لأنهم كانوا يعلمون أن هذه الرغبة سيقابلها الرد ذاته على رغباتهم الأخرى.

بعد ثلاثة أيام، وقبل أن نفقد أحدهم، بدأنا في إخراجهم واحداً واحداً، وكلما أخرجنا أحدهم قيّدناه بالسلاسل التي تلتفُّ حول عنقه وتمتدُّ إلى يديه، ثمّ قدميه، دون أن يكون قادراً على المقاومة، وهكذا حتى أخرجناهم جميعهم من الشبكة.

الطعام الذي أعطيناهم إياه، كان بالكاد يكفيهم ليتمكنوا من الوقوف، والسير لأيامٍ أخرى دون لقمةٍ إضافية إلا بعد ثلاثة أيامٍ أخرى، في حين أن الماء كان متاحاً بواقع شربتين في اليوم، واحدة في بداية النهار، وواحدة في آخره إلى أن وصلنا الميناء، وهناك عاين أحد الضباع البضاعة، وتندّر بما فيها من عيوب، ليقلل من سعرها، وكان له ما أراد، ليس لأن البضاعة معيبة فعلاً، ولكن لأننا لا نملك خياراً آخر، فالبضاعة إن لم نبعها له، لن نبيعها لغيره. إنه قانون الميناء. مهما ازداد عدد الرجال البيض بداخله، فجميعاً يتفقون

على السعر ذاته، بل إن مجادلتهم فيه قد تتسبب برفضهم البضاعة، والبحث عن صياد آخر يُحضر لهم بضاعةً أرخص.

أعطانا الرجل الأبيض رطلاً من الملح وقطعة قماشٍ مقابل كل رجل، وأخذ بضاعته إلى داخل السفينة، بينما وقفنا في الدرب المفضي إلى الغابة لنتقاسم حصيلة صيدنا، حين طالب موكونزو بأخذ نصف ما حصلنا عليه من السيد الأبيض، قبل أن يتفرّق كلٌّ منا إلى حيث يريد الذهاب.

بدا طلبه أشبه بمهزلة اصطياد غيرك كي لا يصطادك. ضحكنا في البدء، وظننا أنه يمزح، ولكنه كان جاداً، حين رفض تقسيم أرطال الملح التي معه إلا وفق قناعته.

"رطلان ونصف من الملح لي، ورطلان ونصف تقاسموها بينكم، لكل واحدٍ منكم نصف رطل".

أصدر موكونزو حكمه، ولم ينتظر ردّ أيٍّ منا، بل سارع إلى قطع واحدةٍ من قطع الأقمشة إلى نصفين، ربط بأحدها قطعتين من القماش إلى بعضهما، ومد بالنصف الآخر إلينا، مع القطعتين الأخريين.

"هكذا سيصبح لكلٍّ منكم نصف قطعة قماشٍ أيضاً".

علت الأصوات، واحتدم الخلاف، لكن موكونزو كان مُصراً على قوله، رافضاً كل محاولاتنا لإقناعه بأننا كنا نتقاسم الحصيلة بالتساوي في كل مرة، ولم يحاول أحدنا من قبل الاستئثار بعائد البيع لنفسه، أو حتى نصفه، وإن كان هو من اكتشف الصيد وأوقع به، ولم يكن الآخرون إلا معينين له في السيطرة عليه.

حتى في صيد الحيوانات، لم يكن لصائد الحيوان أو من رآه قبل الجميع أي حصة إضافية، لأن الجميع يُشارك في ملاحقته، والإمساك به. لكن موكونزو قال إن هؤلاء ليسوا حيوانات، إنهم أُناسٌ مثلنا، والقانون الذي سرى على الحيوانات لا يجب أن يسري عليهم، فنحن نجازف بحيواتنا في كل محاولة للإيقاع بهم، وثمن الإنسان لا يمكن مقارنته بثمن ظبي أبداً.

قد يكون موكونزو محقاً في قوله، ولكن أن يأخذ نصف العائد، ويترك للخمسة الآخرين النصف ليتقاسموه لم يكن مُرضياً على الإطلاق، خاصة أننا لم نتفق على ذلك من قبل. ربما لأنه كان يعرف أن أيّاً منا لن يقبل بالأمر، ولن يجد من يساعده، ففضّل الصمت، ووضعنا أمام الأمر الواقع بعد بيع الرجال.

"إن لم تقبلوا بالنصف، لتقتسموه بينكم، فسآخذه كله وأرحل".

كنتُ قد فكرت في الاستسلام، وقررت أخذ نصيبي الذي قدّره موكونزو عندما حدث الشيء الذي لم يتوقعه أيٌّ منا نحن الستة الذين تعاهدنا يوماً على الدفاع عن بعضنا، فإما أن نحيا جميعنا، وإما أن نموت ميتة رجلٍ واحد.

"لن يكون بيننا خائن، والخائن سنقتله بأيدينا قبل أن نصل للموت على يديه".

أخذنا العهد بعدما قررنا الهرب من قبضة القوات العامة، عندما كنا جنوداً فيها، وبعد عدة رحلات إلى الميناء لحمل المغضوب عليهم من العمال، الذين يُباعون كعبيدٍ لأخذهم إلى ما خلف البحر، أو إلى بلاد البيض، حيث يصبحون مثلهم ربما، أو يتخلّصون من القيود التي أكلت من أقدامهم حتى شبعت كأقل تقدير.

اكتفينا من حياة الذل، والعبودية من الدرجة الثانية، والاستمرار في تنفيذ الأوامر، وخنق اعتراضنا قبل ولادته، ومن إلحاق الأذى بالآخرين، وملمس دمائهم التي لوّثت أيادينا، ومن تلك النظرات التي تبعثها الأعين في طريقها إلى الموت، والسؤال الذي يظل مُعلّقاً إلى الأبد دون إجابة، ودون أن يجد طريقه إلى آذاننا، أو حتى الوقوف مُتفرّجاً على طرف لسان صاحبه: لماذا؟

لم يعلم موكونزو أن الرمح الذي أعطاه مبمبا لدفع أولئك الرجال، وإجبارهم على السير دون مقاومة، سيندفع نحوه دون رأفة، ويتخطى صدره ليحمل جزءاً من أحشائه في طريقه للخروج من ظهره.

"هذا جزاء الطامع"

قالها مبمبا، دون أن يرمش له جفن، بينما كان موكونزو يترنّح فاغراً عينيه وفمه، ويسقط دون أن تصدر منه أنّة واحدة، ودون أن نلمح ذلك السؤال في عينيه: لماذا؟

بينغا

6–3

”افتح فمك“

أمرني السيد الأبيض الطويل ليعيد أفكاري المتجولة في غابة إيتوري إلى أرض الميناء التي أقف عليها – سمعتهم ينادونه فيرنر – تردد اسمه بعد ذلك كثيراً، أكثر من اسمي ذاته، الذي لم يسألني عنه أحد إلا مرةً واحدة، ولم يُناديني به أحد من بعدها، إذ أصبحت أكتسب اسماً جديداً في كل مكان أذهب إليه، فتارة ينعتوني بالقزم، وتارة بالقرد، وتارة بالبونوبو.

لم ألتفت لرفاقي الذين لم يُطلب منهم ذات الطلب، تمنعني القيود الملتفّة حول عنقي كأفعى المامبا السوداء الطويلة، من التفكير في الاعتراض. تربض بكل ثقلها فوق كتفي، ملتفة حول يديّ، وتجذبها بقسوة في طريقها للوصول إلى قدميّ، ومحاصرتهما، دون أن تدسَّ سمّها في جسدي، فتخطفني على غفلةٍ ممن حولي.

فتحتُ فمي لتظهر أسناني الصغيرة، تلك التي تمرر بيلا أصابعها على أطرافها المدببة، وهي تُميل رأسها يمنةً ويسرةً مع تموجاتها، وتهمس لي:

”أحبّ أسنانك الصغيرة هذه، لو كانت أكبر ولو قليلاً لما أحببتك بكل هذا الشغف“.

ابتسمت وأنا أشعر بصوتها الرقيق، يتسلل كأغنيةٍ دافئةٍ إلى روحي فيستفيق كل ساهٍ من مشاعري، وكل ما لم أتمنّ إيقاظه من الشوق والحنين والوجع، ذاك الذي خطفني فجأة من ابتسامتها إلى لحظة وصولنا من رحلة صيدنا المشؤومة، أنا وبعض الرجال الآخرين من القبيلة، حين وصلنا ورأينا ما رأيناه.

"حسناً، يكفي هذا الآن، أغلق فمك".

تُحدِثُ القيودُ جَلَبةً وهي ترتجُّ تزامناً مع محاولتي الاعتدال في وقفتي، بعد أن بدأ التنمُّل يبسط سطوته على ساقيّ لوقوفي الطويل.

بالكاد أستطيع نقل قدمي لبداية قدمي الأخرى، تسألني الأشجارُ خلفي عن خطواتي الطويلة، وتنقلاتي السريعة من مكانٍ إلى آخر، متذكرةً تسلقي عليها لجلب العسل أو الثمار، ورفعي لجسد بيلا لقطف خلايا النحل كلما عجزتُ عن الوصول إليها بيدي. ترتفعُ يداي بذلك الثقل الذي يشدها للقيد في قدميّ، أبتسم لجسد بيلا المتأرجح كطائرٍ حُرٍّ، يبسط جناحيه ويوشكُ أن يطير.

لدِنٌ ونديٌّ جسدها، تكاد تنزلق من بين أصابعي من فرط ليونتها، تقطف الخلية وتعود لحضني محملةً بالعسل:

"أينا أشهى، أنا أم العسل؟"

سؤالٌ لا تمل من تكراره ولا سماع إجابته، أكاد أترك العسل وأكتفي بها، لولا ضحكاتها التي تعلو وهي تقفز من حضني، راكضة بالعسلِ في يدها:

– علينا أخذه للصغار، إنهم ينتظرون.

– لن أدفع أكثر.

اعترض الرجل الأبيض ملاحقتي لها بجملته تلك، في اللحظة التي كانت فيها بيلا تركض بعيداً جداً، قبل أن يردف بشيءٍ من الازدراء:

"ألا ترى أنه لا يستحق الثمن الذي أدفعه فيه؟!".

رطلٌ من الملحِ لُفَّ في قطعة قماش مُصفرّة، وقطعة قماشٍ أخرى طويَت جيداً، وكذلك بالنسبة إلى آخرين عُرضوا بجواري، لم أكن أستحق أكثر من ذلك الثمن الذي قبضه خاطفيّ من قبيلة البشليل، بعد أن نصبوا لي فخّاً، وقعتُ به وأنا أهيمُ على وجهي في الغابة، مع الاثنين الباقيين على قيد الحياة من قبيلتي، باحثين عما يبعث في أرواحنا الحياة من جديد، أو يجعلنا نتشبثُ بذلك الرمق العالق أعلى صدورنا.

يبدون فاحمي السواد بقاماتٍ طويلة لم يصل أحدنا لطولها يوماً، أصل لكتف أقصرهم، أما أطولهم فلم أتعدَّ نهاية صدره، أحاطوا بي على غفلةٍ من حرصي، وأيّ حرصٍ قد يُنقذُ ضائعاً فقد وطنه؟ دار بصري مستفسراً بصمت بينهم، يداي فارغتان من أي سلاح، وقلبي مكتظّ بوجعٍ يتماهى إلى مدِّ بصري.

وقعتُ في الأسر كأي كائنٍ ضعيف، فقد رغبته في الحياة، لم يدرِ كيف يواري خيبته فسقط، مسكوناً بوجوه أحبته التي لم تعد إلا ذكرى تنخر في روحه. لو تعلم الأرض التي تلقّفتني ما بداخلي لابتلعتني قبل أن تمنحهم فرصة النيل مني.

"هيا تحركوا، يكفيكم تلكؤاً"

صرخ بنا أحد الرجال، وهو يدفعنا أمامه مستعيناً بسوطٍ طويلٍ من الجلد ينهالُ به على أجسادنا مُحدثاً صوتاً يترافق وارتطامه بنا من غير أن ننبس ببنت شفة، فأي صوتٍ يعلو من أحدنا يعني سوطاً آخر أن اصمت.

تُلهب السياط ظهري كلما ارتفعت ووقعتْ على ظهر أحدهم، وكأني نبتُّ فجأة في كل الأجساد المحشورة في القيد. السوط الواحد يطال الجميع، والصراخ والتلوّي يستسلم له الجميع.

لا يستعمل هذا الرجل الغريب الشيكوت. إن السوط الذي يستخدمه أملس بلا حواف تترك ندباتها على أجسادنا، رغم أن له أثره الذي لا يضله. يستعمله للسيطرة علينا – كما يقول – رغم أننا لا نملك مع كل هذه القيود التي تكبلنا إلا الانصياع له، والمضي مترافقين مع خطواته التي نعجز بطبيعة الحال عن مجاراتها وهو الحر الطليق، لذلك لا أظنه يستعمله إلا لتهدئة الحقد الساكن في داخله، والتنفيس عما يزعجه برميه على أجسادنا.

"ألا ترى كيف يتعمدون التلكؤ في سيرهم؟ يبدو أن النهار سينقضي ونحن ما زلنا هنا، هذه الحيوانات ستؤخرنا يوماً كاملاً".

برر السيد ذو القُبّعة ضربه لنا، بعد أن طلب منه السيد فيرنر التوقف، ولكنه ما لبث أن ابتسم حاثاً أسنانه الصفراء على البروز وهو يهمس لصاحبه:

"ولكن المقابل الذي ينتظرنا يستحق هذا العناء، أليس كذلك؟"

علت ضحكتاهما على أنّاتِنا والقيود التي تحزُّ أقدامنا، بينما احتفظت السفينة التي تنتظرنا بصمتها وصبرها، دون أن يُزعجها طرقُ الموجِ على جنباتها، ولا الضرباتُ القويةُ تُحرِّكُ بها ساكناً.

تخالفت قدماي في سيرهما وكدت أسقط، ترنحت في الهواء محاولاً التشبث بأي شيء أمامي، فلم أجد إلا رفاقي الذين حاولوا حمايتي، وتحاشي سقوطي عليهم. لا أعلم إن كانوا فعلوا ذلك حباً بي وخوفاً عليّ، أم لعلمهم بأن أي سقوط لأحدنا يعني تتالي سقوط

الآخرين، وتكوّمنا فوق بعضنا، لأننا مقيدون بذات السلسلة. يأخذنا السقوط لسياطٍ لا يمكننا عدّها، تجري على أجسادنا دون أن تُفرِّقَ بين جسدٍ وآخر، أو تتناوب في جريها فيما بيننا.

أصدرت المركبة صفيراً، قبل أن تهدر، وتبتعد عن غابة إيتوري، تاركة خلفها طفولتي، وذكرياتي، وضحكات بيلا، ومشاكسات أطفالي. وحده الحزن كان وفياً إلى حدّ إصراره على مرافقتي في رحلتي تلك.

قضينا وقتا طويلا في ذلك المكان المعتم الذي لا يتسلل إليه النور، بطول الليالي التي قضيتها في فرك أصابعي، والعض عليها قهراً، باحثاً عن حيلة تُرجع الوقت إلى حيث تمتد ضحكات بيلا بامتداد الأمنيات، أو حيث اللحظة التي سبقت وصول جنود القوات العامة لأستقبلهم بدلاً عنها، وتستقر رصاصتهم الأولى في صدري.

نأكل ما يُحضر إلينا من أطعمة، كثيراً ما تكون فاسدة، أو بقايا تُرمى إلينا بدلاً من رميها في البحر، لا تُشبع جوعاً، ولا تُسكت صغيراً أجبره الجوع على البكاء في تلك الظلمة التي لا نرى فيها إلا الأعين المتناثرة حولنا، والأجساد اللامعة بعد اعتياد أعيننا على العتمة المحدّقة بها، في ذلك المكان الضيق والرطب، والممتلئ برائحة الفضلات البشرية.

تلهو الجرذان بتسلق أجسادنا، دون أن يعلق أحدها بتلك السلاسل الممتدة بامتداد أجسادنا، وكثيراً ما خُيّل إليّ أنني ألمحها تسخر من عجزي عن طردها عندما تعض إصبع قدمي، أو حتى الصراخ تعبيراً عن ألمي. ولا أدري إن كنت أتخيل أم أنني لمحت يوماً أحد

الجرذان يُبعد صاحبه عن إصبعي التي تقاطرت منها الدماء، قبل أن ينظر إليّ طويلاً ثم يركض مبتعداً.

لا أدري كم مضى علينا، حين سمعنا ضجيجاً في الأعلى، وفُتِحَ بابٌ دخل منه بعض النور الذي كدنا ننساه، فاضطررنا لإغلاق أعيننا حتى نتعرف إليه من جديد، خشية أن يخطف أبصارنا التي اعتادت على العتمة.

أخرجونا جميعنا بعد أن فكوّا القيود عنا، وأخذونا إلى مكان نغسل فيه أجسادنا، ونرتدي ملابسَ أعطونا إياها، تشبه تلك التي يرتدونها، ثم مضى كل واحدٍ منا مع صاحبه الذي أتى به.

''نعم، إنه هو، لقد وجدناه أخيراً''

هتف رجل عرفت لاحقا أن اسمه وليام ماكجي بصوتٍ عالٍ، وقد انفرجت أساريره وهو ينظر إليّ، دار حولي، تلمّس جسدي مليّاً، ثم التفت للسيد الذي أحضرني له، والذي بعثه السيد فيرنر لأنه لم يتمكن من الحضور شخصياً بسبب مرضه، وأشرق وجهه بابتسامةٍ تليق برجلٍ يملك الكثير من المال، ولا زال يبحث عن المزيد، وقال:

''كنت أعلم أنني اخترت الرجل المناسب وأوليته المهمة التي يُتقنها''.

سرت في جسدي قشعريرة بسيطة إثر نسمة الهواء الباردة التي هبت فجأة. في هذه الأيام يصبح الجو في غابة إيتوري حاراً ورطباً، ويترك العرق بصمته على الأجساد، فيكسبها لمعةً مُحببة، ورائحةً نفّاذة، تشي بالكثير من الرغبات المكبوتة، وكأن دماً يغلي، يبحث عن قطرة ماء تطفئه، أو تهدّئ من ثورته.

نقّلتُ بصري في أرجاء المعرض، حيث سأُصبح قريباً إحدى معروضاته القيّمة، ويتوافد الناس لرؤيتي، ولا أدري إن كان عليّ البقاء صامتاً كما كنت حتى اللحظة، أم أنهم سيسمحون لي بالحديث، وما الذي قد أقوله، أنا الذي لم أحضر معي إلا جسدي الذي تعذّر عليّ تركه هناك مع كل شيء تركته.

"هذا القزم الكونغولي، سيثبت للناس ما قاله داروين، انظر كيف يبدو"

أشار إليّ وهو يلتفت للرجل الواقف معه، وأكمل:

"لا يختلف عن القرود كثيراً، إنه تمثيلٌ نادر للحلقة المفقودة التي بحثنا عنها طويلاً بين القرد والإنسان، يمكن لداروين أن يرتاح في قبره أخيراً. أبليتَ جميلاً يا رجل".

ضرب السيد ماكجي الرجل على كتفه وهو يضحك. لكن هذا الأخير تراجع إلى الخلف قليلاً في حركة غير ودية، مُتخلِّصاً من صمته:

"لا تنسَ وعدك، عشرة في المئة من الإيرادات".

نظر إليه السيد ماكجي باستعلاء، ولم يُجبه، واكتفى بأن هزّ رأسه في إيماءةٍ لا يفهم المرء منها أهو موافق أم معترض على ما سمعه، لكنه لم يُعد ما قاله. أظنُّ أنهما متفقان مسبقاً، وما يدور بينهما الآن ليس إلا حديثاً زائداً لا فائدة من البوح بتفاصيله أمام رجلٍ سيُصبح عما قريبٍ ككل الأشياء المعروضة هنا، تتفاوت قيمتها، لكنها كلها دون استثناء بلا روح.

باكامبو

5–5

صيد الرجال وبيعهم في الميناء أصعب من عملي السابق، لكنني معه لم أعد مضطراً لقتل أحد، وهذا خفف عني عبء الإحساس بالذنب الذي كان يطحنني كلما اضطررت للقتل، فمن نصطادهم يظلون أحياء إلى أن نبيعهم، ونقبض أثمانهم، وبعدها لا نعود مسؤولين عما يحدث لهم. من يدري، ربما وجدوا هناك حياةً مرفهة بانتظارهم، كحياة أولئك الكسالى المنتظرين على المقاعد الحجرية في الميناء، مما يعني أن ما نفعله خير لهم، وليس كما يظنون. الأمر السيّئ الوحيد أنهم لا يعودون أحراراً، ويضطرون لنسيان أحبتهم، إنهم فقط يصبحون وحيدين في هذه الحياة، ولكن ذلك أفضل من الموت.

مهلاً، هل قلت لا يعودون أحراراً؟ عذراً، يبدو أنني قلت شيئاً غبيّاً، فلا أحد حر هنا، جميعنا نرزح تحت بنادق القوات العامة، نهرب منها ولا نعلم إلى متى سنظل هاربين، وإن كنا سننجو أم أنها مسألة وقت، ونقع في شباكٍ كالتي ننصبها.

لم يكن صيدنا وفيراً هذه المرة، إنهم ثلاثة أشخاص فقط، ولكن مبمبا كان يعترض على اعتبارهم ثلاثة أشخاص:

”اثنان ونصف ربما، وربما اثنان فقط، فهذا القصير لن يقبل به أحد إلا بنصف الثمن، هذا إذا لم نضطر لإرجاعه معنا، والتورط بطعامه في رحلة العودة“.

كنا نتشاور فيما إذا كان من الأفضل لنا تركه، وإطلاق سراحه في الغابة، أو المجازفة بأخذه معنا، ولكنهم انصاعوا لرأيي حين اقترحت أن نأخذه معنا، مبرراً أن الأمر جدير بالمحاولة، فمنظر أسنانه قد يبدو مُثيراً للرجال المنتظرين في الميناء، مما سيجعلهم يتغاضون عن قصره الشديد.

هذا القصير لا يبدو كالضباء التي تهدأ بعد محاولاتٍ يائسة، إنه كالأوكابي تماماً، عنيد وثائر، كأنه من ذات الفصيلة المتمردة. ثلاثة أيام مرت على مكوثه في الشبكة لم يهدأ خلالها لحظة، ولم يسمح لنا ولا لأصحابه بالراحة ولو قليلاً.

لو كنا ما زلنا نعمل ضمن القوات العامة لأجهزنا عليه، وأرحنا الجميع من ثورته، وصراخه الذي لا ينقطع، وربما ودَّ لو نفعلها، ونُريحه من المستقبل الغامض الذي ينتظره بعد خروجه من الشبكة العالق فيها. لكن قتله لم يكن من مصلحتنا، لأن ذلك يعني خسارة المقابل الذي سنحصل عليه عند بيعه، وبالكاد اصطدنا ثلاثة أشخاص، فلو قضينا عليه لن يتبقى لدينا إلا اثنان فقط، والمقابل حينها لن يكون مُجدياً مع كل التعب المرافق للوصول إلى الميناء حيث سنبيعهم.

عندما كنا نراقبه ظننت أننا لن نتمكن من صيده، فقد بدا حذراً جداً، يتلفت لدى سماعه لأي صوت، ولو لم يكن إلا صوت الريح المتشاكسة مع أوراق الأشجار المترنحة بهدوء أثناء سقوطها من أمهاتها.

متيقظا لأي حركة في الجوار، يكاد لا يغفل عن ظل غيمة تمر فوق رأسه، ترتفع أذناه لأدنى هسهسة تعبرهما، ويرفع عينيه لتستقر مُقلتاه في أعلى جبينه، وتدورا في كل

الاتجاهات دون أن يتحرك من مكانه. يبدو أشبه بالصخرة التي يتكئ عليها، أو يختبئ خلفها، كأن قلبه يُنبئه بأن أحداً يترصّده، أو كأن ناراً تشتعل في جسده بأكمله.

لا يستقرُّ على وضعية حتى يُغيّرها. كلما هدأت الأصوات من حوله ارتفع نشيجه، ويصمت ما إن يشعر باقتراب حيوانٍ صغير، كجرذٍ يخرج من جحره، لاستكشاف ذلك الصوت الغريب القريب. وما إن يقترب حتى يسلط كل منهما عينيه نحو الآخر، ويظل يراقبه إلى أن يستسلم الجرذ ويعود لجحره، ويعود هو لبكائه.

عندما لمحته للمرة الأولى ظننت أنه من قبيلة البيغمي، لكنني بعد ملاحظته تأكدت أنه لا ينتمي لتلك القبيلة. رغم قِصره الشديد، وشفتيه الممتلئتين، وعظام وجنته البارزة، فلا جسده النحيل يشبه أجسادهم الممتلئة، ولا يداه طويلتان كأياديهم التي لا تبدو متناسقة مع أجسادهم القصيرة.

لم أستطع ربطه بأي قبيلة أعرفها. فلا أحد ممن عملوا في جمع المطاط يشبهه، جميعهم طوال القامة، وإن بدت جميع أجسادهم بعظام ناتئة، وشِفاهٍ ممتلئة رغم الجفاف المتربص بها، والظمأ الطافي على ملامحهم. من يدري، قد يكون عمل تحت إمرة ضابط آخر غير الذي كنا نعمل معه.

خشية أن يضحكوا على الرجل القصير، أو يستبعدوه قبل مساومتنا على السعر الإجمالي لبضاعتنا، ترددنا في عرضه على الرجال المنتظرين في الميناء، لكنهم نظروا إليه، ثم ذهب أحدهم ونادى رجلاً اسمه فيرنر أو بيرنر، لست متأكدا بالضبط، وحين أتى ذلك الرجل ولدهشتنا لم ينظر إلا إلى الرجل القصير بينغا، ثم بسط ورقةً أخرجها من جيبه،

وتأملها مليّاً، ثم قلبها وقام بالتوقيع في الورقة الثانية وهو يُنقِّل بصره بينها وبين بينغا، وينظر إليه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ويهز رأسه، ثم قال:

– سأشتريه مقابل رطلٍ من الملح.

– رطل من الملح؟

ظن أننا غير راضين عن المقابل الذي اقترحه عندما رددنا الجملة معاً، وكأننا اتفقنا عليها، ولم يعلم أننا كنا مندهشين من إقباله عليه، فقال:

"إنه لا يساوي أكثر من ذلك، انظروا إليه، ليس إلا قزماً، ولكن لا بأس سأمنحكم قطعة قماشٍ أيضاً كهدية مني ليس إلا"

ثم ضحك ضحكةً قصيرة قبل أن يقول:

"إنه كالقردة تماماً"

لا أعلم ما قصده بقوله قزم، ولا أظنه كان جادّاً عندما شبهه بالقردة، لكننا لم نتخيل أن نحصل على مقابلٍ لهذا القصير كأي رجلٍ آخر ذي بنيةٍ قوية، لذلك أخذناه دون أن نجادله فيه أبداً.

الأقمشة وأرطال الملح هي كل ما نأخذه مقابل من نحضرهم من الرجال، ثمن بخس لا يوازي كل العناء الذي نكابده، ولكنه أرحم من القتل، أو هكذا نبرر لأنفسنا ما نفعله، حتى نتخلص من تأنيب الضمير الذي يأبى مفارقتنا، ولا تنفع معه كل الأعذار التي نرددها بصمت خشية أن نسمع بعضنا، فنتجادل فيها.

نعجز عن التعليق أو حتى السخرية عندما نفكر فيما لو كنا نحن مكان أولئك الرجال المباعين، هل كنا نفضل القيد على الموت؟ وهل كنا سنختار العبودية لنهرب من الموت؟

وهل سنضحي بأحبتنا لنُبعد عنا الموت؟

الموت، الموت، الموت!

الكلمة التي تمد قدميها لنتعثر بها في كل جملة، وتنشطر إلى مئات الكلمات لنبصرها حيثما ولّينا أبصارنا فتعصف بكل فرحة، لتسقط قبل أن تمتلئ بها أرواحنا. لا نكاد نهرب منها حتى نصطدم بها، وكأنها ليست إلا الهواء الذي نتنفسه.

من كان يظن أن بينغا سيستسلم بعد كل تلك المقاومة، لقد توقعت أنه سيفر من بين أيدينا كعصفورٍ يعلم أنه إن لم يفعلها الآن ويطير فلن يحصل على فرصةٍ ثانية أبداً، وأننا لن نلمح إلا ظله الهارب بمجرد أن نبدأ في فك الشبكة عنه ورفاقه، لكنه الوحيد الذي لم يُبدِ أيّ مقاومة حين بدأنا بوضع القيود في يديه وقدميه وعنقه. الشيء الوحيد الذي لم يتوقف عنه هو البكاء دون أن يرفع صوته كلما توقفنا للنوم أو الاستراحة.

أتأمل السفينة الرابضة في الميناء بهدوء، بعد أن امتلأت معدتها بالكثير ممن كانوا يوماً ما شيئاً من هذه الأرض. أراها تتجشأ تخمتها، فيخرج الدخان من قمة رأسها، ويصدر صوتاً مزعجاً أكثر من صياحِ صبي انتُزِع من صدر أمه قبل أن يأخذ كفايته من حليبها.

لن ينقضي وقتٌ طويل قبل أن تخطف الريح ألوان أولئك العابرين ببطءٍ إلى ظهر السفينة، يجرّون السلاسل في أقدامهم وأعناقهم، تلسع السياط ظهورهم فتمتد قليلاً قبل أن تعود للانحناء مرةً أخرى تحت وطء القيود الثقيلة، كأنها تمدُّ حزنها للسماء، وترتدّ خائبة حين تصطدم بأبوابها المغلقة. تاركين خلفهم غابة إيتوري، وكل من فيها، وما فيها، والمرة الأولى التي وطئَت فيها أقدامهم الميناء، ستكون ولا بد المرة الأخيرة.

”لقد قبضت ثمنهم وانتهى، لماذا لا تطاوعك قدماك على الابتعاد قبل أن تتحرك الباخرة وتختفي في عرض البحر؟“

توبّخني نفسي، فلا أرد عليها، أكتفي بالنظر إلى الباخرة المتخمة بالكثير من الأجساد المنهكة، تلك التي قاومت طويلاً فلم تنجح في التحرر من قيودها، أتخيلها وقد استلمها البحر. أفكر في عدد الذين سينجون عند انتهاء الرحلة، وأولئك الذي سيُضحي بهم الربان، ويقذفهم طعاماً للأسماك بعد أن تتعفن أجسادهم في السفينة.

لا أظن أن أحداً منهم سيقبل بالهزيمة، جميعهم سينجو، إنهم أقوياء، ولن يلبثوا أن يكونوا كهؤلاء المتأنقين، سيرتدون ملابس تغطي أجسادهم بأكملها، ويسخرون منا حين يتذكروننا ونحن نجرهم أمامنا لنبيعهم بثمنٍ بخس. من يدري، قد ينقلب الوضع ويعود أحدهم يوماً ما ليطلب صيداً يشبهه قبل أن تخطف الريح لونه بعد عبوره البحر.

كانت جدتي تقول إن أول ما تأكله الأرض من أجسادنا بعد الموت ألوانها، لذلك تصبح أرواحنا شفافة بلا لون، تزور أحبتها كلما احتاجوا إلى مساعدتها، أو أتعبتهم الحياة، ولكنهم لا يرونها، أما تلك السيئة فتصبح بلون الهولايت الأبيض، بعد أن تتسلل إلى الشيطان الساكن في قلب المحيط، وتُسلِّم له نفسها لتصبح من أعوانه، وتعود إلى الغابة بهيئة أخرى. ورغم أن الهولايت يمتص من الأرواح غضبها، ويمنحها هدوءاً نادراً، فإنّ ذاك المتلبّس بتلك الأجساد يستمد صلابته من الحقد المشتعل في صدر الشيطان. أما تلك التي لا تنجح في الوصول إلى الشيطان، ولا تكون طيبة، فإنها تتحول إلى موليمو تسكن الأرواح المتعبة التي لا تزال على قيد الحياة.

عندما رأيت الرجال البيض لأول مرة، تذكرت حكايات جدتي، ولكني لا أظن أن هؤلاء أعوان الشيطان العائدون من الموت. هؤلاء لم يجربوا الحياة يوماً، لقد خُلقوا أمواتاً، من حجر ربما، وإلا لما كانوا بهذه القسوة، أو ربما ولدوا في الجحيم، وعندما هربوا منه اختطفت الريح ألوانهم، وهذا ما ستفعله بالراحلين بعيداً من جحيم غابة إيتوري، ستخطف ألوانهم، ويصبحون مثل أولئك البيض، وإن عادوا يوما إلى هنا، فلن يعرفهم منا أحد.

''لا بد أن عامين كافيين لييأس من العثور علينا''

رد مبمبا على تساؤلي فيما إذا كان بإمكاننا العودة إلى قبيلتنا بعد خروجنا من الميناء، ووافقه الجميع الرأي، وبدأنا نُجهِّز أنفسنا استعداداً للعودة.

ترى كيف أصبحت أشكالهم؟

كنا نتسامر في طريق العودة، متذكرين أطفالنا، وأحاديثهم التي لا نمل من سماعها، ولم يتجرأ أحد من رفاقي على التفكير فيما لو كانت زوجته قد قررت نسيانه، والبحث عن رجلٍ آخر تُكمل حياتها معه بعد كل هذا الغياب، وإن كان أحدهم قد فكر فهو لم يُبح بما فكر فيه، خشية أن يجد من يشاطره تفكيره، فتلعب به الوساوس.

أما أنا فلم أفكر في ذلك فقط، بل كنت أفكر في عدد الرجال الذين واعدتهم سراً في غيابي، وأسرفت في التعبير لهم عن اشتياقها لزوجها الغائب منذ زمنٍ طويل، وحاجتها لمن يشغل مكانه الفارغ في حضنها، أو أولئك الذين سيسحبونها من بين صغارنا ليؤنسوا لياليهم الموحشة بالتسامر معها، وستضحك ضحكتها الطويلة وهي تفصح لهم عن قلقها الشديد على زوجها الذي لم تسمع عنه شيئاً منذ ذهب للعمل ولم يعد.

منذ ولادتها لطفلها بعد ستة أشهر من الحمل، والأفكار تأكلني. لم أعد أثق بها، ولا أؤمنها على شرفي.

"شرفك؟"

أسمعها تقهقه بصوتٍ عالٍ وهي تسخر مني، ولها الحق في ذلك. أنا فعلاً رجل بلا شرف، بعت شرفي ذات يوم بقطعة قماش منحتها لها، لتستر عورتها عمن سواي، وما سترته. وبعته مرةً أخرى عندما قطعت يد طفلٍ لم يكمل عامه الرابع انتقاما من والده الذي أقعده العجز عن مواصلة العمل في جمع المطاط، عندما تخيلته الرجل الذي غرس البذرة التي أينعت طفلاً حمل اسمي. بعته كل ليلة وأنا أنتقم من زوجتي في جسد امرأةٍ أخرى، لم تجد لروحها مهرباً مني إلا بالموت، فغرستْ سكيناً في صدرها ورحلتْ، وكان كل ما فعلتُه لها أن أودعتها النهر، وعدت أجرّ عاري لينام معي. ثمّ بعته أخيراً برطل ملحٍ مقابل بينغا المسكين الذي لم ينطق كلمة واحدة وهو يمضي نحو قدره في سفينة امتلأت بالكثيرين غيره، لكنه دون سواه ظل صوته يتردد في رأسي كلما هممت بالنوم:

"بيلا، موبوتو، مولاسي"

كنا نتوقع أن الوصول إلى القبيلة سيستغرق عشرة أيام فقط، لكننا اكتشفنا أن قبيلتنا غيرت مكانها مراتٍ عدّة، لذلك طالت المدة، ولم يكفنا شهرٌ للوصول إليه. فكلما دلنا على مكانها أحد، وذهبنا إليه، وجدناها ارتحلت منه، وهكذا حتى وصلنا أخيراً بعد أن كدنا نظن أننا لن نصل أبداً.

"باكامبو، لقد عاد باكامبو ورفاقه، باكامبو ورفاقه عادوا".

صرخ أحد رجال القبيلة بمجرد رؤيته لنا على حدود مساكن قبيلتنا، ظننا أنها فرحة عودتنا، تلك التي جعلته يجري ليُبشّر كل أهل القبيلة، فعلت الابتسامات وجوهنا ونحن نخطو بزهو إلى داخل القبيلة، بغرض تحيّة رئيسها قبل الذهاب إلى أكواخنا والالتقاء بأسرنا، لكننا تفاجأنا برجال القبيلة يحيطون بنا، ويوجهون نحونا رماحهم. وقبل أن نستوعب ما يحدث كانت شباكهم تحيط بنا كصيدٍ ثمين.

علمنا فيما بعد، ونحن في الطريق لتطبيق عقاب الخائنين علينا، أن السيد الأبيض أمر بنسائنا، وجعلهن مُباحاتٍ لكل الرجال الذين استبحنا نساءهم من قبل. مرّ على أجسادهن كلُّ الرجال حتى نفقن بين أيديهم، ولم يشفع لهن بكاء أطفالهن، فقد اعتُبرن شريكاتٍ لنا في الجريمة.

المرأة شريكة زوجها، والطفل سيكبر ليُعين أبيه، وهكذا كان العقاب يطال الزوجة والأطفال بغض النظر عن استحقاقهم له من عدمه. وقبل أن تلفظ زوجاتنا أنفاسهن، أحضروا لهن أطفالهن، ولم تقطع أيديهم، بل قطعت أعناقهم مباشرة.

"الخيانة هذه المرة عظيمة".

هكذا كان الرجل الأبيض يردد، وهو يتوعدنا بأن يخصينا، ويربطنا في أشجار المطاط، ليطأنا كلُّ من يود الانتقام لنفسه، دون أن نُمنح لقمة طعام أو قطرة ماء، حتى نلفظ أنفاسنا على جذوع تلك الأشجار، أو يرسلنا كبضاعةٍ إلى الميناء.

سلبونا المال الذي جمعناه خلال عامين، وقرروا أخذه إلى السيد الأبيض، كاعتذارٍ منهم عن شيء لم يفعلوه، وليثبتوا له صدق ولائهم له، واستعدادهم لفعل كل ما يطلبه منهم.

الطريق إلى حيث يتابع السيد الأبيض عمليات جمع المطاط لم يكن طويلاً كالطرق التي سلكناها للهرب منه، والهرب بغنائمنا من الرجال كي لا نقع معهم في قبضة قطّاع الطرق، والتعب الذي استبدّ بنا لم يكن غريباً علينا لنشتكي منه، فقد مرت علينا أيام أشد صعوبة، وليالٍ طويلة من السهر، والسير متخفيين في العتمة. حتى فقد زوجاتنا وأطفالنا لم يهزنا، فكل ما يحدث ليس إلا تسديد دين كان سيأتي يوماً ما، وأي تأخير ليس إلا كالوقت المسروق من فم العمر قبل أن يلتهمه.

"ترى كيف حال بينغا؟"

تساءلتُ متذكراً محاولاته المستميتة للتخلص من الشبكة كما لا أفعل، والحبال التي قيدنا بها حركته كما فعل أهل قريتي بي ورفاقي، وفكرت في حاله الذي أصبح عليه، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أقهقه عالياً مُتخيّلاً عودته بعد أن خطفت الريح لونه.

علت ضحكاتي وأنا أراه أمامي، بشيكوتٍ يحمله في يده، ويهوي به عليّ، قبل أن يطلب من أعوانه ربطي بجذع شجرةٍ للتناوب للنيل من رجولتي المهزومة، فضحكت أكثر وأكثر، وأنا أرى قطعةً من قماش ورطل ملحٍ يقبضه أحدهم ثمناً لي.

تركت ضحكاتي تعلو، وتعلو، ولم أتوقف عن الضحك، رغم ذلك الصوت الذي كان يقترب مني كرصاصةٍ تعرف هدفها جيداً.

بينغا

6–4

أكثر من مرة أوشكت على التعارك مع جاري المزعج، الذي يطيب له الغناء بصوتٍ يطرد الخفافيش من أوكارها كلما خلدنا إلى النوم، فما يكون منها إلا أن تجذبني للكوخ، لأخرج منه وقد طَرِبْتُ لصوته، وكم شاركته الغناء مراراً.

لا تفرق بيلا عن إناث البونوبو اللواتي يُسلمن أجسادهن لذكورهن كلما تعاركوا على الطعام، لتفريغ غضبهم ورغباتهم، وفضّ القتال قبل تطوره.

نعم، أنا بونوبو، بونوبو متطور بعض الشيء – كما يقولون – بالكلام ربما، إذ لا شيء آخر يُميزني عنه، كلانا يتحايل للحصول على طعامه، وكلانا تُغريه أنثاه لتهدئته حين يغضب.

بونوبو تخرج الكلمات واضحة من فمه، يفهم الغرباء لغته بعد تعلمها، ولكن، ألا يعني ذلك أن البونوبو أفضل مني في هذا الأمر؟ إذ نجح في الاحتفاظ بخصوصية كلماته حين يُلقيها، فيبقى الآخرون حائرين فيما يود قوله، ولا يفهمه إلا بونوبو مثله.

– ألا ترى نتيجة الفحوصات، حمض البونوبو يتشابه مع حمضه النووي بنسبة 98 في المئة، لقد فعلناها أخيراً، سوف نثبت للعالم أن هذا القزم ليس سوى بونوبو متطور.

– بالفعل، لن يتمكن أحد من الاعتراض على وضعه مع القرود، أظن أن الاحتجاجات ستهدأ أخيراً.

ثم التفت للدكتور ويليام هورناداي، وغمز له:

"لا أظنّك ستتمكن من عدّ ما ستحصل عليه من أموال جرّاء عرضك لهذه السلالة، يا لك من رجل محظوظ".

ضحك الدكتور هورناداي لتعليقه، وانصرفا مستمرين بالتعليق على ما يقرآنه بالجريدة من أخبارٍ تُبيح لهما ما يفعلانه معي.

– ترى من يكون ذلك الرجل بصحبته؟ لم يسبق لي أن رأيته، أهو شريك له، أم صديق مُقرّب؟

– وما حاجتك لمعرفته؟

خُيل إليّ أنني رأيت استنكاراً في عيني دونغ، وسمعته يتذمر من سؤالي عن الرجل، فقد اعتدت على تجاذب أطراف الحديث معه، أو هكذا أوهم نفسي لأني لا أجد أحداً أتحدث معه، فلا أحد هنا سواي أنا ودونغ وزوجته ساندي.

لا أتفق ودونغ في أهمية التفاصيل، تهمه النتيجة وأهتم بما أوصلنا إليها. في إحدى المرات غضب لأني ثرت، وبدأت بضرب قضبان القفص الحديدي الذي نسكنه، بسبب غضبي من قبيلة البشليل لأنهم باعوا القبائل الأخرى لإنقاذ أنفسهم.

"أليسوا هم من اختطفوني وباعوني للسيد فيرنر؟"

أرد عليه بغضبٍ أقل حدة، بعد أن خفت من ردة فعله، بعد صرخته التي أطلقها، والتي يُخيل إليّ أنها كانت تعني: توقف.

فاكتفى بأن رمقني بتلك النظرة اليائسة من إقناعي بأن المشكلة ليست إلا فيمن اشتراني بعد أن أغراهم بالمال، وبالحياة السهلة أيضاً، وربما بالاستمرار في العيش طويلاً.

يرى دونغ أن قبيلة البشليل قبيلة بائسة ومسكينة، يصفهم بالضحايا، ثم يطرق حزيناً حين يتخيلهم والذنب يؤرق مضاجعهم:

"أظنهم لا ينامون جيداً، مثلكم تماماً".

أنظر إلى دونغ الذي انشغل بمغازلة أنثاه، وأُطرق ساكناً أراقب أفكاري، وأتخيلها تسير وحيدة في عقله، ترسم الكلمات فأقرؤها في عينيه، ويعجز فمه عن ترديدها، أو هكذا أتوهم، عندما أشعر بألمي يعريني أمام كل من حولي، وأولهم دونغ.

كانت أمي تتعجب حين تراني أعتلي أشجاراً لم يسبقني إليها أحد، حتى إذا ما وصلت لآخر غُصنٍ يمكنه احتمال وزني، وقفت أراقب القرود وهي تتقافز من شجرةٍ إلى أخرى.

ترى، هل كنت أفعل ذلك لأني قرد؟

أكثر من مرةٍ حاولت تقليدها، وأكثر من مرةٍ سقطتُ من عُلوٍّ لم أُصدق بعدها أن روحي لم تصعد إلى السماء هاربةً من جسدي قبل أن تصطدم معه بالأرض. آخر مرةٍ سقطتُ فيها انكسرت قدمي اليسرى، وكِدتُ أفقد عيناً بعد أن انغرس غصنٌ يابسٌ كان على الأرض في وجهي، تاركاً أثراً لا زال يرسم امتداداً أسفل حاجبي الأيسر.

لكن القردة تقفز من شجرةٍ إلى أخرى دون أن تسقط ولو مرةً واحدة، فلماذا كنت أسقط كلما حاولت تقليدها إن كنت واحداً منها فعلاً. هل حدث ذلك لأني لم أتدرب جيداً كما تفعل؟ لا أدري، أنا حقاً لم أعد متأكداً من أي شيء.

تتجول الأفكار في رأسي كما يتجول الزوار في حديقة الحيوانات، يتأملون الحيوانات الرابضة في أقفاصها، وحين يأتي دوري، أتفرّج على الناس كما يتفرّجون عليّ، مركزاً على أدق التفاصيل، وأي حركة قد تصدر من أحدهم. أحياناً أشعر أني قادر على معرفة ما يضمرونه من مشاعر تجاهي، رغم أن دونغ يسخر مني دائماً، متسائلاً عن المشاعر التي قد يحملها شخص أتى لرؤية حيوانٍ، سيتأمله قليلاً ثم يرحل، ولكني لا أهتم لرأيه، وأستمر بمراقبة الناس.

(آكل لحوم البشر الأفريقي الوحيد في أميركا)

لم أكن أفهم ما تعنيه تلك اللافتة، ولم يلفت انتباهي إليها إلا السهم الموجه ناحيتي. كان يبدو كسهمٍ لن يضل طريقه إلى صدري، رغم محاولاتي المتكررة لتغيير مكاني في القفص هروباً منه، ولكن أحد الحراس أخبرني محاولاً طمأنتي – بعد أن لاحظ انفعالي، ومحاولتي الاختباء منه قبل أن يصل إليّ – أنه مجرد رسم لن يتحرك من مكانه، وأن هذه اللوحة وضعت لترشد زوار الحديقة إليّ، وعندما قلت له إني لا آكل لحوم البشر، أشاح بوجهه عني، وقال:

"ومن يهتم بالحقيقة؟ الناس هنا لا يصدقون إلا ما يودون تصديقه، وهذه اللافتة ستجلب الكثير من الزوار، والكثير من النقود أيضاً"

قالها بشيء من الأسى، قبل أن يضحك بسخرية عندما نطق كلمة النقود، وإن كنت أظن أن بضحكته تلك الكثير من الأسى الذي حاول إخفاءه.

اقترب رجل وزوجته من القفص الذي أتشاركه مع دونغ وزوجته بعد أن أرشدتهما تلك اللافتة إليه، وما إن وقفا أمامي حتى تحرك جنينها في اللحظة التي التقت فيه أعيننا، لعل

أسناني المدببة أخافتها، فانتقل خوفها إلى جنينها الذي تلفّت باحثاً عمن يحميه من عضّاتي التي قد تطاله لو بقي مكانه.

أظن أنها في شهرها السادس من حملها، فحين كانت بيلا في الشهر السادس كان بطنها متكوراً كبطن هذه السيدة البيضاء، وكانت مولاسي تكوّرُ كفّها وتطرق رحِم أمها بغضب كلما احتضنتُها، وكأنها تقول لي: "أنت تُضايقني، ابتعد".

أمسكت يد زوجها ووضعتها على رحمها قبل أن تلتفت إليه ليمنحها قبلةً على شفتيها تُهدئ روع ذاك المضطرب في أحشائها، وابتعدا عني وهي تُخبئ وجهها في صدره، وأظن بأنه كان يهمس لها بكلماتٍ تعبر عن شوقه ورغبته فيها.

المرأة التي أتت بعدها، ككل أصحاب البشرة البيضاء. لم تمتلك لُطفها، ولا كانت حاملاً في شهرها السادس لتذكرني ببيلا. غرست عينيها في جسدي، حتى شعرت بها تُعريني، لتعرف من صُلب أي حيوانٍ أتيت، وأيّ غوريلا حملتني في أحشائها.

يعلو صوت الغوريلا ساندي، رفيقتي في القفص، منزعجة من تلك الواقفة أمامها بلامبالاة، وكأنها لا تراها. تشعر ساندي بالغضب كلما أتى الزوار ولم يُلقوا لها بالموز، لأن ذلك يعني أنهم لم يأتوا لأجلها.

لم تستلطفني ساندي يوماً، وكلما نظرتُ إليها لمحت شعوراً غريباً في عينيها، وكأنها تسألني: "لماذا أنتَ هنا؟".

لا ترى بي إلا كائنا غريبا متطفِّلا عليهما هي ودونغ، رغم أنني لم أتدخّل يوماً في النقاشات الدائرة بينهما، وكم أدرتُ بصري عنهما كلما همّا بلقاءٍ لا أملك بعده إلا التفكير بلحظاتي مع بيلا.

يغضب دونغ لأنثاه، يرتفع صوته وهو يضرب بيده على صدره، ما يجعل المرأة تبتعد بحركة فجائية، وكأنها خشيت أن يقفز عليها متجاوزاً القضبان الحديدية.

كانت مولاسي تخاف أصوات الغوريلات، وتبكي كثيراً كلما ارتفعت أصواتها في الغابة. تحتار بيلا كيف تُهدئها، ولكنها كبرت، وتعوّدت عليه، وانتقلت عدوى الخوف إلى أخيها موبوتو.

"يبدو أن معاناتنا لن تنتهي"

هكذا تُردد بيلا بيأس، كلما عجزت عن تهدئة موبوتو، بينما أطمئنها:

– ربما كان القادم شجاعاً كأبيه.

– خذه إذاً وأسكته ريثما أستعد لاستقبال أبيه.

قذفها لموبوتو باتجاهي يجعله ينسى خوفه وبكاءه ويضحك وأنا أتلقفه، ثم أعيد قذفه في الهواء وتلقفه، حتى ينقلب بكاؤه إلى ضحكات تعلو على أصوات الغوريلات.

رحلت بيلا قبل أن يأتي ابن أبيه، وأخذت معها موبوتو ومولاسي، وجئت أنا إلى هذا المكان، وأصبحت مسؤولاً عن تنظيف القفص. عملٌ جديدٌ عليّ، ولكنه أفضل من البقاء بلا عمل، أشعر أن عظامي بدأت بالتآكل، لا أشجار هنا لأتسلقها، ولا ضباء لأصطادها أو أجري خلفها. لا يُسمحُ لي بتسلق القضبان رغم أنني حاولتُ كثيراً، ولكن السياط التي ألهبت جسدي في كل مرةٍ حاولت بها، جعلتني أقرر التوقف أخيراً.

تعرّفُي إلى السوط لأول مرة كان حميميا بشكلٍ لافت، ظلّ يتمدد على جسدي بجنون، يحاولُ أن يُنسيني ما واجهته قبله من ألم، وتعريفي إلى ألمٍ جديدٍ أشد قسوة، وأعظم أثراً، ظننتهُ يئنُّ وهو يُقبّلُ جسدي، معتذراً عما يُحدثه بي من ألم، حتى سمعتُ أحدهم يخبر ابنه،

وهما ينظران إليّ وأنا في قفص القرود، أن هذا السوط هو أول أداة اخترعها الإنسان تصل لهذه السرعة.

يومها علمت أن صوته الذي نسمعه لا يأتي من بكائه علينا، كما كنتُ أظن، بل لأن طرفه يكسر حاجز الصوت، لم أفهم ما يقصده بحاجز الصوت، لكني لم أعد أشعر بالشفقة التي كنت أشعر بها عليه لأنه مجرد أداة في يد صاحبه، ولأنه لم يكن يملك إلا التأوه على الأجساد التي يجري عليها بشراهة.

كان هذا ما همس به رجلٌ أبيض لابنه بعد أن رأياني وأنا أتلقّى إحدى الضربات لأني لم أنهض من مجلسي لحظة قدوم مُشاهديّ بسبب انزعاجي الشديد في ذلك اليوم، فتساءل الابن وقد بدا الضيق على وجهه، مرتدّاً بجسده إلى الخلفِ قليلاً:

– يبدو أن الضربة أوجعته، بدا من صوتها أنها مؤلمة.

– لا يا بني، السود لا يتألمون، لقد خُلقوا ليُضربوا.

أجابه الأب بابتسامة لا أعلم إن كان ما رأيته في تفاصيلها دفء أب أم برود قاتل، وأكمل سرد معلوماته لابنه عن صوت السوط الذي أزعجه. أكثر ما آلمني في كلامه ليس وصفي بالحيوان، بل أني علمت أن الشيكوت لم يكن يبكي معتذراً لأنه مُجبرٌ على التمدد بمنتهى القسوة فوق أجسادنا كما ظننت، وأنه لا يفرق عن حامليه من الجنود، ولا عن خاطفيّ من قبيلة البشليل.

لا يمكن لأي إنسان أن يشعر بما يشعر به الآخرون. لكلٍّ منا ألمه، وحزنه، وذكرياته التي لا يشاركه فيها أحد، ومهما بدا تأثُّر أحدنا بألم غيره، فإن ذلك التأثر لا يبرح أن يتلاشى بعد برهةٍ من الوقت، في حين يظل منغرساً في صاحبه، ربما مدى الحياة.

يرحل أناس، ويأتي آخرون. التفاصيل ذاتها تتكرر، كأننا نعيشها للمرة الثانية، والثالثة، واللانهائية من الألم.

... وتستمرّ الحكاية.

الفصل الرابع

لا أحد يكشف كذبتك كالذي يصدقك. وكلما كانت الكذبة كبيرة، كان اكتشافها مدوّياً.

الملك ليوبولد الثاني

6–5

الخسائر في الكونغو أكبر من المكاسب، وبدلاً من أن تدرّ عليّ المال أصبحتُ أنفق عليها، وأُقتِّر على نفسي، بينما أنا مضطرّ للاستمرار في التبرعات، وعمل الخير لإرضاء الكنيسة والناس.

أن تكون ملكاً من دون صلاحيات، مع برلمانٍ يختلف تفكيره عن تفكيرك، أشبه بأن تكون موظفاً يواصل العمل ليلاً ونهاراً، وصاحب العمل لا يرى كل ما يفعله، ولا يعرف إلا انتقاده، والتربص به لمحاسبته.

خمسة وعشرون عاماً مضت على حكمي بلجيكا، بذلت فيها كل جهدي للحصول على مستعمرة لا ينافسني على أملاكها أحد، وأجدني الآن عاجزاً عن إتمام ما بدأته، والمال بخزائني بدأ ينفد، والتنازلات التي قدمتها للدول، تقلل من أرباحي المنتظرة، وتجعل الكثير من الدول تشاركني نصيبي في الكونغو دون وجه حق.

ما كان لهذا أن يحدث لو أني كنت أملك صلاحيات مطلقة، لكنّ البرلمان الذي يقف في وجه كل عملٍ أحاول تنفيذه، يجعل الدول تنهش طموحاتي من كل جهة. لذلك قررت التحايل على البرلمان، وكما أوهمت الدول الطامعة بغنائم لن تحصل عليها، سيكون للبرلمان نصيبه من هذه الأوهام. هذا ما فعلته في الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين

لتنصيبي ملكاً، الذي كان فرصة ذهبية يجب استغلالها، وعدم تركها تمر دون تحقيق الأهداف المرجوة منها، أو بمعنى أدق عدم الصرف عليها دون أن تحمل معها أرباحاً، تماماً كما يجب على الضيوف إحضار هداياهم اللائقة بملك يحتفل بذكرى تنصيبه.

دعوت أهم رجال بلجيكا وأوروبا ورجال الكنيسة، كما دعوت ستانلي ليقيم في أفضل جناحٍ في القصر وعاملته كالملوك، فهو المستكشف العظيم الذي وصل لأماكن لم يسبقه إليها أحد، وكل ذلك برعاية مني أنا الملك المحب للخير ليوبولد الثاني، الذي استطاع إيصال الحضارة إلى الناس في أعماق غابات الكونغو.

الامتنان الذي شعر به ستانلي كان واضحاً في كلمته التي ألقاها، شاكراً طيبتي وتقديري، ومُثنياً على جهدي في تحرير أولئك الأفارقة المساكين من القيود التي ترزح تحت وطأتها أعناقهم، ويجرجرونها خلال سيرهم مُنكسي الرؤوس ذليلين، لا يقوون على رفعها من الألم والمهانة.

قبل نهاية الحفل، أعلنتُ عن وصيتي، التي تنازلت فيها عن الكونغو، لتصبح مُلكاً لبلجيكا بعد وفاتي. كان هذا الإعلان كالصاعقة التي ضربت الرؤوس، فلم تعد تميّز بين الوهم والحقيقة، وجعلت كل من في البرلمان يؤمنون بضرورة الوقوف معي ومساعدتي، وتمويلي لتحقيق ما أصبو إليه. كيف لا، وأنا الملك الطيب الذي يوصي بأملاكه لبلاده.

بعد الإعلان عن وصيتي تلك، تحدثت عن خط سكة الحديد الذي بدأتُ بإنشائه من مالي الخاص لتسهيل وصول مبشرينا وأطبائنا إلى أولئك القابعين في الظلام، ينهش أجسادهم المرض، ويحيط بهم تجار الرقيق العرب، فإن نجوا من الموت لم ينجوا من العبودية، مردداً بشيء من الحزن حاجتي لبعض المساعدة:

"أظن أن دفع بعض المبالغ البسيطة كجمارك لن يُكلِّف الدول شيئاً، إنها بذلك تمنحني العون لأكمل عمل الخير".

جميع قرارات مؤتمر برلين التي نصت على إمكانية عبور الدول والبضائع دون جمارك، أبطلها الاحتفال في بروكسل، بعد أن اجتمع أعضاء جمعية حماية الأجناس الأصلية، وانتخبوني رئيساً شرفياً للجمعية.

مشروع السكك الحديدية في الكونغو، هو الأمل الوحيد لوصول الكنوز دون خسائر من داخل الغابة إلى الميناء، فالطريق الذي يعبره حاملوها الآن، يُفقدني أكثر من نصف الحمولة والحمّالين في كل مرة. وبدلاً من وقوف البرلمان في وجهي كعادته، كانوا سنداً لي هذه المرة، بعد أن خدرتهم بوصيتي التي لا تعني شيئاً.

هكذا، التففت بدهائي على كل الجدران النامية في طريقي، وخلّفتُها ورائي، وأنا أضحك. فلتنمُ كما تشاء، ولتلحقني أينما ذهبت، فالمجال مفتوح دائماً للالتفاف حولها.

كش ملك!

وددتُ قولها لستانلي، بعد أن انتهى دوره، بدلاً من استمرار صرف راتبٍ له رغم عدم عمله أي شيء، لكني خشيت أن يبيع ما صرفتُ عليه من معلومات واكتشافات إلى البريطانيين خاصة، فاضطررت إلى تعيينه مستشاراً لي، ومنحته راتباً أضمن به بقائه معي، والحفاظ على أسراري في الكونغو.

بقِيَ ستانلي مستعداً للسفر في أيّ لحظة، لا عمل له إلا الانتظار، غداً، أو بعد غدٍ، أو ربما بعد عام، فلينتظر كما يشاء، أنا أعلم أني لن أبعثه، إذ لم أعد بحاجة لمستكشف بقدر حاجتي للمهندسين والمسّاحين والبنّائين. رغم ذلك، لا زال يحلم بالعودة، وكأن شيئاً

منه تركه هناك في أفريقيا وأتى دونه، ولكن المفاجأة التي حدثت كانت أشبه بمعجزةٍ لكلينا.

لا أعلم من المحظوظ أنا أم ستانلي، لكني أيقنت أن الحظَّ أحياناً هو من يبحث عن صاحبه. مهما ظننت أنك بعيد عنه، تجده يتبعك كظلك، كفقدان الباشا أمين، الألماني اليهودي الذي تُصاب بالدوار عندما تحاول التركيز في هويته الحقيقية، فمن إسحاق إدوارد شنيتسر الألماني إلى عامل لدى بريطانيا، قبل أن يتحول إلى أمين باشا لدى العرب، إلى طلبه من بريطانيا إنقاذه من العرب الذين يحاصرونه.

فرصة ذهبية أخرى لم تكن ضمن الخطة أبداً، جعلتني أمسك بخيوط اللعبة بأكملها من جديد. فالتجار مستعدون للتبرع أملاً في الوصول إلى خزائنه التي يتحدث عنها، والبريطانيون يخافون على مستعمرتهم هناك، والصحافة تبحث عن سبق، ولا أحد يملك مفاتيح أفريقيا إلا ستانلي، أما أنا فلم يكن بيدي إلا عقد عمله معي، والذي لا يمكنه السفر معه إلا بإذني، وشروطي. ولأني رجل طيب، لم يكن لي إلا شرطان اثنان لم أخبر بهما سواه لأسمح له بالسفر.

الأول هو السفر عبر الكونغو، واكتشاف غابة إيتوري، تلك التي توقف عندها في حملته السابقة، رغم أن هذا الطريق سيستغرق منه وقتاً أطول، وقد لا يتمكّن معه من الوصول إلى الباشا أمين في الوقت المناسب، إلا أن إنقاذه ليس بأهمية استكشاف الغابة بالنسبة إلي، خاصة أن الرحلة مدفوعة التكاليف، ولن أدفع مقابلها إلا راتب ستانلي الذي أدفعه سواء ذهب أو لم.

أما الشرط الثاني فليس إلا وضع الإقليم الذي يحكمه الباشا أمين الآن تحت الحماية البلجيكية، ورغم أني لم أكن بحاجة لأن أُخبر ستانلي بضرورة بقاء هذين الشرطين طي الكتمان، إلا أنني أخبرته بذلك من باب التأكيد عليه لئلا يتعثر لسانه بهما أمام أحد.

بعد موافقته على هذين الشرطين سافر ستانلي في حملةٍ استمرت ثلاث سنوات، وعاد في وقتٍ لم أهتم فيه بسؤاله عن انتصاره أو خسارته، وإنقاذ الباشا أمين من عدمه، وهو ما لم يكن مهماً لي من الأساس. كما أن ستانلي اعتاد الكذب في الحديث عن انتصاراته حتى ما عاد المرء يُفرّق بين صدقه وكذبه، ولا ما تخيّله أو صادفه حقيقة في رحلاته.

ما يهمني أن عودته كانت في الوقت المناسب الذي أتحضّر فيه لعقد اجتماع جمعية حماية الأجناس الأصلية، وسيكون للكلمة التي سيلقيها عن حمايتها لهم دور كبير في رضا الأعضاء عن طموحاتي، كما أنه عاد بخارطةٍ جديدةٍ لأرضٍ أُضيفت لأملاكي في الكونغو، أو – كما أحب تسميتها – الكونغو ليوبولد.

جورج واشنطن وليامز

2–1

السفينة في عرض النهر، وأنا على ظهرها، كمحاربٍ قديمٍ عاد من فتوحاته منتصراً، بينما الغابة تحفّه من الجانبين، بأشجارها العالية، وهضباتها المتفاوتة الارتفاع، كقلاعٍ شيّدتها الطبيعة لحماية الغابة من خطر مباغتتها من عدوّ لا تعلم من أين قد يظهر لها فجأة.

ولكن أيّ عدوّ قد يتجرأ على السطو على هذه البقعة الهادئة المسالمة؟

فكرتُ وأنا أجول ببصري في كل ذلك السحر الملتفّ حولي، لا أكاد أرى بشراً سوانا إلا فيما ندر، وللحظة خطر لي خاطرٌ بدا سخيفاً أكثر منه منطقياً: هل يُعقل أن البشر هنا يهربون منا، أو يتحاشون الالتقاء بنا؟!

لكني سرعان ما طردته، فلا يوجد ما يدعوهم إلى الهرب منا، لأننا لم نأتِ إلا لحياةٍ كريمةٍ تعمنا نحن وإياهم، إلا إن كان حظي السيئ يقف فوق رأسي، فيرونه، ويهربون منه، خشية أن يلحقهم.

ضحكتُ بصمت وأنا أتذكر حظي السيئ الذي لازمني طوال حياتي، وحتى اللحظة التي حزمت فيها حقيبتي، وأدخلت فيها كل ما أحتاجه لسفرٍ طويلٍ، أحقق فيه أحلامي التي لم أحقق منها شيئاً رغم سعيي الدائم لها. ورغم أنني كنت أصل حتى أكاد أقطف ثمرة

حلمي، فإنني ما إن أهمّ بقطفها، حتى تتلاشى من أمامي كأنها لم تكن، أو كأنها وهمٌ، أو سرابٌ تبعته حتى تلاشى.

أخذت قراري، وركبت السفينة متجهاً إلى وطنٍ يليق بأحلامي الكبيرة، والنبيلة، وطنٍ لم تنجح أميركا ولا أي بلدٍ آخر في العالم في أن تكونه، حتى سمعت عن بلدٍ اسمه الكونغو.

الكونغو، بلد السود الأحرار، وليس المحرَّرين، الذين لم يكونوا عبيداً في يومٍ ما، لا يحكمهم إلا واحد منهم، ولا يوجه أوامره إليهم سواه، لا سلطة للبيض عليهم، ولا يعاملونهم بعنصرية، إنهم هنا سواء، إن لم يتفوّق السود عليهم باعتبارهم أصحاب الأرض، ومالكي الثروات، وما هؤلاء إلا عاملون معهم، وباحثون عن كنوزهم ليمنحوهم إياها. ورغم غرابة الأمر، فإن الفضل في ذلك كله يعود لرجل أوروبي نبيل، أقرب إلى الملائكة منه للبشر، يُدعى الملك ليوبولد الثاني.

أحياناً يراودني الاستغراب ليطرد كل هذه الأحلام من مخيلتي، فكيف للأوروبي أن يتحمّل ألا تكون له سلطة على الرجل الأفريقي الأسود، وهو الذي اعتاد استعباده، وحتى بعد تحريره لم ينظر إليه إلا كعبد مُحرَّر لا أكثر، ولم يره حرّاً خالصاً أبداً؟ رغم كل القوانين التي سنّوها، ورغم المحاضرات التي أقمتها في أماكن عدة، عندما كنت قساً أو محامياً، أو عضواً في المجلس التشريعي لولاية أوهايو، ووجدت من خلالها أنصاراً لمنحنا حرياتنا، وحقوقنا الكاملة، لكنّنا كنا دائماً نصطدم مع الواقع الذي لا تمنحنا فيه أوروبا إلا الفُتات، كعملٍ بسيطٍ بأجرٍ قليلٍ، بلا منزلة اجتماعية كالتي يتنعّمون بها. حتى الزواج ما بيننا وبينهم حاربوه ومنعوه، ناظرين إلينا كطبقة أدنى منهم.

للسود في أميركا طفولةٌ متشابهة. لم أفرق عن غيري في شيء، لم أذهب إلى أيّ مدرسة، ولم أتعلم إلا الحلاقة، التي اختارها أبي لتكون وظيفتي المستقبلية، بأجرٍ زهيد يضمن لي الاستمرار في العيش كأميركي أسود. جُلّ ما يفعله الذهاب إلى العمل صباحاً، والعودة منه مساءً، يتناول طعامه، ويخلد إلى سريره، لتُنجب له زوجته أطفالاً يهبهم مصيره ذاته.

تركت منزل والديّ وأنا في الرابعة عشرة من عمري، وانضممتُ إلى الجيش الجمهوري بقيادة الجنرال سبينوزا رغم سني الصغير آنذاك، بعد أن نجحت في الحصول على ورقة مزورةٍ تمنحني عمراً يفوق عمري بأربع سنوات، ليُسمح لي بالانضمام للجيش. ورغم سني الصغير فإنّي لفتُّ نظر الجنرال، بعدما ذاعت سمعتي في الجيش كمدفعيّ يجيد إصابة أهدافه بدقة، ونجحت في الحصول على رتبة ملازم.

أشك أن أحداً لم ينتبه بالفعل لتزوير هويتي، ربما انتبهوا وكان من مصلحتهم انضمامي للمشاركة في الحرب ضد الإمبراطور ماسكيميليان إمبراطور المكسيك، شقيق إمبراطور النمسا، وزوج شقيقة الملك ليوبولد الثاني، كجندي زائد لا يهم إن بقي على قيد الحياة أو مات، فلا بد أن أحداً لن يسأل عنه. ولحسن الحظ أن الملك لم يعلم أني حاربت يوماً زوج شقيقته، وإلا لغضب مني، وربما منعني من السفر إلى الكونغو.

لا أود إهانة الملك والقول إنه لا يهتم بتاريخي، ولكني أظنه لم يعرف عن الأمر، أو ربما عرف ولم يُبدِ اهتماماً لأنه رجل عادل ومنصف، ولم يشأ محاسبتي على مشاركتي ضمن جيش بلدي في أي حرب، وإن كانت ضد زوج أخته.

عدت إلى أميركا، بعد الإطاحة بالإمبراطور ماسكيميليان، وواصلت حياتي العسكرية برتبة ملازم مدة خمس سنوات، ذهبت فيها إلى الإقليم الهندي ضمن فرقة المشاة العاشرة،

وعدت بعد إصابتي بذات الرئة، لأقبع في المستشفى مدة من الوقت، قبل أن يتم تسريحي من الجيش لأني لم أعد صالحاً للعمل فيه برئتي المتعبة والضعيفة، وأصبحتُ بلا عمل.

العمل العسكري لم يكن غايتي، لكنه كان وسيلتي للحصول على راتب جيد، ومنزلة اجتماعية تليق بطموحاتي، وبعد فشلي فيه جعلت التعليم هدفي الذي قررت تصويبه، لينتشلني من التنقّل من وظيفة إلى أخرى، ومن موتٍ أهرب منه في إحدى الحروب، إلى حرب أخرى تهبني له. ولأن التعليم العادي لم يكن مُجدياً في سني تلك، فقد انضممت إلى معهد نيوتن اللاهوتي لأصبح راعياً للكنيسة المعمدانية الثانية عشرة في بوسطن وأنا في الخامسة والعشرين، فأصبحت أول قس أميركي من أصل أفريقي.

مرة أخرى، اكتشفت أن عملي في الكنيسة لم يكن هو ما أبحث عنه، رغم أنني ناضلت من خلاله لمنح السود حقوقهم كاملة، ومساواتهم مع البيض في الوظائف، وتمكينهم من التزاوج مع البيض، لضمان التداخل الاجتماعي بينهم بشكل فعلي، ولكن ذلك كله لم يكن كافياً لأقنع به، ويهدأ ذلك الصوت الثائر في داخلي.

كنتُ أسمع هدير الموج، وكأن سفينةً بخارية تمخر عُباب البحر، ذاهبةً في اتجاهٍ لا أعلمه، اتجاهٍ سيهديني إليه الرب في يومٍ ما، ويجعلني أشكره عليه كما شكرته حين أسست صحيفة عامة الناس *The Commoner*، تلك التي لم يُكتب لها الاستمرار، ككل شيء أعمله، فاضطررت لإغلاقها بعد إصدار ثمانية أعدادٍ منها فقط.

لازمني الحظ السيئ أينما اتجهت، كأنه وُلِد معي، يتبعني كظلي، ومهما حاولت الهرب منه، أجده يسبقني حيثما ذهبت. لم يكن انتخابي في المجلس التشريعي لولاية أوهايو،

لأصبح أول أميركي أفريقي يصل إلى هذا المنصب، مختلفاً عما سواه من حظوظٍ أخرى أثبتت أنها ضحية حظي السيئ. فبعد دورةٍ واحدةٍ فقط وجدتني خارج المجلس.

يتلقى المرء منا صفعاتٍ لا حدَّ لها في هذه الحياة، لكنه بعد كل صفعة يصبح أقوى مما كان، وهكذا كنت بعد كل فشلٍ أجدني أجدِّف باحثاً عن حظي في اتجاهٍ آخر لا يشبه الذي سبقه.

أصبحت سفيراً مقيماً وقُنصلاً عامّاً لأميركا في هايتي، بأمر الرئيس تشستر آلان آرثر، كأنني في حلمٍ جميل، لم أكد أصدقه، حتى صحوت منه بعد أن ألغاه الرئيس غروفر كليفلاند، الأمر الذي لاقى ترحيباً من قِبل مجلس الشيوخ الأميركي ولجنة من وزارة الخارجية الأميركية، ارتأت أني غير مُهيأ لهذه المهمة التي لا يصلح لها رجلٌ صلبُ المراس وعنيدٌ مثلي.

بعد ذلك درست المحاماة، وعملت محامياً، ثم حانت الفرصة للاستفادة من تعلمي للفرنسية أثناء وجودي في الجيش الجمهوري حين عملت مندوباً في المؤتمر العالمي للبعثات الأجنبية في لندن، وما كدت أبتهج بنجاحي حتى صُدمت بفشلي في المشاركة في المؤتمر الدولي لمكافحة الرقيق الذي أُقيم في العاصمة البلجيكية بروكسل، برئاسة الملك ليوبولد الثاني، رغم أن مشاركتي في ذلك المؤتمر كانت أقصى ما تمنيت الوصول إليه في ذلك الوقت، ولكن هذا الأمر لم يكن ليسبب لي الإحباط.

لم أُولد في هذه الحياة لأفشل، إن ولادتي بحد ذاتها نجاحٌ أوّل لي، وهذا ما لا يُمكن لأحدٍ إنكاره. فبعد أن أجمع كل الأطباء أنني لن أخرج إلى هذه الحياة حيّاً، وجدتني أصارع من أجل البقاء رغم أنوفهم، وهكذا ولدت حيّاً وسط ذهول الجميع.

أسمتني أمي في بداية الأمر داي Die، ولكن أبي اعترض على اختيارها وأسماني سول Soul، في إشارة إلى أني كنت ميتاً وعدت للحياة، لكنهما تراجعا لاحقا لحسن الحظ، وأسمياني جورج واشنطن، نسبة إلى أول رئيس للولايات المتحدة، وأحد المؤسسين لها بعد التمرد الذي قاده، والذي انفصلت بسببه عن بريطانيا. لم يكن هذا الاسم إلا استبشاراً بتمردي الأول على الموت، ولم يتخيلا أن يلاحقني قدره طوال عمري، وأنني سأكون محارباً حتى اللحظة الأخيرة من حياتي.

عدم مشاركتي في مؤتمر بروكسل لم يمنعني من المثابرة للالتقاء بذلك الملك العظيم، الذي يكافح من أجل حقوق السود المظلومين في بقعة غائرة في قلب العالم، وبعد مقابلته تأكدت أنني لم أولد لأستمر في الحياة داخل أميركا، وأن على أميركا أن تُرسل جميع الأميركيين من أصول أفريقية إلى الكونغو للعمل، لأن الحياة هناك تنتظرهم، حيث الكونغو الحرة، والبعيدة تماماً عن الرق، والعبودية، والتفرقة. لكن الحكومة الأميركية ارتأت أن أسافر إلى هناك أولاً، وأعد تقريراً مُفصلاً عن الأوضاع، قبل أن تقرر إرسال مواطنيها، لأنها إن قررت قبل اتضاح الصورة كاملة أمامها، فإنها تجازف بالزج بهم في ظروفٍ لا تبدو واضحة لها تماماً.

أُلغيَت العبودية في أميركا قبل ولادتي، لكني ما زلت أشعر أني لست حرّاً بشكلٍ كامل، وما زال لوني يفرض حضوره أينما ذهبت. فأنا في نظر الأميركيين لست إلا أميركيّاً أسود، وهكذا فإن وجودي في بلادٍ جميع سكانها وقيادتها من السود هو أقصى ما أطمح له، وها أنا الآن أقترب من حلمي، وأراه يتدلى أمامي كثمرةٍ ناضجة وجب قطفها والتلذذ بطعمها الشهي.

النهر العابر لدولة الكونغو الحرة، والذي نعبره الآن مطمئنين لهدوئه، في طريقنا نحو الباب الأرضي للجنة، أو الأرض الموعودة للأفارقة، والتي سيأتيها السود المهجّرين من كل أنحاء العالم، تعبره الآن سفنٌ أغلبها لدول أوروبية تدفع لتمر من خلاله، للمساهمة في تعمير هذه البلاد، لكن الغريب أننا لا نكاد نلمح رجلا من هذه البلاد على ظهور هذه المراكب إلا فيما ندر.

ما أجملها من بلاد!

ردّد قلبي بخفقان سريع وأنا أتأمل البلاد التي سأحطُّ على أرضها كطائرٍ وصل عشه بعد سفرٍ طويل، أحلم بما سأكونه فيها، وما سأمتهنه بعد توطيد علاقتي مع حاكمها هنا، أفكر في كل الفرص الممكنة: قِسّ، محامي، صحافي، كاتب، وزير، سفير. تتنافس المهن في رأسي أيها الأحق بتولّيه، ولا يهدأ بالي إلا عندما أتخيّل كل الأميركيين السود وقد شدوا الرحال إلى هذه الأرض.

أخذتني ضحكات اثنين من رجال الملك ليوبولد من غمرة تفكيري، وهما يتراهنان أيهما سيُصيب الرجل قبل صاحبه، ودون إهدار الكثير من الطلقات. تلفّتُّ باحثاً عن الرجل الذي يقصدونه، مستغرباً من ضحكاتهم، فليس في القتل ما يبعث على الضحك، ولو كان الميت عدواً، يحاول إفشال مخططات الملك ليوبولد الثاني، الداعية إلى كونغو حرّ، يعمّه الخير والسلام. وقبل أن أتعمق في تأملاتي انتبهت أنه يفترض ألا يكون لديهم هنا أي أعداء، فهؤلاء هم من أحضروا الحضارة إلى هذه الأرض، ورسموا الطرق، وأنشؤوا سكك الحديد للربط بين الأقاليم المختلفة فيها، وهم من خلّصوهم من تجارة الرقيق التي لم

تُفرّق بين كبيرٍ وصغير، ولا رجلٍ أو امرأة، ولم تُبقِ أحداً لم تنتهك راحته، وطمأنينته، وهم من سيجعلون هذا البلد ندّاً للدول العظمى في أوروبا.

لم أصدّق عيني حين اكتشفت أن عدوهم الذي يتراهنون على قتله لم يكن إلا صياداً كونغوليّاً يعبر مركبه النهر، باحثاً عن قوتِ يومه، لا يحمل سلاحاً في يده، إلا شبكة صيدٍ يحلم بامتلائها بما يسدُّ به جوع عائلته، غير شاعرٍ بالأعين التي تلقّفته من بعيد، كعقابٍ ظلّ يتربّص بصيده من السماء، ثم باغته وهو آمنٌ مطمئن، وانقضّ عليه دون أن يمنحه فرصة استيعاب ما حدث.

ثلاث طلقات أردت الرجل في النهر ميتاً، بينما جلس الرجلان يكملان الحديث عن الكمية التي يرغبان في شرائها من العاج، وتلك التي لم تتوفر حتى الآن، وما إذا كانت ستتوفر لهما بالثمن الذي يناسبهما، أم سيضطران للاستيلاء عليها بالقوة، دون مقابل، مع تمنيهما أن يحدث ذلك، فهو أنسب لهما، لأنهما بذلك سيضمنان حصولهما على مكسب أكبر عند بيعه بسبب عدم دفعهما أي مبلغ لشرائه.

تحدّثا عن احتمال عودتهما إلى بلادهما، أو إكمال حياتهما هنا، بعد أن يبعث الأول إلى عائلته للمجيء، في حين قرر الآخر أن يبعث بطلبٍ إلى إحدى المؤسسات التي بدأت مؤخراً في توفير زوجاتٍ بحسب المواصفات المطلوبة، وإرسالها إلى مكان زوجها، دون أن يضطر للسفر لاختيارها، أو حتى رؤيتها.

"إن ذلك يعتمد على الأوضاع هنا كيف ستكون في قادم الوقت"

هكذا أنهى الأول الحديث، بينما كنت غارقاً في صدمتي، غير قادرٍ على استيعاب ما حدث.

لا بد أن ما رأيته مجرد حلمٍ سأصحو منه. لا يمكن لهذا الأمر أن يكون حقيقة في بلد كالكونغو. اختنقت وأنا أدير رأسي نحو المركب الخالي، المتأرجح حسرةً على صاحبه الطافي بجواره، تحيط به بقعة دمٍ تتمدد حوله، وتعانقه محاولة حمايته من الماء، كأنها تواسيه، أو تعتذر منه، بعد أن عبرناه، وتجاوزناه دون أن يلتفت سواي، وكأنهم اعتادوا رؤية مثل هذه المواقف حتى ما عادوا يستغربونها أو تلفت انتباههم.

كنت أفكر في حظي السيئ وأود لو كان رجلا يقف أمامي، فأخرج له لساني وأنا أطرده من حياتي إلى الأبد، لكنّ ما حدث عكس ما توقعت، وها هو يقف أمامي، ويخرج لي لسانه الطويل جدا، ويقهقه عالياً قبل أن يضربني به على قفاي، ويسقطني على وجهي، لأنتبه على الحقيقة، حقيقة الكونغو التي لم تسعفني أسوأ توقعاتي على تخيّلها.

ظلت عيناي متسعتين عن آخرهما، ولم يرمش لهما جفن، وأنا أحاول تكذيب ما رأيته، أو إقناعي بأنه مجرد حلم سأستيقظ منه في أية لحظة، وأتساءل: هل هذه هي البلد التي سمعت عنها حتى أصابني هوس الهجرة إليها، أم أنني في مكانٍ ما من العالم لا أعرفه، مكانٍ قد لا يكون إلا بؤرة الشيطان التي ذُكرت في الأساطير، تلك التي لا يعود منها من يمر عبرها؟

ليون روم

2–1

المشنقة منصوبة، ليراها كل من يمر، ويتخيّل جسده مترنّحا، قبل أن أنزله، وأهبه رصاصة الرحمة التي تُطمئِن قلبي لموته، آمراً رفاقه بتعليقة من جديد على المشنقة، وتركه ليتدلّى منها، حتى لا ألوث يدي بلمس أجسادهم النتنة. من يتردد في تنفيذ ما يُطلب منه، يصبح صاحب الدور التالي الشاغر على حبل المشنقة، رغم أنه سينتظر طويلاً لكثرة المنتظرين أدوارهم، وخلال فترة الانتظار تلك سيتذوق بعض فنون التعذيب التي يطيب لي ممارستها.

هؤلاء السود لا يفهمون إلا لغة الضرب والقتل، لذلك كلما ضربت أحدهم أخرست الآخر، وكلما قتلت رجلاً ضمنت استسلام أفراد أسرته. بهذا المبدأ استطعت السيطرة على كل الثورات التي كانت تحدث بين فترةٍ وأخرى.

في فترة من الفترات نصبت مشنقتين، واحدة على يمين الباب، والثانية على يساره، لأتمكن من استيعاب أعداد المشنوقين المتزايدة باستمرار، وقد بدا المنظر مهيباً، برجُلين عاريين متدليين كملكين هابطين من السماء.

أجلس في شرفة الطابق العلوي في منزلي المكون من طابقين مصنوعين من الخشب، وأتأمل تلك الأجساد التي فقدت لمعانها، بينما يزداد لمعان جسدي تحت أيادي النسوة

اللواتي اتخذتهن كخليلات عقب خطفهن من قبائلهن، تمسح إحداهن ظهري بزيت اللوز، بينما تُدلِّك اثنتان قدميّ المتعبتين من الوقوف طويلاً.

رؤية الجثث المعلقة يُريح بصري، يجعل برعم نشوة يتفتح في صدري، لذلك أترك تلك الجثث مُعلّقة يومين كاملين، أبصقُ عليها، أو أركلها برجلي كلما مررتُ بها، فإذا أثارت تقززي، بعد أن يتكاثر حولها البعوض والذباب، وبدأت رائحتها في الانتشار، وخشية أن تأتي تلك الحشرات لي بالأمراض، أمرت بأخذها ورميها في النهر طعاماً للتماسيح المنتظرة.

اعتادت تلك التماسيح على الكسل، فما يأتيها من الشاطئ أكثر مما حلمت بنيله طوال حياتها من ملاحقتها لصيدها، حتى أصيبت بالتخمة، ولم تعد قادرة على السير بسرعة. لا يشعر التمساح الغافل عن رزقه إلا بذاك الجسد المتعفن المرمى على الشاطئ بانتظاره ليخلصه من الذباب الحائم حوله، يمصُّ دسمه، ويُقلق غفوته الأخيرة بأزيزه المزعج، قبل أن يتشاركه معه.

العيش في الكونغو يمنح المرء القدرة على التأقلم مع كل شيء، فأنت تُصدر قراراً بإعدامِ شخصٍ سرق فُتات طعام ليسد رمق عائلته، قبل أن يموت أفرادها جوعاً، وأنت تتناول إفطارك الفاخر، ثم تنفذ فيه حكم الإعدام بعد عدة ساعات، وتذهب لمنزلك لتناول غدائك الذي أعده لك الشخص ذاته الذي أعدمته، تحت تأثير الضرب، وأحياناً تُطلق رصاصتك بينما يذوب في فمك الوافل الطري المجلوب من بلجيكا.

انطفأ إحساسي بالتوتر الذي كان يلازمني منذ طفولتي، واختفت تلك الهزة المستمرة من ساقيّ، والفضل كله للشيكوت، هذه الأداة العظيمة، بأثرها الذي يفوق أثر البندقية، لأنها تقتل من يزعجني، بعد أن أُنفّس عن غضبي منه، واحتقاري له، في حين أن البندقية

وحدها تُبقي النار بداخلي، تقتات على نبضات قلبي المتّقدة، دون أن تُطفئها لأنها تقتل الرجل بمنتهى السهولة.

مئة ضربة كافية لتزهق روح المضروب، بعد أن أُفرّغ كل ما استقر بداخلي من ضيقٍ وغضب، ولا أكاد أهدأ حتى أجد روحه أيضاً قد هدأت، وهربت بعيداً من ضربات الشيكوت، ذلك السوط المصنوع من جلد فرس النهر، أقوى جلدٍ من جلود الحيوانات، بعد قصه بشكلٍ مسنن من الجانبين، مما يجعل كل ضربةٍ تُتوّج بجراحٍ تترك آثارها مدى الحياة على جسد المضروب، الذي يبدأ بالصراخ، وما يلبث أن يهدأ صوته، ليتحوّل إلى أنّات لا تكاد تُسمع، قبل أن يصمت تماماً.

الفضل كله يرجع للضابط شيكو، الذي اتسعت عيناه، وضحك كثيراً للفكرة التي لمعت في رأسه عندما لاحظ صعوبة تقطيع جلد فرس النهر رغم خفة وزنه، وبدأ بتنفيذها، وحين رأى جنده السوط في يده لأول مرة استغربوه، وعندما سألوه عنه، أخبرهم أنه شيكوت، وشيئاً فشيئاً أصبح أهم أداة يحملها جنوده في أحزمتهم.

كل طرق العقاب هذه كانت مُباحة لرؤساء القبائل الذين اعتادوا على استعباد أفراد قبائلهم. أنا لم أبتكر شيئاً من رأسي، ولم أضف إلا استعباد رؤساء القبائل كأفرادها تماماً من باب المساواة بينهم، ولأذيقهم بعض ما أذاقوه الآخرين قبل أن تطأ قدمِي أرض الكونغو، وأحقق العدالة التي تُرضي عنا السماء.

لم يبعثنا الملك ليوبولد الثاني إلى هنا لنحارب، لقد أتينا لتهدئة الأوضاع بين القبائل المتحاربة، ولهذا انقسمت القبائل بعد مجيئنا بحسب مصالحها. فالقبيلة التي وجدت مصلحتها في التضامن معنا انضمت إلينا، ومن خشيت على مصالحها من وجودنا

حاربتنا، واضطررنا لإخماد ثوراتها المتكررة، مما اضطرنا في أحيانٍ كثيرة لزيادة القتل لإخافة القبائل الأخرى التي تفكر في الثورة، أو السطو على مخازننا، وذخيرتنا، أو حتى الاعتراض على المهمّات التي تُطلب منها.

نتفوق على السكان بالسلاح الذي نمتلكه، وتُحسب أعدادهم الهائلة لصالحهم ضدنا، ورغم ذلك نجحنا في تجنيد الكثير من القبائل وأفراداً آخرين كانوا يأتون من زنجبار للانضمام إلينا مقابل مبلغ نقدي بسيط، وحتى هؤلاء أصبحوا مع الوقت يعملون بالسُّخرة لدينا. هكذا استطعنا المحافظة على الأوروبيين، ولم يعد لهم من دور سوى الإشراف على الأقاليم التي نؤسسها، أو كضبّاط قياديين في جيشٍ من الأفارقة المرتَزقة.

في صغري لم أتخيل أن أصل إلى ما وصلت إليه الآن، فاليوم الذي أحصل فيه على الطعام، أدّخر جزءاً منه لغدي، لأني أعلم أني إن لم أفعلها، فلن أحصل على أيّ وجبة في الغد.

يعمل أبي في حمل الأمتعة في الميناء. أحياناً يجد ما يُقيم به أجسادنا الهزيلة، وأحياناً لا يجد، فيعود حاملاً ضعفه، ويأسه، وانكساره، ولا يجد ما يقدمه لنا نحن الأفواه التسعة التي تنتظره سوى غضبه، ولسعات كفه التي لا تقل قسوة عن الشيكوت، لذلك لم آكل يوماً وجبتي كاملة، حتى لا أضطر للوقوف أمام أبي حين ينادينا بمكر:

"تعالوا يا صغاري، أيّكم يرغب في تناول العشاء مع أبيه؟"

فيركض أخوتي ليتلقّفهم لسانه قبل يده، ولا يسمح لأحدهم بالرجوع إلى حيث نتكدّس فوق بعضنا قبل أن ينال كل منهم ما يستحقه من عقاب على فشله في الحصول على بضاعةٍ ينقلها من السفن الواقفة إلى المخازن، أو العكس، وكأننا نحن المسؤولون عن ذلك.

كان أبي يأكل كل العشاء الذي أعدته أمي، وهي تعلم أنه لن يكفينا، فيتناوله وحده ثم يخلد للنوم، تاركاً أجسادنا تتلوّى من الجوع، وأيادينا تمسح على أثر الضربات فيها، دون أن يتجرأ أحدنا على سؤال صاحبه إن كان يشعر بالألم. فما يشعر به هو كافٍ للإجابة.

تساءلتُ دوماً لماذا أنجبنا ما دام لا يحبنا، ولم أجد إجابةً سوى أنه كان يُنجبنا الواحد تلو الآخر، ليُنفِّس عن غضبه من الحياة، التي لم تأتِ له بما يشتهي، حتى وجدنا فجأة وقد أصبحنا تسعة أفواهٍ تشاركه اللقمة، وأمي عاشرنا.

لم أحصل إلا على القليل من التعليم بحكم وضعي الأسري؛ فانخرطت في الجيش، وكنت حينها في السادسة عشرة من عمري، قبل أن أنتقل لأعمل كاتباً في الجمارك، ومراقبة واردات الدولة، مما أسعد أبي الذي طمح إلى توفير عملٍ له من خلالي، لكنه صُدم حين لم أفعلها.

لم يفهم أبي أني كنت أخجل منه، ولا أكرهه كما كان يدّعي، كما لم يكن من الممكن التضحية بمستقبلي الذي أطمح له، من أجل تصفية حساباته مع تجار الميناء المقيمين فيه، أو أولئك العابرين منهم، أو حتى الساكنين ظهر سفنهم.

لا يمكن وصف غضب أبي عندما علم بقرار سفري إلى الكونغو، لأنه كان يأمل في راتبي ليُقيم به عثرته، ويعوّض به الدخل الذي لم يعد يحصل عليه، بعد أن أصبح مدمناً على الخمر. لكني لم أسمح له بذلك، فقررت السفر، وبينما كنت أبتعد عن المنزل، كنت أسمع صوته الغاضب خلفي.

"لا تعُد إلى هنا، لأنك إن عدت فسأقتلك أيها الولد العاق"

لم أعد إلى بلجيكا، ولم أسأل عن أبي منذ ذلك اليوم، لكني كنت بين فترةٍ وأخرى أبعث لأمي بعض المال، لتصرف على أخوتي الصغار، ولتكافح معهم طعم الجوع المر، ذاك الذي كنت أظل أتذوّقه في فمي طوال الليل حتى تخطفني الغفوة منه، وحين أستيقظ أجد فمي جافّاً من كثرة الانتظار.

بلا عنوانٍ يمكنهم من خلاله مراسلتي، أو معرفة أخباري، أبعث معونتي التي أعلم أنها بالكاد تحميهم من الموت جوعاً، وما إن توقّعت عمل أخويّ اللذين يلياني في العمر، حتى توقفت عن إرسال المال، تاركاً أمي لمصيرها، تواجهه مع أفراد أسرتها الكبيرة.

لا يمكنني تحمل مسؤولية أخطاء أبي، ودفع ثمنها طوال حياتي. يكفي ما دفعته حتى الآن من ليالٍ نمت فيها والجوع رفيقي، وتلك التي تبوّلت فيها في ملابسي، وأنا أراه يضرب أخوتي كأنه يعاقبهم لأنهم استسلموا لرغباته، وأتوا إلى الحياة. لا يستثني منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا صبياً ولا بنتاً، بلا ذنبٍ سوى الجوع الذي لم ينجح هو في إشباعه، بينما ظلّ يُشبع رغباته لتلد أمي ثلاثة أطفالٍ آخرين بعد رحيلي.

لم أشعر يوماً بالشوقِ إلى مونس، حيث ولدت، ولا أذكر شيئاً عن رفاق طفولتي، لأنني لم أمتلك يوماً رفاقاً ألعب معهم. لم أجرب متعة اللعب، ولا الضحك بصوتٍ عالٍ. كنت أخاف أن يأتي فجأة، وينتشلني من بينهم، ويأخذني إلى غرفة الضرب في البيت، الغرفة ذاتها التي يتناول فيها عشاءه بعد تفريقنا من أمامه، والتأكد من إغلاق باب الغرفة الوحيدة التي تضم أجسادنا المبرحة.

الجوع الذي تعلمته جيداً، حتى حفظت كل تفاصيله، وما يفعله بنا بمنتهى الهدوء، جرّبته على قبائل الكونغو التي عملت تحت إمرتي. يومان أو ثلاثة أيام من الحرمان من

الطعام تجعل الأطفال لا يتوقفون عن البكاء، والأمهات عاجزات عن فعل شيء لأجلهم. حتى الحليب في أثدائهن يجف، مما يجعل الرجال يخرّون راكعين عند قدميّ طلباً لرضايَ، راغبين بلقمةٍ يُسكتون بها بطون أطفالهم قبل نسائهم وأنفسهم.

قد يحتمل الإنسان الضّرب لكنه لا يحتمل الجوع، فإذا أردت أن تحكم إنساناً جوِّعه، حتى يركع عند قدميك ذليلاً وتطعمه ما يسدُّ به جوعه، ولو كان جُرذاً نافقاً.

بقدر ما ساعد الجوع على إخضاع القبائل، سهّل العمل بمبدأ فرّق تسُد مهمتي في الكونغو، إذ كانت القبائل على استعداد لأن تُقاتل بعضها، من أجل مبلغٍ قد أصرفه على زجاجة كحولٍ واحدة أُحضرت من بلجيكا، أو أخرى أرخص منها حُضّرت من ثمار نخيل الرافيا التي يُخمرها السكان لتصبح كحولاً رخيصاً يمكن للجند احتساؤه، وأشربه أحيانا من باب الفضول، وتغيير الطعم الذي اعتدت عليه، أو بعض قطعٍ من الأقمشة، أو سيادة كاذبة أمنحها لإحدى القبائل حتى أحصل على ما أريده منها، ثم أقذفها لقمةً سائغةً لفمِ قبيلةٍ أخرى، تستطيع منحي سطوةً أكبر من سابقتها.

ألقي نظرة خاطفة على حديقتي فلا أملك إلا إطالة النظر. منظر الرؤوس المعلّقة كمصابيح إنارة مُطفأة على امتداد سور حديقتي من أكثر المناظر التي تفتح شهيتي للقتل، وتزيد من رغبتي باستبدالها بأخرى جديدة. قُطعت تلك الرؤوس كعقابٍ لذنوبٍ تفاوتت أحجامها، من سرقة، وهروب من العمل، أو امتناع عن دفع الضرائب، أو عجزٍ عن العمل، أما من يقتل فله عقاب آخر غير الموت، وهو عقاب نادراً ما ألجأ إليه لأن أحداً لا يتجرأ على القتل هنا إلا في الثورات التي تحدث، ولعل حرق أفراد أسرة القاتل، أو تقطيعهم أحياء أمامه أكثر تلك العقوبات إمتاعاً لي. وأخيراً يقوم جندي بتقييده وإهدائه

لكلابي المخلصة لتتسلى بتقطيع لحمه القاسي، مكملاً متعتي بمشاهدته بينما تتناوب أيادي الفاتنات على تدليل جسدي المنهك ليسترخي قليلاً.

أما المارة من الكنغوليين فلا يسترعي منظر تلك الرؤوس انتباههم لأنهم اعتادوا رؤية الرؤوس المقطوعة المعلّقة على أسِنّة الرماح أمام الأكواخ، أو حول حدود القرى. فكلما ازداد عدد الرؤوس المعلّقة أشار ذلك لقوة القرية، حتى أصبح يُرمز لقوى القبائل بعدد الرؤوس المعلقة حول حدود قراها. لا تفرق هذه الرؤوس عن تلك إلا في أن الرؤوس المعلقة حول سور حديقتي لم تُحصد في أيّ حرب كما حال الرؤوس المعلقة حول حدود القرى.

تعمّدت عند وصولي إلى الكونغو القتل لأتفه الأسباب، وتعليق الرؤوس ليس حول سور حديقتي فحسب، بل في كل المحطات التي أصبحت تحت نطاق سيطرتي، بعد ترقيتي إلى مسؤول عن كل المحطات في مقاطعة ماتادي، مما جعل مجرد ذكر اسمي يجعل أقسى الرجال يفر من مواجهتي. فإذا ما اضطر للوقوف أمامي خرّ متوسلاً كي لا أقتله وأفراد عائلته، وغالباً ما تضيع هذه التوسلات هباءً؛ لأن الرحمة ضعف، والتنازل ولو لمرة واحدة يجعلهم يحسنون الظن بي، ويتوقعون أني قد أرحمهم في المرات التالية.

الناس هنا حمقى، ومضحكون، يؤمنون بأشياء غريبة لا يصدقها عقل، ولكن هذا الأمر يسليني، ويدفعني أحيانا لمجاراتهم. من أكثر الأمور التي أثارت ضحكي، واستفزتني، ما كانت تؤمن به قبيلة كوبا التي كانت تعبد صنماً، تدّعي أنه يحول رصاصاتنا إلى ماء، فأردت أن أتأكد من الأمر بنفسي، ولكن يبدو أن صنمهم لم يقم بمهمته التي صنع من أجلها، فمات أغلب من في القرية.

لا يمكنهم لومي على قتلهم، فقد حاولت كثيراً اختبار أفكارهم للاستفادة منها، مما جعلني أخسر الكثير من الرصاص، الواحدة تلو الأخرى، العشرات من الرصاص، ثم المئات منها، لكن واحدةً منها لم تتحول إلى ماء، ولا زلت أفكر في احتمال أن الرجل الأبيض الذي تتحول رصاصاته إلى ماء، قد يكون موجودا في مكانٍ ما في الكونغو، ولكنه بالتأكيد لم يكن أنا.

ما أحبه أكثر من القتل، السطو على الممتلكات، ومن ضمنها الأراضي، لذلك ستانلي فولز Stanley Falls وحدها لم تكن كافية، فأنا لم آتِ إلى هنا لأحكم مدينة واحدة فقط، وإن احتوت لوحدها سبعة شلالات أعظمها ذلك الشلال الذي تستشعر هيبته عند تأمله، والذي يسمونه موسي أوا تونيا، ولذلك بذلتُ كل جهدي لأترقّى، وأصل إلى الاستحواذ على محافظة ماتادي بالكامل.

تحمل هذه الشلالات اسم ستانلي، وكم أغبطه على ذلك، رغم أن ذلك المسكين لم يتمكن من أخذ شيء من ثروات هذا البلد لنفسه. فقد كان يعمل طوال الوقت في الاستكشاف حتى نسي نفسه، ممهداً الطريق لي لأكمل ما بدأه، فكان له المجد، حيث ترك اسمه في العديد من الأماكن التي لم يصل إليها أحد قبله، ولي المال الذي حصدته من بعده، مرسلاً الجزء الأكبر منه للملك ليوبولد الثاني، بعد أن أخبئ في خزائني التي أنشأتها تحديداً لكنوزي ما أستحقه نظير جهدي، لآخذه معي قبل رحيلي، وإن كنت أشعر أنني أفضل البقاء هنا، وجمع الكنوز طوال حياتي، على ترك هذا المكان المليء بالثروات من ألماسٍ، وذهب، وعاج، وأحجار كريمة، وما لا يمكنني وصفه، وعدّه من الكنوز التي يعجز أهلها عن حملِها، ورغم ذلك يحملونها وهم مقيدون بالسلاسل إن لم يتمكنوا من حملها من

دونها، وتحت تأثير الشيكوت، إن فكروا بالتمرد. يحملونها ولا ينالهم منها إلا ثقلها الكامن فوق أكتافهم.

"بكل الأحوال هم لم يهتموا يوماً بتلك الكنوز، ولم يحاولوا من قبلنا الاستفادة منها، أو على الأقل خطفها من أيدينا بعد استيلائنا عليها"

أردد بصوتٍ عالٍ، وأنا أفكر في مئات الآلاف من الأفارقة الذين يعملون تحت إمرتي. فرغم عددهم الكبير لكنّهم نادرا ما يفكرون في الثورة، أو الاعتراض على ما يُسند إليهم من أعمال، كأنهم ما خُلقوا إلا ليكونوا أتباعاً.

السود مستسلمون بطبيعتهم، ولا يمكنهم العمل إلا إن قادهم أحد، وقام بتوجيههم، ونادرا ما تسكن أحدهم روح القيادة، وإن وجدت فما أسهل إخمادها برصاصةٍ واحدة. ولأعترف أنني لا أحب إهدار الرصاص عليهم، فهؤلاء البشر – إن صح نسبهم إلى البشر – جبناء، يكفي أن تقتل واحداً ليركع أمامك ألف، أو يكفي أن تحرم طفلاً من الطعام لتجثو قبيلة بأكملها على ركبتيها، وتلعق قدميك إن شئت من أجل منحه كسرة خبز يابسة.

لم يسألني أحدٌ من قبل إن كنت أفعل الصواب، أو ما يُمليه عليّ عملي، أو إن كان الملك يعرف بما أفعله أم لا. لا قوانين لأتبعها، إنني فقط أعمل وفق ما أراه مناسباً، وأعني بمناسبٍ ما يجعلني أحقق مكاسب تقترن باسمي، سواء كانت هذه المكاسب شخصية، أو لوطني بلجيكا، عفواً، أقصد خزائن الملك ليوبولد الثاني، حيث أُرسل الثروات التي نحصل عليها، بعد خصم حصتي منها.

يساعدني على أداء مهامي القليل من البيض ممن أتوا من بلجيكا أو عموم أوروبا، الذين يأتون إلى هنا طامعين. لم أتعرف إلى أوروبي واحد لم يأتِ من أجل المال، عدا أولئك الآتين ضمن إرساليات تبشيرية. أما من يأتون للعمل في جيش الملك، فعادة يكونون من العسكريين الباحثين عن المال والترقيات السريعة، لأن الضابط هنا يستلم راتباً مُضاعفاً أربع مرات، وقد يحصل على ترقية كل عام إن أثبت وجوده، وأحيانا دون أن يثبت إلا ولاءه، أو أولئك المدمنين اليائسين من الحياة، والحالمين بفرصةٍ أخرى، وثرواتٍ تنهمر عليهم من السماء.

بينغا

6–5

كذبابةٍ لعينةٍ يحوم في رأسي، ولا إجابة تقنصه، فيتوقف عن العبث معي. يوماً بعد يوم، وعاماً يتلوه عام، وطنينه يكاد يثقب عقلي كلما وضعت جسدي على السرير، وحاولت الاستسلام للنوم:

لماذا خُلق الموت؟

عشر سنوات مضت، وأكثر، وأنا عالقٌ في تلك اللحظة التي عدت فيها من رحلة صيدنا الأخيرة في غابة إيتوري. لم تكن تلك المرة الأولى التي أصادف بها الموت، فقد رأيته عشرات المرات من قبل، لكنها المرة الأولى التي يتجرأ فيها على مواجهتي، والبصق في وجهي، قبل أن يمضي وهو يهز خصره السمين أمامي دون أن أتمكن من الركض خلفه، والعودة بأحبتي المتدلّين من يديه دون حِراك.

ماذا لو وضِعَ في السجن إلى أن يكبر الصغار، أو قُيّدتْ يداه ليتركنا نحيا بسلام. لو أنه لم يُخلق بشعا إلى هذا الحد، أو لم يُخلق من الأساس؟

أكثر من عشر سنواتٍ والتساؤلات تقرض رأسي، كما يقرض جرذ عنيد جذع شجرةٍ مُعمّرة، وكلما حاولت القبض على فكرةٍ ما، تسللت من بين أصابعي بخفة غزالةٍ أجفلها سهم كاد أن يستقر في جسدها الفتيّ.

أحاولُ النسيان، أتهجأه حرفاً حرفاً، أتمنى لو أنه كان رجلاً يمكنني الوثوق به حين يهمس في أذني: ستنسى، أو فعلاً طيباً أفعله وأنا مبتسم، أو حتى جريمةً أرتكبها بمنتهى الإصرار، دون خوفٍ من عقوبة تنتظرني، لكنه يأبى إلا الهرب من أمامي كلما صادفته وجهاً لوجه وأنا أفتش عنه لأطعمه شيئاً من ذكرياتي، كذلك اليوم الذي هوى به أحد الضباط بسكينٍ حادّ وطويلٍ في يده، على غصن كرمة المطاط، فقطع الغصن، والسلة، والرأس أسفلها انشطرت إلى نصفين، مُفجّراً الدم والمطاط، ليختلطا ببعضهما، ويتحوّل المطاط إلى حِممٍ ناريةٍ تجري على الأرض.

"هكذا يُجمع المطاط".

قال وهو يوجّه سكينه نحونا بينما استعدت بنادق جنوده لإخماد أيّ صرخة، أو ردة فعلٍ لا تروق له قد تصدر من أحدنا. يبتسم لصمتنا الذي يعتبره خوفا، ولا يعلم أننا اعتدنا رؤية الموت حتى أصبح شيئاً عادياً، كالاغتصاب، وبتر الأطراف، والتجويع، والضرب، والقيد، وكل شيء يحدث كأنه لا شيء أبداً، لذلك نُكمل أعمالنا كأنَّ شيئاً لم يحدث، إنها الحياة التي تستمر رغم أنف الموت.

قطرة تلو قطرة، كأعينٍ لا تكف عن ذرف الدموع، ينزل المطاط في السلال المجدولة من نباتات ليانا التي اعتادت أغصانها احتضان كل الأغصان التي تقابلها؛ حتى إذا ما حوّلِت إلى سلال يعانق فيها كل غصنٍ صاحبه، اطمأنت لكل ذلك التقارب بين أغصانها اللينة، واستراحت وهي تتلقف المطاط فوق رؤوسنا تارةً، وبين أيادينا المرفوعة عن آخرها تارةً أخرى، دون أن تشعر بالتنمل الذي يصيب أيدينا وأرجلنا، ويكاد يسقطنا من طول

الوقوف، رغم تغييرنا المستمر لطريقة وقوفنا، حتى إننا كنا نقف أحياناً على قدمٍ واحدة، بينما نرفع الأخرى لنُريحها.

أنسلُّ من السرير الكبير على جسدي، كطفلٍ مشردٍ أنام على الأرض، أتكوّر على نفسي، وأتخيل الشوارع، وأقدام المارة التي لا تنتبه لوجودي، أصوات الباعة المتجولين وعربات الإسعاف المارقة بسرعة، أحاول أن أخلُدَ للموت، أهش الخوف والأسئلة، وأطرد الوجوه والكلمات، أهمس لقلبي: سنكون بخير، لا تخف.

لكنني لا أكون بخير أبدا، تنقضي الليلة، وتعقبها أخرى، ولا شيء يتغير، يتبدل الناس حولي، ولا تتبدّل النظرات. أصادف الكثير من الوجوه التي أراها للمرة الأولى، فتعود بي جميعها لذات الوجوه التي أبت مغادرتي، كل النساء ميلا وكل الصبيان موبوتو وكل الصغيرات مولاسي.

هكذا أمضي لياليّ الطويلة في صراع مع الأرق، تارة أغلبه وتارة يغلبني، وما بين غالبٍ ومغلوبٍ تمرُّ الليالي جارحةً كسياط الشيكوت، وهي تحفر في جسدي، وتترك ندوبها. الليلة الفائتة لم تختلف كثيراً عنها، لكنها الوحيدة التي اطمأن لها قلبي، حين وسوست لي أمراً كنت أفاوض الرب عليه ليالي كثيرة، وكان يصمّ أذنه عن توسلاتي. هذه المرة لن أسأله، فقد يئست من صمته، وعدم رده على أسئلتي. تعبت من انتظار السهم الذي اعتاد إطلاقه على من يشاء وقتما شاء، أو حتى إشارةً تُنبئني بإطلاقه بنفسي، كالإشارة التي كانوا يطلقونها في حديقة حيوان برونكس لبدء مسابقة إطلاق السهام.

لا فائدة من انتظاره، أعلم أنه لن يقف معي، كما لم يفعل يوماً، لقد كان ضدي دائماً، وحين أخبروني في الكنيسة أنه يحبني وأنه فقط يختبرني ليرى صبري، صدقتهم، لكن

الحقيقة أن اختباراته جميعها كانت أكبر من احتمالي، ولم يعد الصبر رفيقاً طيباً كما يقولون، لذا سأفعلها بمفردي دون مساعدة من أحد.

سأقتل وجعي بمنتهى الشجاعة، سأصيبه في مقتل. لقد اعتدت رؤية المكان الذي يرحل صاحبه مباشرة بعد إصابته، فهم إما أن يُطلقوا على قلبه، أو رأسه، وليس أي مكانٍ آخر، وإلا فإن ذلك يعني تعلّق روحه بين الحياةِ والموت مدةً طويلةً من الزمن، وتركه لمواجهة الألم دون مساعدة، لأن كل روح تقابلها رصاصة واحدة فقط، إن لم تؤدِّ مهمتها كما يجب، وجب على ضحيتها احتمال مصيره الذي لا يرجوه أحد، وكل ذلك للتقليل من عدد الرصاص المستهلك.

الموت، ذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه، كنا نراه طوال الوقت، يمر بجانبنا، يحاول لمسنا، لكننا نتجاهله، نحاول إخباره بأننا لا نعرف من يكون، ولا نعلم عنه شيئا، وأننا لا نصادفه في كل لحظة وجها لوجه، وهو بدوره يحاول تصديقنا بابتسامة مقتضبة، نعلم جميعنا أنها غير صادقة.

لا أذكر أن هذه الطمأنينة حدثت لي من قبل، رغم أنه كان يزورني كلما ذهبت للصيد، وأنا أجمع المطاط، أو أهرب من الرجال البيض الذي دخلوا علينا قريتنا، وجعلونا عبيداً لهم، لكني كنت في كل مرة أستيقظ غير مصدقٍ أنني فعلتها، وأن الموت لم يأتِ إلا للاطمئنان إليّ، وليخبرني أن كل شيء بخير، وأن عليّ الانتظار قليلا ريثما يكون مستعداً.

أعترف أنني كنت أخافه، ما إن أشعر باقتراب أنفاسه حتى أضطرب، ويزداد خفقان قلبي. أخاف على بيلا، التي لن يحتمل قلبها غيابي، وعلى صغيرتي مولاسي، فتاتي

المشاغبة التي تتشبث بظلي، وصغيري موبوتو الذي سيكبر قبل أوانه، حين يكتشف أنني خذلته ورحلت دون أن أخبره، أخاف عليهم جميعا أن يشيبوا فجأة، هم الذين كانوا حتى اللحظة أطفالاً ينامون على هدهدة أنفاسي الحائمة حولهم، لكنه الآن يضع عينيه في عينيّ، فأهدأ، وأطمئن وأغمض عينيّ عليه وكأني لن أفتحهما مرة أخرى.

سأنزع طقم الأسنان الذي غطى أسناني المدببة، ليخفيها عن الناس، فلا يتراكضون نحوي، وهم يشيرون لها مستغربين، لأنهم لم يروا من قبل إنساناً بمثل هذه الأسنان. كما سأنزع الملابس الغربية التي اشتراها لي القس جوردون، ولن أرتدي إلا قطعة قماش تنسدل على أعضائي. قطعة قماش كانت كل قيمتي يوما ما.

"صفقوا جيدا".

أود لو أصرخ بمن يتفرج علي، عندما يبدأ حزني بالتساقط قطرة إثر أخرى، ولا يحاول أحدهم مد يده، وتضميد جرحي الغائر عميقاً في صدري، بعد أن يتفتّح كشلالات موسي – أوا – تونيا الهادرة، لا يقوى على إيقافها أحد، ولكني لن أفعل، لأن أحداً لن يكون معي.

كنت أتمنى التدلّي كثمرةٍ قاومت السقوط طويلا حتى تيبّست في شجرتها، مقاومةً الريح، والأحجار التي يرميها الصِبية، لكني لا أشعر بالحميمية مع الأشجار هنا، وأتساءل دائماً كيف تستطيع التخلص من أحبتها بهذه البساطة كلما رأيتها تنفض أوراقها، بينما عجزتُ أنا عن فعل ذلك، وبقيت كأشجار غابة إيتوري التي تظل محتفظة بأطفالها في حضنها، وإن سقط أحدهم يوما تلقفته جذورها ليبث الحياة في أخوته، بينما تتطاير الأوراق هنا في كل مكان، كأنها بلا وطن، مثلي تماماً.

بعنقٍ فارعة، وأذرع تمتد في كل الاتجاهات، تنتصب أشجار غابة إيتوري شامخة معانقة السماء، تحتضن الشجرة أختها، وفي أحضانها تتراقص الأرجوحة التي علقتُها لطفلتي مولاسي قبل عشرة أعوام، مُتأبِّطةً غُصناً يمتدُّ بامتداد ضحكتها، وهي عليها كطائرٍ، يُحاولُ خطف قُبلةٍ من خدِّ غيمة:

''أعلى يا أبي، أعلى''.

تهتفُ وهي ترتدُّ ضاحكةً لحضني، أقذفها للأعلى فتصرخ بفرح:

''أكاد أُقبِّلُها، هيا أعلى''.

يتردد صدى ضحكاتها حولي، وأنا صامتٌ ككل القضبان التي أحاطت بي في ذلك القفص الحديدي البارد، بيتي الذي سكنته منذ فارقتُ غابة إيتوري الوارفة، أجرُّ خلفي السلاسل الحديدية الثقيلة، وهي تُحيط بأقدامي، تذكرني بالخلاخيل التي تُغنّي أسفل ساق بيلا الجميلة كلما بدأت بالرقص.

أوووه يا بيلا، كيف تمكنوا من إطلاق رصاصاتهم على جسدك الفاتن كلبؤةٍ ثائرة؟ وكيف استطاعت تلك الرصاصات ألا ترتدّ قبل اختراق صدرك، وإسقاطكِ بلا حراك؟

يرمقني دونغ بنصف عين، وكأنه يقول لي:

''متى ستنام، أرغب في الانفراد بزوجتي''

أشاركه قفصه وطعامه، وتبقى له أنثاه، يهبها الحب وأنتِ غائبة، تصعدين كل مساءٍ إلى النجوم لتعتلي ظهرها، تتدلى ساقاك النحيلتان بإغراءٍ مُتعمّد، أمدُّ يدي لألمسهما فتهربين.

''إلى أين؟'' أصرخُ بك.

يختطف الهدوء صوتي ويهرب لأصحو من نومي كمن استسلم لعناقٍ طويلٍ، وحين انتبه وجد يديه مملوءتين بالفراغ.

يفزُّ دونغ من نومه كلما زرتِ غفوتي، تغنين لمولاسي كي تنام، أو تدورين راقصةً وأنتِ تُبدلين ما تلف أو سقط من أخشاب كوخنا الصغير، أو مُحتجّةً على كسلي لأني لم ألحق بأفراد القبيلة الذين سبقوني للصيد، بعد أن اعتذرتُ بإصابةٍ في قدمي تمنعني من الركض كما يجب، بينما كان عذري الوحيد شوقي الدائم إليك.

كم مرّةً رأيت دونغ يحتضن زوجته، ويواريها بعيداً عن ناظري؟ حتى الغوريلا دونغ يخشى على زوجته مني، أتُصدّقين؟

إنه لا يعلم أنني لا أرى امرأة سواكِ. جميع اللواتي أحضروهن إلى هنا – رغم كثرتهن – لا يشبهنك أبداً، رغم أن الكثيرات منهن امتلكن لونكِ ذاته. لم تُزهر في إحداهن ضحكتك التي توقِظُ موبوتو في منتصف الليل، فاتحاً عينيه الناعستين والنوم يسيطر عليهما، فلا يلبث أن يُغمضهما، ولا تفتّح أنوثتكِ قُبيل الفجر باعثةً حمم الشوق في صدري بلا هوادة.

لم تفرد إحداهُن شعرها ليقف في وجهي كغابةٍ ثائرة، تتداخل أغصانها في محاولةٍ مستميتة لإخضاعي. تتلمّسُ أصابعي طريقها بهدوءٍ وحذر، متيقناً أنني سأصل، كلُّ ما يلزمني بعضُ الصمت وعيناك، لكن ذلك الصمت تقطعه ضحكات مولاسي، قبل أن أدفعها عالياً، فتطير ولا تعود. أصرخ بها:

"مولاااسي".

تفحُّ الكثير من البنادق بطلقاتٍ هادرة، تتفتّحُ جميعها في جسدها. أتعثّرُ بحبالِ الأرجوحة وأسقط، تلتفُّ حول عنقي، تخنقني، أكادُ أموت، سأموت، سأموت، س...

"مولاااااااااااسي".

هكذا ينتهي نومي في كل ليلة. لم تختلف ليالي منزل عائلة ماكاري عن ميتم هوارد أو حديقة حيوان برونكس. يطارد الرصاص أحلامي فيوقظني قبل أن يتمكن مني، يوقظني وحيداً دون كل الذين أحببتهم، بعد أن كانوا يتضاحكون حولي، قبل أن يسكتهم الرصاص الذي يمر بجانبي، ويخطفهم من يدي، ويرحل بهم بعيداً.

جورج واشنطن وليامز

2–2

الكونغو التي حلمت بها، وقرأت عنها الكثير في الصحف التي لم تتوقف يوماً عن سرد فضائل الملك العظيم، مُخلِّص الكونغو من العبودية، لم تكن هي الكونغو التي وطئتها أقدامي، ورأيت ما يحدث فيها بأم عيني. فما رأيته لا يشبه ما سمعت عنه، وأتيت لرؤيته، داعياً أميركا لإرسال مواطنيها ذوي الأصول الأفريقية للعمل في نطاقه.

أينما وطئت قدمي، وجدت جثثاً طرية، أو عظاماً متناثرة، وكثيراً ما تقيأت عند رؤيتي للرؤوس والأطراف المقطوعة. إنّ ما شاهدته هنا فوق احتمالي.

الآن عرفت لماذا حاول الملك ليوبولد الثاني منعي من المجئ، مُقنعاً إياي بالاكتفاء بإخباري بما أريد معرفته، قبل أن أُعِدَّ تقريري الذي سأقدمه للحكومة الأميركية للموافقة على إرسال الأميركيين ذوي الأصول الأفريقية للعمل والاستقرار في الكونغو، ولولا شغفي لرؤية العالم الساحر الذي تنتمي له هذه البلاد لركنتُ إلى طلبه، وكتبت التقرير حسب ما يُمليه عليّ.

هل ما رأيته كان حقيقةً، أم أنني تهتُ في بؤرة الشيطان، تلك التي يتحدثون عنها، وهناك اختطفني الشيطان ورفاقي، وأخذنا إلى عالم لا يشبه المكان الذي أتيت لأراه؟ ولكن لماذا لا يُبدي الآخرون اندهاشهم كما يحدث معي؟ لماذا أنا الوحيد الذي لم يتمكن

من إغلاق عينيه وفمه من هول ما رأى؟ وكأن ما يرونه شيءٌ طبيعي شاهدوه من قبل آلاف المرات.

كلُّ ما توهمت وجوده اكتشفتُ أنه كذبة. طال الخداع والتزييف كل شيء، التصالح بين الأبيض والأسود الذي طالما حلمنا أن نراه في أميركا وغيرها من الدول الأوروبية، والسلام المزعوم، وقصة الحروب المستمرة بين رؤساء القبائل، التي أنهاها الرجل الأوروبي الأبيض المدعو ستانلي، وعمله على اتحاد كل القبائل الأفريقية، دون أن يكون له هدف إلا السلام.

لطالما حلمت بوطنٍ يغمره التسامح، وظننت أن الكونغو هي الأرض التي ستحمل رايته للعالم، فهل كانوا يقصدون بالتسامح بيع الناس لأراضيهم دون مقابل؟ أم قصدوا به تنازلهم عن أملاكهم، ومزارعهم، وحيواناتهم، بل حتى أبنائهم، وزوجاتهم أحياناً، عندما يضطر أحدهم لبيعهم ليدفع الديون التي تترتب على تقصيره في عمله، الذي يعمله بالسُّخرة، أو عدم تمكنه من جمع المطلوب منه من المطاط، وفي حال فكر بالرفض، أو الاعتراض، أُطعِمَ للموت، بعد أن يُقتل أطفاله، وتُغتصب زوجته أمامه، فيختار بيعهم على فقدهم إلى الأبد، ورغم ذلك لا أحد يمكنه الجزم أن أولئك الأطفال الذين يُقتلون قبل آبائهم أسوأ حظا من أولئك الذين يُقتل آباؤهم ويُترَكون غنائمَ في أيدي الجند البلجيكي.

يُنقل أولئك الأطفال اليتامى إلى مستعمرات عسكرية لتدريبهم حتى يصبحوا جنودا في القوات العامة البلجيكية، بحجة أنهم أيتام يحتاجون إلى رعاية، رغم أن الأعراف في الكونغو تحتم على أفراد القبيلة رعاية اليتيم بحيث يصبح ابنا لكل فرد فيها، فلا حاجة

لوجود ميتم، إن صح إطلاق هذه التسمية على تلك المعسكرات العسكرية، التي تحرمهم من طفولتهم، وتعاملهم كعبيد، يتم تجويعهم، وضربهم بالشيكوت، ونقلهم مشياً من مكانٍ إلى آخر، حفاةً، عُراةً إلا من السلاسل التي تُسقطهم الواحد تلو الآخر، والشيء الوحيد الذي يتم منحهم إياه قبل الموت هو التعميد قبل أن يلفظوا أنفاسهم، ليموتوا كاثوليكيين مخلصين للملك. ولكن هل كانوا كذلك فعلاً، وهل هذا هو الإخلاص الذي أُرسلَ به المسيح، ليقبلَ بأولئك الأطفال في رعايته؟ لا أظن ذلك.

الفتيات أيضاً لم يسلمن من رجال الملك، فقد كُنَّ يُبعن لتجار الرقيق، وبعضهن ممن لا يمكن حساب عددهن يمُتن في الطريق من التعب والتجويع. من لم يسعفها الموت، ومنَعَها المرض والتعب من المواصلة يتم التخلص منها برميها في النهر لتموت أيضاً، ولكن بطريقة أشد ألماً.

هل يمكن اعتبار الحياة هنا حياةً بشكلٍ ما؟

وقف هذا السؤال بوجهي كثيراً، ووجدتني مضطراً للقول إنها في الحقيقة لا تعتبر كذلك. أنا عاجز عن وصف ما رأيته، رغم ثرثرتي المستمرة به، حتى ضجر مني الجميع وباتوا يصفوني بالمهلوس. لكن كيف يمكنني ألا أهلوس وما رأيته ليس عكس ما أتيت لرؤيته فحسب، بل إنه لا يشابه حتى الحياة التي يعيشها السود في أميركا. إن الناس في وطنهم هنا يُعاملون أسوأ مما يعامل العبيد في أوروبا.

الجميع هنا يعملون بالسخرة، وهم إما جنود في جيش الملك، وإمّا حمّالون لأمتعة أفراده. الفرد إما مقتول أو قاتل لابن بلده. لم يُستثنَ من هذا المصير أحد، وكل هذا

يحدث باسم الملك الذي تصله الخيرات دون أن يعلم كيف تصله، ولا من يموت أو يُقتل في سبيل إيصالها إليه، أو ربما كان يعلم ولا يبالي إلا بما يصله من ثروات.

خمسون مركزاً موزّعة بامتداد الأرض، ليس بها من السود إلا الجنود المرتزقة، ممن اشتروا حياتهم، مقابل التضحية بحيوات الآخرين، بلا راتبٍ، أو حتى زادٍ يُرسل إليهم، راضين بالمشاركة في لعبة الموت والحياة، لأنهم اكتشفوا أن الواحد منهم إن لم يكن قاتلاً، فلن يكون إلا مقتولا.

يطلبون من أهل الأرض توفير غذائهم، وغذاء قادتهم من البيض، وأحياناً يسطون على قرى السكان الأصليين، ويقتلونهم، ويُحرقون منازلهم وقراهم، ليأخذوا ما يملكون من غذاء. إن ما يحدث لا يفرق أبداً عما يفعله القراصنة في عرض البحر. فهل هذه هي الحضارة التي يتحدث عنها الملك البعيد، ويذكرها أنصاره ومؤيدوه في الصحف، حتى صدّقهم العالم كله، ولم أكن إلا واحداً من ذلك العالم؟ فأتيت لأرى ما يتحدثون عنه، ولم أجد الحضارة والتقدُّم والعلم إلا في آلة الموت، التي لا تُخطئ هدفها أبداً. ولأن من يموت لا يتم دفنه غالباً، تنتشر الجثث، وتتناثر العظام في كل مكان، وأينما خطت الأقدام داست على بقايا البشر الذين تشاركت أجسادَهم الأرضُ، والشمسُ، والحيواناتُ، والحشراتُ.

يمكن للإنسان أن يكذب على غيره، ولكن لا يمكنه إلا أن يكون صادقاً مع نفسه، وهذا ما لا يفعله الملك ورجاله، لأنهم يظنون أن ما يفعلونه هو الصواب، وأنه يمكنهم استخدام مصالحهم عذراً لوطء الأرض، وساكنيها، مُطبّقين شريعة الغاب التي تُحتّم عليهم أن يكونوا ذئاباً وإلا أكلتهم الذئاب، متجاهلين عدم وجود ذئاب سواهم على هذه الأرض.

يبررون جرائمهم بالقول إن القبائل هنا متناحرة، وإنهم يؤذون كل من يمر في الطريق، فهل أصدق ما يقولون أم ما وجدته بنفسي، عندما مررتُ يوماً بإحدى القبائل، والتقيت برئيسها، فأهداني ما كان في يده من طعام، ودعاني لزيارة قبيلته، معبراً عن سعادته بمقابلتي، وواصفاً المبشّرين بالناس الطيبين، الذين لا يشبهون البشر، لأن الرب اصطفاهم، ومنحهم بعضاً من صفاته، مؤكداً أن البيض منهم لا يفرقون عن السود إلا في اللون فقط، لكنهم يملكون النبل ذاته، والطيبة التي لا يشبههم فيها أحد، حتى إنه قال لي إنهم يعتبرون المبشرين وجهاً آخر للرب، بينما الملك ورجاله ليسوا سوى صورة متكررة من الشيطان.

هنا حيث حلمتُ بأن أجد العدل والمساواة، وجدتُ أقصى درجات التمييز بين الأبيض والأسود. ففي حين يُبرأ الأبيض من تهمة القتل، بعد محاكمةٍ سريعة، يُعدم الأسود إن سرق قوتاً لعياله، أو عجز عن أداء مهمة طُلبت منه، بعد أن أنهكه الجوع والعطش. وإن سرق الأبيض، اتُّهِم الأسودُ، وحوكِمَ بدلاً منه، بل إن الأبيض قد يَقتُل الأسود لمجرد انزعاجه من كلمةٍ قالها، أو امتنع عن دفع ضريبةٍ فُرضت عليه، ليس اعتراضاً وإنما لأنه لم يتمكن من توفيرها.

أنا مصدوم جداً، ومحبط، وعاجز عن وصف هذا المكان، يخجلني مشهد النساء العاريات المعروضات للمزايدة عليهن، ليظفر بهن من يدفع سعراً أعلى، أما من لا تجد شارياً تؤول لمستأجرٍ يسلمها بعد قضاء رغبته إلى مستأجرٍ آخر. إن هؤلاء النسوة غالباً ممن تم اختطافهن من القرى المنتشرة في الغابة، أو من أولئك اللواتي اشتروهن من رؤساء القبائل بعد الحكم على أزواجهن أو آبائهن بالإعدام.

إن كل ما يحدث غير قابل للتصديق، وفي كل لحظة أفكر أنني ربما أكون في حلمٍ، سأستيقظ منه قريباً، ولكنني كلما نمت قليلاً واستيقظت اكتشفت أن الأمر حقيقي فعلاً، وأنني لا أحلم، وأن قتل الأطفال هو أسهل عمل يمكن فعله هنا، دون أدنى إحساسٍ بتأنيب الضمير، وكأن من يعملون هنا بلا أطفال، ولا يحلمون بالعودة إلى أطفالهم ذات يوم، أو إنجاب طفلٍ سيكون والده مستعداً للموت في مقابل المحافظة على حياته.

مع الوقت اكتشفت أن قتل الأطفال بالرصاص هو أرحم جريمة ترتكب بحقهم، إذا ما قورنت برمي الرضع في العراء، وتركهم للحيوانات لتفترسهم في حال سلموا من الموت جوعا وبردا، أو إغراقهم في النهر، أما الأسوأ فقد كان منحهم عشاء للكلاب التي يربيها الضباط، لتنهشهم أحياء، ويموتون وهي تُمزّق أجسادهم الصغيرة بأنيابها المسننة، بينما يتفرجون عليهم وهم يضحكون كأنهم يشاهدون مسرحية هزلية، دون أن يؤنب صراخهم ضمائرهم الميتة.

ماذا لو أنني لم آتِ لأرى بعيني ما يحدث؟

فكرت كثيراً، وتأكدت بأن كارثة كانت لتحدث، إذ سترسل أميركا مواطنيها ذوي الأصول الأفريقية، وحينها ستصعُب عودتهم، وهنا سينسون معنى الحرية، كما يعيش كل السكان الأصليين للبلاد، وسيكتشفون أن الخيرات التي تحدث عنها ستانلي ليست إلا طُعماً ليأتوا بالعمالة التي يحتاجونها، بعد أن تقلّص عدد السكان الأصليين بسبب القتل، والموت تحت وطأة التعذيب، والأعمال الشاقة.

كل شيءٍ هنا وجِد لمصلحة ملك بلجيكا الذي امتلك الأرض ومن عليها، حتى خطّ سكة حديد الكونغو أُنشئ لينقل معداته إلى داخل الغابة، كما ينقل ما يستولي عليه من

ثرواتها إلى خارجها. أما المواطن الكونغولي، المالك الأصلي للأراضي، فلا يملك إلا السير بجانبها، حاملاً على رأسه ما يعجز عن حمله في يده، مُتكئاً على عصاً تسنده من السقوط، لأن سقوطه يعني جلده حتى يقف، أو يموت.

رغم من مات من الحمّالين، في سبيل إقامة خط السكة الحديدية في هذا الطريق الوعر والضيق بين متادي وبحيرة ستانلي، ومن فقد عقله من فرط التعب والإعياء، وعدم تجرّئه على الشكوى مما يعانيه، واضطراره إلى الصمت طوال الوقت، وتحمل الضرب، والألم، ورؤية رفاقه يتساقطون صرعى طوال الطريق، فإنّ النُّصُب الذي بُني عند بحيرة ستانلي، تُوّجَ بعبارة: حررتهم السكة الحديد من الأثقال.

لا أعلم هل أضحك ساخراً من تلك العبارة أم أبكي من قسوة ما رأيته، وأراه، أم أقف كما أنا الآن، وكما أفعل طوال الوقت، مشدوهاً، غير قادر على إغماض عينيّ، أو تصديقهما؟

تمثّل النُّصُب في ثلاثة حمالين بالحجم الطبيعي، يحمل أحدهم على رأسه صندوقا كبيرا، بينما الاثنان مرتميان على الأرض بجواره من الإرهاق. ربما دل هذان الاثنان على أولئك الذي قضوا في الطريق، أو ربما أراد واضعو النصب الإشارة إلى أن من ماتوا في سبيل هذا الطريق ضِعف من تمكنوا من الصمود، والبقاء على قيد الحياة.

كم تمنيت لو أنني لم أسمع مطلقاً عن أرض الكونغو الحرة، أو – بوصفٍ حقيقي – المستعبَدة، ولم أحلم بها، لكان ذلك أرحم لي، ولكن ربما هو القدر الذي أحضرني إلى هنا لأُنقذ الكثيرين ممن قد يقعون ضحية للكذب المنشور عن هذه البقعة اللامرئية للعالم الأوروبي.

السكوت عما حدث هنا، وما زال يحدث حتى اللحظة غير ممكن، والحديث حين يبدأ لا ينتهي، لكني عاجزٌ فعلاً عن وصف ما رأيته، ويكفي أن أقول إن الرب الذي في السماء لا يمكنه الرضا بما يحدث، وإلا فإن كل إيمانٍ بداخلي سيتبدد، ولن يعود للثقة بعطفه أي مكانٍ في داخلي. أما الملك ليوبولد فإن عليه تحمل مسؤولية ما يحدث هنا، باعتباره صاحب السيادة على أرض الكونغو الحرة، لأن كل هذه الممارسات في دولته تُفعل باسمه، بغض النظر علِمَ عنها أو لم يعلم، فالأمر في النهاية حدث، ولا يمكن إنكاره، ويجب معاقبة فاعليه، وإيقاف تماديهم، وعليه تشكيل لجنة دولية للتحقيق في هذه الجرائم، والتجاوزات الحاصلة في الكونغو.

بين يديّ الكثيرُ من الوثائق التي تدين رجال الملك، ناهيك عما رأيته بأم عيني، وما حكاه لي الشهود الذين أعددت قائمة بأسمائهم، مُتحمّلاً مسؤوليتي تجاه هذه الاتهامات إن وجدت اللجنة بها ما يجانبه الصدق.

على المجتمع الدولي أن يتحرك للتحقيق فيما يحدث من جرائم بحق الإنسانية، قبل أن يستيقظ العالم ذات يومٍ وقد أُبيدَ شعبٌ بأكمله، يسمّى شعب الكونغو، كان حرّاً كظبيٍ خائفٍ يهرب كلما رأى رجلاً أبيض اللون، ظناً منه أنه فومبي هاربة من قبضة الشيطان، ولكن تلك الروح نجحت في الوصول إليهم، وقذفهم جماعاتٍ إلى بؤرة الجحيم باسم الحضارة والحرية.

ككل من يأتون إلى هذه البلاد، أو ما تُسمى بلاداً، أرحل منها بصحبة مرضٍ يُصيب الكثيرين هنا. أكاد لا أفيق من نوبات الألم التي تعتصر صدري، ولا أعرف إن كان السلّ

سيُمهلني لأنقل شهادتي إلى العالم حول ما رأيته، أم سيختطف روحي قبل ذلك، ولكني أرجو – سواء نجحت أو فشلت – أن يفعل العالم شيئاً لهؤلاء البشر الذين يموتون هنا.

الفصل الخامس

تأتي إلى هذه الحياة وأنت تتألم، وترحل منها وأنت تتألم، من دون أن تعرف الذنب الذي اقترفته ليحدث معك كلّ ذلك.

الأميرة لويزا

2–1

سبعة عشر عاماً وأنا أحلم بأن يحضنني، وذات يومٍ غفوت ورأيت أنه فعلها، وحين صحوتُ من نومي، وجدت رجلاً آخر بجواري على السرير. فزعت، وركضت خارج القصر وأنا أصرخ. منذ ذلك اليوم علمت أن هذا الرجل لن يكون أفضل من أبي، ولن يُحبني يوماً.

منذ أول ليلةٍ لزواجنا ساد التوتر علاقتنا، وسمع الجميع صراخي وأنا أركض هاربةً منه في الحديقة، وكأنَّ شبحاً ظهر لي فجأة وأخذ يطاردني، ولولا أن الخدم لحقوا بي وأمسكوني، وأعادوني، لما عدت إلى قصر أبي الذي قضيت فيه أيام زواجي الأولى.

ربما لم يكن الأمير فيليب قاسياً، وربما لم يكن سيئاً، ولكني لم أرَ فيه إلا صورة أبي، الرجل الذي حين يصادفني أحياناً في ردهات القصر، يقف ليتذكر اسمي قبل أن يسأل:

”ماذا تفعلين هنا، ألم أخبرك مراراً بضرورة عدم إزعاجي؟ هيا عودي إلى غرفتك“

أستمرّ في التحديق به قبل أن يصرخ:

”قلت اذهبي“

أجري، وأنا أرتعد خوفاً، أفكر في الاختباء، ولكن من يُخبئني، وهل يجرؤ أحد على الوقوف بوجه أبي؟ وأي أمانٍ قد يمنحه العالم لطفلةٍ لم تشعر به في حضن أبيها ولو كان

ملكاً.

أكثر من مرة صادفته وأنا ألعب مع ليوبولد في حديقة القصر، وفي كل مرة كان يأخذ ليوبولد في حضنه، ويُدخله معه، تاركاً جسدي في الحديقة، وروحي تلاحقهما، وهو يرفعه عالياً ثم يعيده لحضنه، وكلما علت ضحكات أخي ليوبولد انهمرت دموعي أكثر. أبكي بكاءً خالياً من أي صوت، خشية أن يلتفت لي ويصرخ بي كما يفعل كلما انتبه لوجودي:

"لماذا أنتِ هنا؟ ألم آمركِ بالذهاب؟"

حين سقط أخي ليوبولد في البركة في الحديقة، لم نكن أنا أو أختي ستيفاني معه، ولكن أبي عندما وجدنا، قال:

"لماذا ليوبولد؟ لماذا لستما أنتما؟"

كاد ليوبولد أن يموت، لولا أن العاملين في الحديقة انتبهوا له قبل ذلك، وأنقذوه، لكنه مات بعدها متأثراً بمرضه الذي لازم رئتيه، وجعله يعاني كثيراً قبل أن يموت.

كنت حينها في العاشرة، أما ليوبولد المسكين فكان في التاسعة، بينما أختي ستيفاني لم تكن قد أكملت الخامسة من عمرها، وكما اختلفت أعمارنا اختلفت مكانتنا لدى والدنا، ولكن ليس بحسب أرقامها أبداً.

كنا نذهب أنا وستيفاني نسترق النظر إلى غرفة ليوبولد، حيث يرقد بهدوء، بعد ليالٍ عدة لم ينقطع فيها صوت سعاله، بينما تكفّلت أنفاسه القصيرة والغائرة بإثارة أبي الجالس بجواره، عاجزاً عن فعل أي شيء يمكنه به مساعدته.

نتناوب على النظر من ثقب الباب، فإذا شعرنا بأبي ينظر باتجاهنا هربنا مبتعدتين، كأنه سيرانا هو الآخر من ذلك الثقب. حتى إذا اطمأنينا عدنا مرةً أخرى، قبل أن نركض من جديد حين يقف مديراً جسده صوب الباب، كأنه يريد الخروج.

ظل أبي في تلك الغرفة طوال فترة مرض ليوبولد، ولم يخرج منها، فقد كان يخشى أن يأتي الموت، ويختطف ليوبولد وهو غافلٌ عنه، فلا يفعل له شيئاً. لكن الموت كان أذكى منه، أو هكذا شعرت حينها، عندما أتى وأبي نائم على كرسي بجوار أخي، واضعاً رأسه على سريره، ومحتضناً كفه، واختطفه، ورحل بروحه، وحين انتبه أبي كان كل شيء قد انتهى.

في الكنيسة رأيت بكاء أبي لأول مرة، عندما احتضن أخي، وبدأ ينشج بصوتٍ عالٍ، جعل كل من كان هناك يتأثر، أما أنا وأختي ستيفاني فكنا نشاهد الموقف وكأننا غير معنيتين به، وكأن هذا الرجل الذي يبكي ليس أبي، وأنّ المسجى في التابوت، يداه تربضان بهدوءٍ على صدره، ليس أخي.

لم ينعم أخي ليوبولد بحضن أبي فقط، بل بكل اهتمامه، من تعليم، وتوجيهات خلال فترة وجوده في القصر، بعد عودته من رحلاته الطويلة، بينما بقينا أنا وستيفاني، ومن بعدنا كليمنتين بعيدات عن أدنى اهتمام، يمكن أن يوليه أبٌ لبناته، أو حتى ملك لرعيته.

لا زلت أذكر كيف رجته أمي أن يأخذنا للاحتفال معه بحفل تنصيبه، فهي تحب هذه الأجواء، وترى فيها ذاتها الغائبة، وكطفلةٍ في السابعة شعرت بإثارةٍ لا حد لها، وأنا أنظر إليه وهو يركب عربته، وتخيلتنا معه، نمشي في الطرقات، فيحيّيه الناس، ويهتفون باسمه،

كملك بلجيكا الجديد، لكنه، ككل مرة، أخذ ليوبولد معه، وتركنا خلفه. بكيت يومها كثيراً، ورفضت تناول طعامي، لكن أبي لم يأتِ لمصالحتي، أو السؤال عني.

شيءٌ ما في داخلي أُسجي في تابوتٍ منذ زمن بعيد، وأُقبِر في داخلي، لكن أحداً لم يبكِ عليه، أو يتأثر لرحيله. وكلما احتضن أبي ليوبولد فزّ من قبره وبكى، فلما مات أخي، رقد بسلامٍ ذلك الذي في داخلي، حتى أتى اليوم الذي احتضنني فيه الأمير فيليب، بعد أن أصبح زوجي، فاستيقظ كلُّ شيء، ولم أنتبه لنفسي إلا وأنا أصرخ، وأهرب، دون أن أقرر وجهتي التي لم تتعدَّ حديقة القصر، حيث أمسك بي الخدم، وأعادوني إليه.

حاولت أمي تهدئتي وطمأنتي، لكنها ولما تلا ذلك اليوم من عمر لم تنجح فيما رمت إليه، كما لم تنجح في الوصول إلى قلب أبي، أو لفت انتباهه إلا بما يزعجه، ويُبعده عنها أكثر.

أمي امرأة لطيفة، لها ضحكة رنانة، تجعلنا نضحك مهما بدا الأمر غير مضحكٍ، ولو تُرك الأمر بيدها لحوّلت القصر إلى ساحة مهرجانات، فهي تحب تجربة كل شيء في هذه الحياة، كالمشي في الشارع دون حراسة، أو حضور حفل موسيقيٍ لفرقةٍ متجولة، أو حتى الرقص مع فتيات الفرقة، لكن أبي لا يسمح لها بذلك أبداً.

حياةٌ بائسة، لا تشبه الحياة، ولا توصل إلى الموت كما كانت تتمنى، تلك التي عاشتها أمي في قصر ليكن، لا تغيب عنه، وإن افتقدناها نعرف أين نبحث عنها، لأننا لن نجدها إلا في الإسطبلات، حيث خيولها العزيزة، التي تحبها ربما أكثر منا نحن بناتها الثلاث. فإن لم نجدها في الإسطبلات وجدناها في المكان المخصص لتدريباتها في الحديقة، بعد أن

أصرت على وجودها عندما يئست من تحسُّن علاقتها بأبي، ورغم أنها أسمت أحد خيولها ليوبولد فإنيّ لم أشعر بالغيرة أو الانزعاج منه.

الكل يعلم أنه لا يحبها، فهو لا يتوانى في تعديد عيوبها – تلك التي يتوهمها – متجاهلاً عيوبه التي لا يعلمها الجميع، تلك التي لم تذكرها أمي إلا بعدما أنجبت كليمنتين شقيقتي الصغيرة بعد وفاة ليوبولد بخمس سنوات.

يومها غضب أبي حتى كاد يأخذ الطفلة ويرميها من النافذة. لم أره ثائراً كذلك اليوم من قبل، فرغم ثوراته الدائمة إلا أنه يعرف كيف يتحكم في نفسه متى ما أراد ذلك، ولكنه هذه المرة لم يفعلها، ربما لأنه لم يشأ فعلها، فكال الشتائم لأمي وكأنها هي من اختارت أن تُنجب بنتاً، ولم تُنجب له الولد الذي سيورثه عرش بلجيكا. كاد أن يرمي كليمنتين من النافذة لولا أنه تراجع في الثانية الأخيرة، ورماها لحضن أمي، التي تلقّفتها بفزع، ثم احتضنتها وهي تبكي، بينما وقف هو عند الباب، وقال قبل خروجه:

"لا أريد أن أسمع لها صوتا في هذا القصر"

على عكس ما أراد، كانت كليمنتين كثيرة البكاء، مفرطة الحركة، وأينما اتجه في القصر وجدها أمامه، تُمسك بطرف ردائه الواصل حتى ركبتيه، ولم تتوقف عن فعل ذلك إلا بعد أن كبرت قليلاً، وفهمت أنها لم تكن الولد الذي أراده أبي، وأن وجودها في القصر ليس سوى غلطةٍ لا يُمكن تصليحها.

انقطعت العلاقة بين أبي وأمي بعد ولادة كليمنتين، ولم يعد لأمي إلا الخيل تهرب إليها كلما خنقها الحزن، وكلما جرت الخيل أسرع كلما شعرت بأن الهواء الذي يلامس وجهها

ينفض عنها ألمها، ويذروه بعيداً كما تذر الريح ذرات الغبار. وكما كان لأبي عشيقاته السرّيات، أصبح لأمي رجلها الذي يعوّضها غيابه، وخياناته.

إنه وزير الحرب الذي اعترف بموهبتها في ركوب الخيل، وتأثيرها عليه، حتى جعلها تقود هجوم الخيالة في الاستعراضات التي يقيمها الجيش، رغم أن ذلك لم يكن أمراً مألوفاً، وأثار حفيظة الكثيرين؛ فكيف لامرأة أن تقود استعراضاً، ناهيك عن كونها ملكة؟ لكن ذلك الانتقاد ما لبث أن تحوّل إلى ثرثرات نسوةٍ تقبع خلف الجدران، وشيئاً فشيئاً بدأ بالتلاشي.

بدأ الناس بالحديث عن العلاقة بين أمي ووزير الحرب، وأصبحت محور حديث نساء الأسر الغنية في لقائاتهن، وعِبن عليها ما تفعله، لكنّ واحدةً منهن لم تتجرأ على الإفصاح أمامها عما يدور خلفها من أحاديث، بدأت تقل مع الوقت بعد أن لاحظ الجميع عدم اكتراث أبي بالأمر، وكأنه غير معني به، أو كأن شيئا لا يحدث.

كأننا كنا ننهل الحظ من الكأس ذاتها، لم يكن حظي أفضل من حظ أمي، ولا حظ أختي ستيفاني أفضل من حظينا نحن الاثنتين، بعد أن زوّجها أبي بالأرشيدوق رودولف ولي عهد النمسا، رغبة منه أن تحقق ابنته ما فشلت عمتها الأميرة كارلوتا في تحقيقه، ولكن ما حدث كان صدمة، ليس لأختي فحسب، بل لأبي أيضاً.

أدموند موريل

2–1

الاتهامات الموجهة للملك ليوبولد الثاني تزيد، والأصوات المطالبة بالتحقيقيات في جرائم قواته العامة في الكونغو لا يمكن لأحد أن يصمَّ أذنه عنها، وهذا الأمر يخيفني. فكيف لي أن أصدق أنه بُرّئ فعلاً كما يدّعي، أو كما ذكر التقرير الذي أعدته اللجنة التي كلفها لمتابعة ما يحدث في الكونغو، بعد تأكيدها عدم حصول أي جرائم هناك، وأن كل ما نُشر في الصحف البريطانية عن جرائم الملك ليوبولد الثاني في الكونغو ليس إلا افتراء؟

نظرت ليدي الملوثتين بجرائم لم ترتكبها، وارتجفت وأنا أفكر في أني أتحمّل بعض المسؤولية عما يحدث هناك، إن كان صحيحا، باعتباري أحد الموظفين في شركة إلد دمبستر، المسيّرة للرحلات البحرية من بلجيكا إلى الكونغو، وإلا فإن عليّ نفيه وتبرئة نفسي قبل الملك ليوبولد الثاني.

الصراع محتدمٌ في داخلي، والسؤال الذي ما انفكَّ يقف بوجهي، معترضاً على وقوفي مكتوف اليدين، دون حراكٍ يليق بجريمة إنسانية كالتي تحدث في الكونغو: ما سر شحنات السلاح المرسلة إلى الكونغو؟ ولماذا يؤكد الملك بصورة مستمرة أهمية المحافظة على سرية هذه الشحنات؟

حيّرني الأمر، فقررت البحث في السجلات القديمة للشركة التي أعمل فيها، والتي أبحر منها ما لا يُعدُّ من الرحلات إلى الكونغو، بل يمكن القول، بمعنى أدق، إنّ كل الرحلات أبحرت من خلالها.

كنت أبحث عما يزيد اطمئناني لتقرير اللجنة، ولكن ما حدث أن ما اكتشفته شككني أكثر فيما ذكرته تلك اللجنة، التي أكدت أن السكان يُعاملون بمنتهى الود، لكن القوات العامة تضطر أحياناً إلى إجبارهم على العمل لأن الأفريقيين كسالى، يرغبون في النوم طوال الوقت، ولا يمكنهم العمل إلا تحت تأثير السياط. ورغم ذلك تحرص حكومة دولة الكونغو الحرة على منحهم وقتاً مناسباً للراحة، كما أنشأت العديد من المدارس، والإرساليات، لتبشيرهم، وتعميدهم، ولكل عاملٍ مع الحكومة راتب يتقاضاه على عمله، وهذا ما لم يكن موجوداً فعلاً على أرض الواقع، كما أكدت السجلات.

سجلات شركة إلد دمبستر لم تكذب عليّ، بل أنبأتني بالحقيقة، حين كشفت عن الأرقام الحقيقية لعوائد خزانة الحكومة البلجيكية من الكونغو، التي لم يُعلن إلا عن القليل منها، بينما لم يُكتب في الكشوفات أين ذهبت تلك الأموال المفقودة. لكن المرء وبشكل بدهيّ لا يمكنه إلا التفكير في أن الملك هو من استولى عليها، لأن أحداً سواه لا يتجرأ على فعلها.

الملك ليوبولد الثاني ليس إلا مجرماً. هذا ما صرّحت به السجلات التي اتهمته مباشرة دون مواربة، فلا شيء يُرسل إلى الكونغو إلا السلاح بأنواعه، من بنادق، ومدافع، وكل ما يحتاجه المرء للقتل، وبعض الطعام الإنكليزي الفاخر، كالمربى، وعلب اللحوم المعلبة، والنبيذ، والتي لا بد أنها لرجاله، في حين يؤتى بالكنوز من هناك، ولم يصادف أن خلت

سفينة واحدة آتية من الكونغو من العاج أو الذهب أو المطاط، والكثير من العبيد المقيدين في السلاسل.

"ترى كيف يتم دفع ثمن هذه الكنوز، وكيف يتم الحصول عليها، إذا لم يكن ثمة عمال يذهبون للعمل هناك، ولا أموال، ولا بضائع تُرسل؟"

توجّهت بسؤالي إلى السير ألفريد جونز، لعلي أجد لديه تفسيراً يوضّح ما أشكل عليّ فهمه، لأن شركتنا هي الشركة الوحيدة التي تُسيّر الرحلات من بلجيكا إلى الكونغو، والعكس، فكيف يتم دفع ثمن هذه الثروات، دون أن نحمل في سفننا أي مال، أو موادّ قابلة للبيع، أو مبادلتها مع السكان الأصليين للكونغو؟

الملك لم يكن حاكماً نبيلاً للكونغو، لقد كان رئيس عصابةٍ، استولى على أراضيها بما فيها من بشر وحيوانات، وثروات طبيعية. هذا ما اكتشفته، ولم يجد قبولاً من السير ألفريد جونز، الذي تعرض لضغوط من الملك، بعد أن أطلعه على ما وجدته من معلومات، حرص الملك وأوصى في أكثر من رسالة ألا يطّلِع عليها أحد.

غضب الملك، وهدد بإلغاء التعاقد مع شركة النقل البريطانية التي أعمل فيها، فساومني السير جونز على سكوتي بترقيتي ونقلي إلى بلد آخر، لكني رفضت وقدّمت استقالتي.

لم أولد وفي فمي ملعقة من الذهب، فقد عشت طوال عمري فقيراً، واضطرت أمي للعمل لتنفق عليّ، وتُدخلني المدرسة بعد أن توفي والدي دون أن يترك راتباً تقاعدياً، أو أي أملاكٍ نتدبّر منها حياتنا.

عندما كبرت عملت أكثر من عمل، وقضيت أغلب ساعات يومي في العمل من أجل شراء دواء لأمي التي أنهكها التعب والمرض، ورغم حاجتي للمال، فلا يمكنني قبول شراء

دوائها بدماء الأفارقة المساكين التي تُراق هناك.

يكفي أن أفكر في أمي، لأتخيّل الأمهات اللواتي حُرمن من أطفالهن في الكونغو، وأولئك الأطفال الذين نشؤوا بعيداً من أمهاتهم، ثم أفكر في حالي لو أنني تعرّضت لما تعرضوا له، وحُرمت من أمي في طفولتي، ولم أجد يداً تمتد لرعايتي.

أعلم أنني أخسر المال الذي يخفف من ألم أمّي، التي تعبت من الركض بي في شبابها لتحميني من أعمامي، عندما أرادوا أخذي منها بعد وفاة أبي، لأعيش معهم في بريطانيا، على أن تعود هي إلى فرنسا، لأنهم غير قادرين على توفير مصاريفنا نحن الاثنتين معاً، فضمّتني إلى صدرها وهربت ولم أكن قد تجاوزت العامين حينها. حملتني والحزن يملأ قلبها على فقد أبي الذي أحبته، فتركت بلدها وأتت لتعيش معه، لكنها لم تكن تعلم أن الموت سيختطفه منها باكراً.

تحزنني آلام أمي، لكنها أهون على قلبي من موت طفلٍ بريء يُلقى من حضن أمه في العراء، ويترك ليموت، بينما تُجبر هي على حمل مُؤنة البلجيكيين، وجنودهم، بدلاً من طفلها، وإني لأثق أن أمي لن تقبل شرب ذلك الدواء الذي سأشتريه مقابل سكوتي عن حمولات الأسلحة التي تُشحن بشكل مستمر إلى الكونغو، ليُقتل بها الناس في سبيل ملء خزائن الملك ليوبولد الثاني.

ثمانية وعشرون عاماً كافية لأن أفهم ما يدور حولي، وأفعل ما يُمليه عليّ ضميري، لذلك قمت بمراسلة بعض الصحف التي عملت بها صحافياً مستقلاً سابقاً، إلا أنها رفضت نشر ما معي من معلومات، خوفاً من أن يرتدّ الأمرُ عليها، وتكسب عداء الملك،

بدلاً من أن تكسِب سبقاً صحافياً، وتنشر حقيقةً تفتح أعين البلجيكيين خاصة على ما يحدث في المستعمرة التي أخذها ملكهم له، ورمى لبلده الفتات من خيراتها.

خوف البعض من قول الحقيقة، لا بد أن يقابله حرص آخرين على نشرها، ومصالح كثيرة متعارضة مع مصالح الملك في الكونغو، وهذا ما دعاني إلى البحث عن رعاة لتأسيس صحيفة خاصة للتحدث عما يحدث في مستعمرة ليوبولد الثاني في أفريقيا، وكانت الصفعة الأولى للملك في صحيفة بريد غرب أفريقيا *West* African Mail، التي قالت كل شيء بصدق، مرفقة الأدلة على صدق ما تقول، ولأني ولدت لأب بريطاني وأم فرنسية، فقد ساعدني ذلك على التمكن من التحدث باللغتين بطلاقة، فنشرت الصحيفة باللغتين الإنكليزية والفرنسية، لأصل لأكبر عدد ممكن من الأوروبيين.

جمعية مكافحة الرق، وجمعية حماية السكان الأصليين، اكتشفتا أنهما خُدعتا بما كان يروّج له الملك ليوبولد الثاني، فانحازتا إليّ، وانهالت التبرعات لأتمكن من نشر كل الحقيقة التي يتطلب معرفتها أحياناً بعض المال لشراء المعلومات السرية والخطيرة، وسرعان ما وجدت الرسائل تصلني من كل مكان في أوروبا والكونغو أيضاً، بعضها جاء من باحثين عن الحقيقة، وبعضها من كارهين للملك، وحاقدين عليه، راغبين في الانتقام منه، وتوجيه ضربة قاضية له بعد خداعه للجميع.

أما البرلمان البلجيكي فقد اكتشف أن الأرض الفضاء التي يتحدث عنها الملك، ويقول إنها ملك للدولة باعتبارها أرضاً خالية، هي في الأصل ملك للقبائل، حيث تمتلك كل قبيلة منطقة معينة، سواء كانت تلك المنطقة مزروعة، أو أرض فضاء قد تكون للصيد، وفي الوقت الذي لا يمكن للرجل الواحد في القبيلة تملّك تلك الأراضي لأنها ملك لجميع

أفراد القبيلة، كان ليوبولد الثاني يأخذها لنفسه، بكل ما عليها من نباتات وحيوانات وثروات و"بشر".

اكتشف البرلمان أيضاً أن تلك الأرض لم تكن أرضاً فضاءً، بل أرضاً امتلأت بالخيرات، ولم ينل البرلمان من تلك الخيرات أي شيء، والغريب أن الملك كان يدعي دائماً حاجته إلى المال، مما يضطره إلى الاقتراض من البرلمان، ليضاعف أملاكه الخاصة، دون أن تعود بالفائدة على بلجيكا.

كلُّ ما نشرتُه من فظائع هذا الملك، وجنوده، لم يكن شيئاً يُذكر أمام ما رأيته في الصور التي أحضرها معهم المبشرون البريطانيون العائدون من الكونغو، والتي روت عن أطفالٍ بأيادٍ مقطوعة، وأرجلٍ مبتورة من الركبة، ونساء عاريات يحملن فوق ظهورهن أحمالاً تكاد تُلصِقُ وجوههن بالأرض، بينما تتدلى أثداؤهن دون أن يتمكنَّ من منع الحليب من التساقط منها، بعد أن أُجبرنَ على ترك أطفالهن الرُّضع لقمة سائغة للسباع.

اعتذر أولئك العائدون لأنهم لم يتمكنوا من فعل شيء هناك، لأن قوات الملك كانت تهددهم، وتُضيّق عليهم، لذلك لم يجدوا بدّا من الصمت، وقد وصفني أحدهم وهو روجر كيسمنت بالملاك الذي أرسله الله ليحرر أولئك المساكين، وتأسَّف لأنه عاش بينهم ما يقارب العشرين عاماً دون أن يخالطهم ليعرف ما يحدث، وكان كل عمله مستكشفاً مع ستانلي، ثم قنصلاً لبريطانيا يهتم بشأن البريطانيين هناك، ولم يهتم بالاطلاع على ما يدور حوله.

تضخمت ثروة الملك دون أن يسمح لأحد بسؤاله عنها، ولا عن تلك المستعمرات التي لا تفعل شيئاً إلا ملء خزائنه التي لا تمتلئ أبداً، لأنه كان أذكى من إظهارها، بل ادّعى

لفترات طويلة أنه مديون، ولا يملك المال الكافي لتنفيذ خططه التطويرية في الكونغو.

لم تحوّل يد الشيطان البحارة البيض إلى رجال سود كما كنا نقرأ في الأساطير التي حالت دون ذهاب الأوروبيين إلى أفريقيا قرونا، بل أخذتهم إلى هناك، وقطعت أعناق السود، وأياديهم، وأقدامهم، وأعضاءهم التناسلية.

لقد كانت هذه اليد بيضاء مائلة إلى الحمرة، تطول كثيرا حتى تتحول إلى طائر رخٍّ كبير يحمل بين أنيابه الأفارقة إلى الموت، بعد أن ينهكهم بأعمالٍ لا طاقة لإنسان بأدائها، وليس أصعبها جمع سلالٍ من المطاط، تحت تأثير الجوع، والجلد، والخوف على الأسرة المغيَّبة بعيداً في سجون أولئك البيض، الذين لا يعرفون ما يريدونه منهم، فإن كان ما يريدونه المطاط فقط، فلماذا يقتلونهم رغم أنهم يمنحونهم إياه.

الكثير من الأيادي بذرها الشيطان في تلك الأرض، ولم يعد لحصادها، تمادت في النمو وأصبحت تمسك بكل ما لا ينتمي إلى البياض، وتعصره بين أناملها، لتشرب دمه. تكاثرت وأصبحت كالنباتات الشوكية السامة، تتشابك أغصانها، وتملأ الأرض، والهواء، ولم يتخيل أحد أن يدا قد يبعثها الله لتجتز تلك الأيدي.

أما انا وكيسمنت فلم نعلم أننا كنا ندخل غابة مليئة بالضباع، وأن ما نفعله اليوم، مملوئين بنشوة الانتصار، ناظرين إلى الأطفال الأفارقة وهم يركضون مرةً أخرى في الغابات المطيرة، وإلى الأمهات المنتشيات بنمو أطفالهن، والرجال الكادحين في حقولهم، سندفع ثمنه بعد سنين عدة، حين نظن أن كل شيء قد نجح، وأننا بدأنا بنشر النور من جديدٍ في بقعةٍ مظلمةٍ أخرى من العالم.

على كل حال، وبعد رحلته الأخيرة التي هدفت إلى تقصّي الحقائق حول ما يحدث في الكونغو، وبعد أن رآها كما لم يرها من قبل، بوجهها البشع، الذي شوهه رجال الملك ليوبولد، ظلَّ كيسمنت يردد دائماً أنه لا يُمانع أن يكون شهيداً، وتُنصب مشنقته في سبيل أن يعود أولئك الناس الذين رآهم يموتون إلى الحياة، أو السماح لمن تبقّى منهم بحياةٍ يستحقونها كبشر. أتذكر الآن مقولته وأتعجب من قدرته على استشراف المستقبل، كأنه يرى أحداثه وهي تجري أمام عينيه.

بينتا

1–1

عندما رأيته أول مرة ظننتُ أنه فومبي، فلم يسبق أن أتى من خلف البحر إنسانٌ مثلنا. إن جميع من يأتون من هناك ممن خطف الشيطان ألوانهم قبل وصولهم إلينا، ولكن بقاء لونه على ما هو عليه جعلنا نفكر أن الشيطان غفر له دخوله إلى عالمه، وبالتالي فإنه لا بد قد منحه الكثير من القوى التي لا يملكها سواه، أو أنه غلب الشيطان في معركته معه، واستولى على قواه، بعد أن تركه هناك مقيداً في منزله في أعماق البحر.

كان هذا التفكير أول ما شجعني على الموافقة على طلبه الزواج بي، إذ كنت أبحث عن رجلٍ لا يشبه الآخرين، رجلٍ بميزاتٍ لا يملكها سواه، أتفاخر به بين فتيات القبيلة كلما اجتمعنا معاً، وأُنجب منه طفلاً يشبهه، يُصبح يوماً ذا شأنٍ بين الرجال، كوالده تماماً.

قبيلتنا ليست من القبائل الغنية، أو تلك المالكة للثروات، أو حتى تلك التي لها جاهٌ وصيتٌ بين القبائل الأخرى، فنحن نتبع قبيلة الباتوتسى، المسيطرة على الثروات والحيوانات، بينما لا نملك إلا زراعة بعض المحاصيل، وامتلاك صغار البقر، التي ما إن تكبر حتى نضطر لوهبها للموامى[3] ليرضى عنا.

[3] الموامى: رئيس قبيلة الباتوتسى.

تفرض قبيلة الباتوتسى سيطرتها علينا، ونضطر لمنح رئيسها جزءاً من محاصيلنا، لنضمن رضاه الدائم عنا، لأن غضبه يُبيح له إبادتنا، والقضاء علينا، فنحن وقبيلة الباهوتو نمثِّلُ طبقةً أدنى من طبقة الباتوتسى، ولا يحق لنا إلا العمل معهم، وامتلاك ما يفيض عن حاجتهم، أو ما يسمح لنا الموامى به.

الزواج من بينغا كان يعني الانتقال من قبيلة الباتوا إلى درجةٍ أعلى، باعتباره يملك المال الذي دفعه ليُصبح سيداً، له مكانته في قبيلة الباتوتسى، ومقربّاً من رئيسها، وكاهنها الذي ضمّه إلى القبيلة، ومنحه ما لأفرادها من حقوق، خاصة أن له علاقات مع الرجال البيض، الذين سيضمنون أمان القبيلة من بطش السطو الليلي، الذي لم تكد تنجو منه قبيلة من قبائل غابة إيتوري، مهما حاولت الهرب، أو الاختباء، إلا أنهم ينجحون دائماً في الوصول إليها، وسلب ممتلكاتها، أو حرقها وخطف أفرادها، وأحيانا قتلهم.

تزوّجت بينغا بعد خطبته لي بيومين، فلم نكن بحاجة لبناء كوخٍ للسكن فيه، إذ أهدانا الموامى كوخاً على طرف القرية، حيث تكثر أشجار الباوباب ذات الأوراق العريضة، التي ستحمينا من الأمطار عند هطولها، وستمنحنا الظل عند اشتداد الحر، واقتراب الشمس من الرؤوس.

المال الذي يمتلكه بينغا، جعله مقربّاً من رئيس القبيلة، فلا يملك المال إلا من يكون متعاوناً مع البيض، أو أحد رجالهم المقربين، أو تاجراً للرقيق. وأيّاً كان من هؤلاء الثلاثة، فإن أحداً لا يمكنه الوقوف بوجهه، لأنه يعلم أن خلفه من قد يُبيد من يعترض طريقه دون أن يشعر.

نحن هنا لا نملك المال، وكل ما نملكه المواشي، ومحاصيل نقوم بزراعتها، وبعض الأدوات التي نُصنِّعها، ونقوم بتبادلها مقابل بعض قطع الأقمشة، أو بعض المواد الغذائية الأخرى، ولا أحد هنا يتعامل بالمال إلا مع الرجال البيض القادمين من وراء البحار، أو في صفقات شراء السلاح الذي غالبا ما يكون بلا فائدة عند مواجهة البيض.

جاء بينغا من بلاد البيض، يرافقه رجلٌ منهم يُدعى فيرنر، ولم يوضّح أي منهما صلة القرابة بينهما. جلس فيرنر نصف يوم، ثم عاد إلى الميناء، حتى يتابع أعماله، قبل أن يعود مرةً أخرى إلى بلاده، تاركاً بينغا وحده معنا.

منذ اليوم الأول لزواجنا شعرت بأن شيئاً غريباً يسكنه، لا بد أنها روح الشيطان، هكذا فسرتُ الأمر، وأيّدته أمي بعد أن شكوت لها صراخه الليلي، واستيقاظه كل ليلةٍ وهو يبكي ويرتجف، ويستمر بالتحدث مع نفسه بلغةٍ لا أفهمها، لا تشبه اللغة التي نتحدث بها مع بعضنا في الأوقات الأخرى، وأظن بأنه يتعمد التحدث بها كي لا أفهمه.

قرر أبي أن يُقيم له موليمو[4]، إذ اعتدنا أن نقيم هذا الطقس كلما حدثت مشكلة، أو اعتقدنا بغضب الإله آغي علينا، وهو ما نشعر به يحدث مع بينغا، فعلى ما يبدو أن الإله آغي، إله الغابة، غاضب منه بسبب حربه مع الشيطان، أو صداقته مع ذلك الرجل الأبيض.

4 الموليمو: احتفال لطرد الأرواح.

جمعنا الطعام من كل الأكواخ في القرية لإطعام آغي، واختبأنا نحن النساء والأطفال في أكواخنا في تلك الليلة، بينما ذهب الرجال ومعهم بينغا إلى طرف القرية، وأشعلوا النار، ووضعوا حولها الطعام، وطلبوا من بينغا أن ينفخ في الموليمو، إيذاناً ببدء الاحتفال لطرد

الأرواح الشريرة من جسده، ثم استمروا بالرقص، وغناء الأغاني المقدسة حتى قُبيل شروق الشمس عندما عادوا تاركين الطعام، مهنئين بينغا على نجاته من سطوة تلك الأرواح التي تسكنه وسيطرتها.

لكنَّ شيئاً لم يتغير، استمر بينغا في الاستيقاظ كل ليلة، والعرق يتصبب من سائر جسده، أحياناً يبكي، وأحياناً أخرى يهبُّ واقفاً وكأنه يبحث عن شيءٍ ما لا يخبرني ماهيّته، لعلي أجده لو شاركته البحث.

أفتقد لإحساس العروس التي يجب أن تمتلئ أيامها الأولى بالفرح، والغناء، والرقص، والقرب الدائم من زوجها، فلا هو اقترب مني، ولا أنا تنعّمت بدفئه، رغم محاولتي الاقتراب منه كلما أظلم الوقت، ولكنه ظل دائماً يسألني بعض الوقت، لأنه نذر نذراً ألا يقترب من زوجته إلا إن حدث أمرٌ ما، وهو ما لم يحدث حتى تلك اللحظة، ولم يخبرني عن نذره أيضاً رغم إلحاحي عليه لمعرفته.

لم يرضَ الإله آغي عن بينغا، رغم ما قدّمه له، وهكذا لم يعد أمامنا إلا البحث عن عظام طفلٍ صغير، لعمل عقدٍ منه يلبسه، ليطرد الأرواح عنه، عندما تشتمُّ في جسده رائحة الموت، بعدما أوصى الكاهن بذلك.

لم يكن من الصعب العثور على العظام، فحيثما وطئت أقدامنا في الغابة، نجد العظام المتناثرة، نتيجة الغارات التي يشنها البيض علينا، أو تلك التي يشنها المجنّدون من زنجبار، أو قبائل الباكوبا أو البشليل، التي لا عمل لها إلا السطو على القرى، وقتل أهلها، أو اختطاف الرجال البعيدين عن قراهم.

ما إن رأى بينغا عقد العظام ذاك، حتى هاج وبدأ يقول بعض الكلمات غير المفهومة، وهو يتلمّس العظام واحداً واحداً، وكأنه يحاول التعرف على أصحابها، بينما كان الكاهن يردد بعض التعويذات التي ظن أنها نافعة لتُخرج الروح المسيطرة على عقله، قبل أن تسلبه إياه تماماً، داعياً أفراد القرية إلى التجمّع، والرقص حوله، ولكنه نبههم إلى عدم لمسه، أو الاقتراب منه، حتى لا تخرج منه، وتتلبّس رجلاً آخر منهم، ممن تمكنت زوجته من السيطرة عليه في الخفاء، فتحاشى جميع الرجال ملامسته، ولو عن طريق الخطأ، تاركين مسافةً كافيةً ليبقوا مطمئنين لعدم ملامستهم له.

كانت تلك أول ليلة يقضيها هادئاً دون أن يستيقظ من نومه، أو يصرخ، أو حتى يبكي إلى أن تنقطع أنفاسه، دون أن يتوقف، رغم محاولتي تهدئته، ليس بسبب تأثير عقد العظام، وصلوات الكاهن، بل لأنه لم ينم أصلاً، وظل مستيقظاً يُحدِّق في العظام كأنها لأبنائه.

في صباح اليوم التالي، أتى ذلك الرجل الأبيض الذي رأيناه مع بينغا أول مرة، وجلسا يتحدثان بتلك اللغة التي لا تشبه لغتنا. وما هي إلا لحظات حتى بدأ بينغا بالبكاء، وهو يُريه عقد العظام الذي لم يُفارق يده منذ أعطاه إياه الكاهن.

لأول مرةٍ أرى رجلاً ضعيفاً إلى هذا الحد، رجلاً يستيقظ من نومه فزعاً، وهو يتصبب عرقاً، كأن أسداً يجري خلفه، يبكي لأسباب لا أعرفها، وفوق هذا كله لا تُغريه المرأة التي شاركته الكوخ شهرين كاملين، رغم أنها من أجمل بنات قريتها، ولم يبقَ من رجالها من لم يحاول التودد إليها، ورفضتهم بانتظار رجلٍ يستحق جمالها، وظنّته بينغا، إلا أنها اكتشفت أن جمالها لم يُقدّر له المساس من قِبل هذا الرجل الغريب.

غريب بأطواره، كغرابة هيئته التي حضر بها، بتلك الملابس التي لا يرتديها إلا أولئك البيض القادمون من خلف البحر، ورغم أنه خلعها بعد وصوله إلينا، فإن تصرفاته ظلت مختلفة تماما عما اعتدناه، ولا يمكنني استثناء حديثه الغريب مع ذلك الرجل الأبيض من مجموعة عاداته الغريبة، وإن كنت سأتغاضى عن كل تلك العادات، فإنني لا أستطيع التغاضي عن انصرافه عني.

كغيري من الفتيات حلمت برجلٍ يتلذذ بقطف ثمار أنوثتي، رجل أنسى بين يديه أني على الأرض، يوصلني السماء، وأشاركه الركض بين الغيوم، والاحتفال مع المطر بقوس قزح، قبل أن يجمع ألوانه ويرحل ضاحكاً ونحن نلوح له ليعود بسرعة.

كقوس قزح ظهر بينغا في حياتي، ملأها بالفرح لوقتٍ قصير، وحين انتبهت وجدت الأرض زلقة أسفل قدمي، كلما حاولت التقدم وقعت، وكلما فكرت في الركض غاصت قدماي في الوحل أكثر، لم أستطع أمامه إلا الوقوف، والانتظار لعل يداً من السماء ترمي بذرةً تحمل اسمي، لتنمو في صدره قبل أن تجف الأرض المبللة بالمطر.

الصمت عما يحدث لن يأتي بنتيجة، هذا ما تيقنت منه، فقررت التحدث إليه، للوصول إلى حلّ ينهي معاناتي معه، ولكني عندما دخلت إلى الكوخ، وجدته يرتدي تلك الملابس التي أتى بها، مُعلناً قرار رحيله بلا عودة، ناهياً الزواج بيننا، وكأن زواجاً ما كان بيننا أصلاً.

اعتذر لأنه لم يكن الزوج الذي أستحق، وأعطاني بعض المال الذي سيُغري الكثير من رجال قبيلة الباتوتسى للزواج بي، وتعويضي عما عشته معه من حرمان، وخوف، وإحباط، كأنه بما منحني من مالٍ سيعيد المكان الذي ملأه في قلبي فارغاً، لأملأه بغيره.

نظرتُ إلى المال الذي وضعه في يدي، وتحسست ملمسه القريب من أوراق الأشجار الخالية من الغضاريف الخشنة، وكأنها انتُزِعت منها ثم مُسحت بالزيت، ودُهنت ببعض الأصباغ. لأول مرةٍ أملك مالاً، لكنه بلا قيمة، ولا يحمل في طيّاته الفرح، ولا شعور الدهشة الأولى، ولن يتمكن من إعادتي إلى ما كنته قبل قدومه إلى قريتنا، حين كنت أطوي الليالي راقصة على دقّات طبول شباب القبيلة، وتصفيق فتياتها المنتشيات.

تذكرت متحسرة احتفالات عيد العسل التي أشارك فيها رجال القرية ونساءها، حيث نؤدي أكثر الرقصات جاذبية وسعادة، محتفلين برقصة العسل بعد أيام من تناول العسل، فنمثل نحن النساء دور النحل، مشكّلات حلقة داخلية حول النار، ونصدر أصواتاً أشبه بطنين النحل، بينما يشكل الرجال حلقة خارجية ودائرة في الاتجاه المعاكس، وشيئا فشيئا يقتربون منا بحجة طلب العسل فنلتقط أغصاناً مشتعلة من النار، ونهددهم بها، لتذكيرهم بأخطار لسعات النحل. وقبل أن أبتسم للذكريات هويت إلى واقعي، بكل ما فيه من ألم وخيبة أمل.

الأمر أشبه بأن يمنحك أحدهم مالاً لتتقبل الرمح الذي سيغرسه في صدرك، وتشكره عليه، بل عليك أن تبتسم لحظة إحساسك بالألم، وقد يتعين عليك مصافحته عند اقتراب روحك من أعلى حنجرتك، لتمنحه وداعاً يليق بسيدٍ محترم.

أعدت له المال، ولكنه عاد ووضعه في صندوق حاجياتي الخاصة، قبل أن يخرج من الكوخ دون أن يحمل أي شيء معه، لذلك لم أُصدّق ما قاله عن رحيله، وظننت أن الأمر مجرد كذبةٍ سيعود لي بعدها معتذراً، ويحتضنني حين يجدني أبكي، وهذه ستكون الشرارة

الأولى لاشتعال العاطفة بيننا، ولكن ذلك لم يمنعني من المشي خلفه دون أن ينتبه إلى أن وصل إلى الساحل.

يحدث أن تكون قاب قوسينِ أو أدنى من الفرح، أن تشعر أن كل شيء على ما يرام، وأن أقدامك لا تحطّ بك على الأرض من فرط السعادة، وفجأة تتعثّر بحزنٍ عظيمٍ يكسر قلبك، يوردك الموت من حيث لا تحتسب، وهذا كان اختصار علاقتي ببينغا، منذ لحظة وصوله حتى رجوعه إلى الميناء.

كان الرجل الأبيض ينتظره. لم يطل وقوفهما معاً، ولم يلتفت أي منهما قبل أن يصعدا إلى المركب الكبير الراسي هناك، ويغوصا بداخله، حيث سيأخذهما إلى المكان الذي قدِما منه.

تأكدت أنه لن يعود، وأن ما قاله لي لم يكن مزحة، وأن عليّ الاعتياد منذ اللحظة على العيش بقلبٍ فارغ، وأن آتي إلى الميناء كل يوم لعلّ ريحاً تأتي به ذات يوم، أو لعله ينجح في طرد الشيطان الذي سكن جسده، وأجبره على الرحيل. نعم، لم يكن آغي الغاضب منه، كان الشيطان الذي نجح أخيراً في السيطرة عليه.

بينغا

6–6

بعض العداوات لا تعلم كيف اكتسبتها، ومتى، ولا أين. تجد نفسك في حرب أنت طرف فيها دون أن تعلم فعلا لماذا. تضطر للدفاع عن نفسك، ولا تملك القدرة على الهجوم رغم أنهم يقولون إنه أفضل وسيلة للدفاع، ولكنك لا تعلم كيف تفعلها، أو ما الذي يجب عليك الدفاع عنه.

لا خيار بيدك لتتوقف، ليس لك إلا المضي حيثما تأخذك الريح، كمركبٍ تائهٍ لم ينجح في امتصاص غضب نهر كاساي منه فاستسلم له، ورغم أنه سأله المغفرة كثيراً، إلا أنه لم يكن يسمعه، وكأنه كان بحاجة إلى وسيطٍ بينهما، كالقس جوردون، الذي أخذني إلى ميتم هاورد، بعد أن أخرجني من حديقة حيوان برونكس، وأصبح الوسيط بيني وبين الرب الذي لم يقبل وساطته، وظل مصراً على معاقبتي بقسوة على بقائي حيّاً بعد رحيل كل الذين أحببتهم.

في ميتم هاورد رأيت أشياء أراها للمرة الأولى، كالسرير الذي طُلب مني النوم عليه، ثم وجدت شبيهه في منزل عائلة ماكاري، والذي رغم ليونته لم يمنحني تلك الهدهدة الدافئة لأرجوحة النوم، ولا شممت بداخله رائحة الأرض المنبسطة، ولا الأوراق المتيبسة، والمتكسرة

أسفله، ولا اضطررت لتكوير جسدي الضئيل عليه كما كنت أفعل عندما يفيض عن جلد الحيوان الذي أفترشه على الأرض.

اللطف الذي أحاطتني به عائلة ماكاري لم أجده إلا معها، ولكني لم أتمكن من اعتبارها عائلتي، فكيف لرجلٍ ترى فيه صورة قاتل أبيك أن تحبه كأبيك، وهكذا كنت أرى كلَّ رجلٍ أبيض قاتلاً، وكل يد تمتد لمصافحتي ينبت بين أصابعها السلاح، حتى إنني خفت من حمل القلم أول مرة عندما ظننته أداةً للطعن.

اليد التي كانت تُطلق السهام، لتصطاد الضباء، أصبحت تُطلق الحبر لتكتب الحروف، بعد أن تعلمت الكتابة باللغة التي يتحدثون بها هنا، كما تعلمت التحدث باللغة ذاتها، رغم أنني كنت أظلُّ صامتاً أغلب الوقت، غير معنيٍّ بالأحاديث الدائرة حولي.

لا أجيد مشاركة الآخرين أحاديثهم، فما يهتمون له يختلف عما يثير اهتمامي، وغالباً يتحدثون عن أشياء لا أفهمها، كما أجد نفسي مضطراً للحديث عن حياتي التي كانت، وكيف أتيت إلى هنا. حتى عندما عملت في مصنعٍ للتبغ، كانوا يُثنون على قدرتي على التسلق، عندما أصل للمخازن العلوية وبشكل سريع دون الحاجة لسلم، ويشبهونني بالقرود، ليعيدوني لأمي التي شبّهتني بها من كثرة تسلقي للأشجار في صغري، وللقفص الذي تشاركته مع دونغ وزوجته ساندي في حديقة حيوان برونكس.

حاولت التأقلم مع هذه الحياة، ولكني فشلت. فقد أتيت من عالَمٍ لا يشبه هذا العالم. حتى الملابس التي أرتديها تخنقني، تمنعني من مد خطوي والجري حيث لا يلحقني أحد. وكلما فكرت بخلعها تذكرت أنهم أخبروني ألا أفعل ذلك أبداً، لئلا أتعرض للمساءلة، لأن ذلك سيُعتبر نوعاً من الخروج على الذوق العام.

لا أفهم ما قصدوه بالذوق العام، ولكني فهمت أنه يتوجب عليّ ارتداء تلك الملابس طوال الوقت، فلم أخلعها إلا وقت نومي، عندما أُغلِقُ باب الغرفة التي أقطنها لدى عائلة ماكاري، فأنام عارياً إلا من قطعة قماشٍ ألفُّها حول أعضائي، خشية أن يأخذني حلمي إلى غابة إيتوري، وتراني عائلتي أرتدي تلك الملابس، ولا تغفر لي فِعلتي.

"أريد العودة"

أخبرت السيد فيرنر، عندما أتى لشراء التبغ من المخزن الذي كنت أعمل فيه، وبعد إلحاحٍ مني أعلمني أنه سيذهب إلى الكونغو في رحلة عمل قصيرة:

"يمكنني أخذك معي"

أنا حرّ الآن، لم أعد ملك أحد. يمكنني الذهاب حيث أريد، وأنا لا أريد إلا العودة إلى الكونغو، وبدء الحياة من جديد، ونسيان ما مضى، وكأن شيئاً لم يحدث، لكني لم أكن أعلم أن الحلم الذي لا يهتم به أحد، سيكون القدر أول من يقف في طريقه، ويحاربه محاولاً إعاقته، فضربت السفينة التي حملتني إلى الكونغو عاصفةٌ لم أشهد مثلها من قبل، لتمنعني من الوصول، ولكني لم أكن لأسمح لها بذلك.

تمسّكت بالسارية والموج يضربني، وحين شعرت أن قواي بدأت تضعف، ربطتُني إليها، لعلي أتمكن من مقابلة الشيطان وجهاً لوجه، أو أذهب إليه في عمق المحيط، وأنتقم لكل أحبتي الذين رحلوا على يد أعوانه الذين بعثهم إلى غابتنا المسالمة، ولكنه لم يأتِ ولم يأخذني إليه.

زمجرة الرعد تطوف بي حول نهر كاساي، حيث شلالات موسي أوا تونيا، الغاضبة دائماً، حتى إنّ المرء لا يسمع صاحبه إن حدّثه من قوة هديرها، ولكني تعمدت ألا

أتحاشاه، أو أهرب من مواجهته كما كنت أفعل خشية أن أنزلق، فتجرفني الشلالات، ولا أعود أبداً.

يومان وأنا مربوط إلى السارية، والموج يلعق جسدي كضبعٍ جائع. لا يفرق الليل عن النهار، فلا شمس تُشرق، ولا قمر يبزُغ، ليس إلا الغيم بسواده الدامس، والبرق المتسلل من بين ثناياه. وكما ينتهي هدير الشلالات ببحيرة هادئة، يمكن السباحة فيها، وعبورها بسلام، انقضت تلك العاصفة بهدوء استثنائي، وبدأت بالانسحاب، تاركة خلفها السفينة بمن فيها يحاولون تصديق المعجزة التي حدثت، وأنقذتهم من الغرق.

عندما وطِئت قدماي أرض الكونغو، عاد كل شيء، القيود والسلاسل التي تحز قدمي، حتى إنني لم أتمكن من السير إلا بخُطىً وئيدة، وأكثر من مرة سقطت على الأرض حين كنت أتعثر بأقدامي، فيساعدني السيد فيرنر المستغرب مما يحدث معي، إلا أنني كنت أُبعد يده التي كانت تدفع ثمني لرجال قبيلة البشليل.

بعد وصولي انضممت إلى قبيلة الباتوتسى، فوجدت ترحيباً من الموامى موالابا، وعرض عليّ الزواج بفتاة من قبيلتهم، قبل أن يأخذني إلى الكاهن لأخذ مشورته، وكسب رضاه، واستشارته في الفتاة التي سأتزوجها، لكن الكاهن ارتأى ضرورة إقامة احتفالية اختيار العروس المناسبة لي.

طوال يوم كامل كنت أشارك الرجال الرقص حول نيران القرية على وقع الطبول، ملوحين بالخشاخيش، بينما رافقتنا النساء بالأغاني من بعيد. وبعد الانتهاء من الرقص، خرج الكاهن من كوخه، وبدأ بالهلوسة والرقص على ركبتيه على وقع الطبول المتسارعة ضرباتها باستمرار، يحيط به كل الرجال، ثم تقدم راقصاً باتجاه النار حتى وصل الى الموقد،

وهناك أمعن النظر في الجذور الملتهبة وانتابته رعدة شديدة بتأثير من الرقص والحرارة، فاستشف صورة الفتاة التي سأتزوجها ثم سقط أرضا، وقد أصابه التخشب.

في اليوم التالي قال إنني يجب أن أتزوج فتاة من قبيلة الباتوا، الموالية لقبيلة الباتوتسى، وحدد فتاة بعينها:

''بينتا''.

لن أجد فتاةً تناسبني مثلها. إنّ تشابهنا غريب، حتى إن اسمينا لا يختلفان إلا في حرفٍ واحد، لكنّ الكاهن لم ينتبه إلى أهم اختلافٍ بيننا، فبينتا مفعمة بالحياة، بينما أنا فاقدٌ لها، أو ربما لهذا السبب ارتأى أن واحدنا يُكمل الآخر.

الموامى لا يُقدِمُ على أمرٍ حتى يُقرّه الكاهن، وهكذا اختار الكاهن الفتاة التي ستكون زوجتي، وستحل محل بيلا، مؤكداً أنها الوحيدة التي ستُنسيني كل ما حدث معي، وسأولد في كوخها من جديد.

لكن ما حدث أنني أنا الذي انتزع بينتا من حياتها المفعمة بالسحر، والعنفوان، إلى حيث لم يكن معي إلا بيلا، وتركتها ضائعة، تنظر إلى أمسها فلا تملك العودة إليه، وإلى غدها المعتم في وجودي، وبدلا من أن أولد معها من جديد، دفنتها معي وهي حية، ولم أرأف بشبابها، كما لم تنجح في إغوائي بفتنتها.

الأمر الوحيد الذي شاركتُها فيه كان الحزن، عندما مات والدها، بعد الموليمو التي أقاموها لي بأيام عدّة، ولم يتبقَّ لها في الحياة سواي. أخذته مع رجال القبيلة إلى وسط الغابة، وهناك قام الكاهن بقطع عنقه، ثم طلب مني سكب الماء إلى جوفه لتنظيفه،

باعتباري الرجل الوحيد المتبقّي من عائلته، فالنساء لا يحتملن رؤية ما يحدث لأحبتهن الراحلين، لذلك يبقين في أكواخهن.

بعد الانتهاء من تلك المراسم دفنته بمشاركة رجال القبيلة جميعهم إلا الموامى والكاهن الذي كان يقرأ بعض الصلوات التي ستُرافق روحه إلى حياتها الأخرى، ثم عُدت إلى بينتا، وأخذتها في حضني وبكيت، لم أبكِ والدها، ولكنني بكيت أبي، وأمي، وبيلا، وموبوتو، ابني الذي لم يُكمل العامين، وصغيرتي مولاسي.

لم أعرف والد بينتا كما يجب، كما لم أعرفني بعد عودتي من أميركا، وكأن رجلا لا أعرفه عاد إلى أرضٍ كان يُقسِم أنه خُلِق منها، فأنكرته، وطردته. وكل تشبّثه بها لم يُجدِ نفعاً لتغفر له رحيله الذي لم يكن له فيه يد.

لم أكن أعلم وأنا أقرر العودة إلى الكونغو أن من يرحل لا يعود، وأن الأوطان كالبشر، تنسى وجوه الراحلين، ولا تتذكرهم إلا وهم غارقون في البعد، وأن الدمع يمسح الوجوه من الأعين، لذلك لا تعرفهم عندما يعودون، وهكذا لم تعرفني الأرض، ولم تتراقص الأشجار، ولا مياه النهر غنت فرحة بعودتي، فعلمت حينها أنني لم أعد، وأن العائد شخص آخر اسمه بينغا.

لقد حاولت التأقلم مع وضعي الجديد، ولكني لم أستطع، ولم يكن من العدل الاستمرار في إيذاء بينتا، وكان عليّ التوقف، وقبل أن تطلب مني ذلك، وجدتني أسِرُّ للسيد فيرنر بأمر.

"أريد العودة"

الطلب ذاته، والوجهة اختلفت. أشعر أنني غير قادر على البقاء في الكونغو، كل ذرة هواءٍ أتنفّسها تذكرني بعائلتي. كيف لي ألا أغرق في الدماء الفائرة من أجسادهم، وكيف لصدى ضحكاتهم ألا يحملني كالمسحور إلى حيث ودعتهم، ولا أجدهم؟

لم تُجدِ صلوات الكاهن في أخذي إلى حضن بينتا، فقد كانت بيلا تقف بيننا دائماً. كلما نظرت إلى بينتا رأيت بيلا غارقة في دمائها، وكلما استسلمت للنومٍ بعد صراعٍ طويلٍ مع الأرق رأيتهم يهربون من الرصاص، وهو يجري خلفهم، وأنا أجري خلف الرصاص لأُمسكه قبل أن يُصيبهم، فلا ألحق به.

أسقط على الأرض، ويتساقطون أمامي، أحاول الصراخ فلا أستطيع، أظل أصرخ وأصرخ، والصوت ينحشر في حنجرتي، حتى إذا ما أوشكتُ على الاختناق، انطلق كله دفعةً واحدة، فتستيقظ بينتا مذعورة من نومها، تنظر إليّ وأنا غارقٌ في دمعي، لا حيلة لي إلا البكاء كما لم تبكِ هي ذاتها يوم وفاة أبيها، أو يوم هجرتُها دون أن أسكب في أذنها عذراً واحداً يغفر لي ما فعلته معها، أو يشرح لها سبب ابتعادي عنها، وأن الذنب ذنبي وحدي، ولا دخل لها به، لذا عليها ألا تلوم نفسها، وأن تبدأ من جديدٍ، وتنسى أن رجلاً يُدعى أوتا بينغا أتى إلى قريتها يوماً، وعبث بحياتها، ورحل، وكلاهما يعلم أنه لن يتمكن من العودة وإن رغب في ذلك، لأن موت والد بينتا يعني أن الغابة تطلب منهم الرحيل من ذلك المكان، فإن عدت يوما لن أجد القبيلة، ولا بينتا.

هذه المرة أعلم ما أريد، وأعلم أن غابة إيتوري لم تستقبلني كما يجب لأنني لم أقدم قربان عودتي إليها، لذلك كان لا بد من الرحيل، وتقديم قربانٍ يليق بعودتي إليها، وهذا ما سأفعله.

لم يطُل بي المكوث في منزل عائلة ماكاري بعد عودتي من الكونغو. ففي أحد الأيام اتجهت إلى غابة مونونجاهيلا، ومضيت أتبع موبوتو ومولاسي، اللذين كانا يتقافزان خلف بيلا وهي تعد لهما حلوى درنات الميهوت، ورغم تسارع خطواتي إلا أنهم كانوا يبتعدون، كلما ظننت أني كدت أقترب، وهكذا وجدت نفسي أترنح وحيداً في الشارع، كورقة صفراء ذابلة، تتشبث بكل ما أوتيت من رغبةٍ في الحياة بشجرة يبست منذ سنين. تدور حولها الريح فلا تنتزعها ولا تتركها ساكنةً في غصنها، وقد آن لهذه الورقة أن تستريح.

كم عمري الآن؟

أنا حقاً لا أتذكر. كل الذي أذكره ذلك الصغير الذي يركض خلف الضباء ويتسلق قمم الأشجار، ذلك الصغير كبر بما يكفي ليركضَ خلفه الموتُ ويتسلّقَ جسده.

أوقدت النار في غابة مونونجاهيلا، ناراً صغيرة بقدر ما يكفي لأدور حولها، وأنا أردد صلواتي، وأسترجع ذكرياتي، وحنيني إلى بيلا، وأطفالي، ناراً كلما هدأت أطعمتها حطباً لتظل مشتعلة كأختها التي لم تهدأ يوماً في صدري.

الغابة صامتة، تترقب النار التي تخبو وتثور، كما تترقب صوت الرصاصة التي ستخرج من المسدس الذي أخذته من خزانة السيدة ماكاري دون علمها. لا تعلم لأي طائرٍ مسكينٍ ستنطلق، ولا أي روحٍ ستُحرّر من أسرها.

نبتت الكثير من الأيادي المبتورة حولي، رقصت معي حول النار المتّقدة، الأمر الذي جعلني أفكّر: ماذا لو أن هذه الأيادي المبتورة اختارت المشي في الطرقات، وجربت مصافحة الباعة المتجوّلين، والحمّالين، ومنظفي الشوارع، والمشردين، والراغبين في الموت؟ ماذا لو أنهم جميعهم صافحوها بحرارة، وطلبوا منها البقاء. هل ستبقى؟ أم أنها ستختار

الرحيل، باحثةٍ عن أيادٍ أكثر بؤساً لمصافحتها؟ ماذا لو أنها صادفت أحد رجال القوات العامة، هل ستُبتر مرةً أخرى؟

ألجمني السؤال الذي بزغ فجأة في رأسي، وشعرت برجفة تسيطر على جسدي بأكمله بينما كانت النار موشكةً على الانطفاء، ممرّرةً لمعتها الراقصة عليه. ككل شيء في هذه الحياة، نبدأ متوهّجين ولا نلبث أن ننطفئ، ندخلها خِفافا أنقياء، بلا ذنوب، ولا هموم، تتلقّفنا الأيدي من فرط خِفّتنا، ويطوّح آباؤنا بأجسادنا في الهواء وهم يلاعبوننا، ولا نخشى السقوط، لأننا نعلم أننا نملك أرواحاً حرةً كالعصافير، لها السماء باتساعها، وأجنحة شفافة لا يراها أحد، تُحلِّق بها كلما أوشكت على السقوط.

يوماً بعد يوم، وحزناً بعد آخر، يزداد ثقل أرواحنا، حتى نظن أنها لن تقوى على الرحيل يوما ما من فرط ثقلها، ولكن الذي يحدث أنها تنفض كل ذلك الثقل في أجسادنا، وترحل خفيفة كيوم ولدنا، لذلك تصعد أرواحنا إلى السماء عندما نموت، بينما تسقط أجسادنا على الأرض.

الفصل السادس

قد لا تكون الحياة عادلة دائماً، لكنها حين تفعل ذلك، فإنها تفعله بالشكل الذي لا تتوقّعه، وفي الوقت الذي لا تنتظره.

ليون روم

2–2

الثورة التي قامت بها قبيلة الياكا لم تكن مفاجئة، فأولئك الحمقى يثورون كل يوم، رغم القتل الذي يطالهم، والذي لا يفرّق بين كبير وصغير، أو رجل وامرأة، بل إننا أحيانا كنا نقتل أحد الثوار وكل من يصادف وجوده بالقرب منه، لكن المفاجأة كانت في الثورة التي قامت بها قبيلة مبوتي، تلك القبيلة المؤلفة من أشباه الأقزام، بأجسادهم القصيرة، وأسنانهم المدببة، التي لم يحاول رجالها الثورة ولو لمرة واحدة، بعد أن رأوا تعاملنا مع كل من يحاول الاعتراض على أي أمر يطلب منه.

سحبنا أكثر من نصف القوات العامة المسيطرة على قبيلة مبوتي لإخماد ثورة قبيلة الياكا، ولم نتخيل قطّ أن تلك القبيلة الهادئة كحية ظلت تراقب الوضع، وانتهزت الفرصة المناسبة للانقضاض على فريستها، وخلال يومين كانت قد فرت بالأسلحة، مُخلّفة جنودنا قتلى، ومن فرّ منهم وأتى ليُخبرني، حكمتُ عليه بالإعدام جلداً بالشيكوت، ليكون عبرة لسواه بألا يفر من أيّ معركةٍ يخوضها، لأن الموت مصيرُ كلّ جبان، أما قبيلة مبوتي فلن تفلت من العقاب طال الزمان أو قصر.

ثلاثة أعوام، وعيون رجالي تبحث عنهم، لا يحلّون بمكانٍ حتى يرحلوا عنه، ولا نكاد نعرف موقعهم، ونذهب إليه، حتى نجدهم قد غادروه، ولولا تفكيري في العار الذي

سيلحق بي بسببهم، وأنهم سيصبحون مثلاً يُحتذى به بين القبائل الأخرى، لتغاضيت عما فعلوه، بدلاً من إهدار الوقت والجهد في البحث عنهم دون طائل.

قررت منح بعض الذهب لمن سيرشدني للوصول إليهم، فلمعة الذهب تُخضِع أقوى النفوس لسطوتها، ولكني تراجعت بعد أن تذكرت كونتا القابع في حضيرة الخنازير، برفقة حبيبته التي أعادته لي صاغراً بعد فراره من القبيلة أثناء جمع المطاط، عندما نقص محصوله، خوفاً من أن تُقص رجله من أعلى الركبة، كما توعّدهم رجالي.

بعد فراره اقتيدت زوجته إليّ، كانت صغيرة، وخائفة، ولكن ذلك لم يُخفِ جمالها، وبعد أن شبعت من التمتع بحُسنها، وضعتها في حضيرة خنازير قريبةٍ من داري، لتكون تحت بصري، وطلبت من رجالي تقييدها بالسلاسل كي لا تقوى على الوقوف، وهي تُزيّن جيدها النحيل.

لا أحد يهرب من يد ليون روم إلى الأبد، وكونتا لن يكون مختلفاً عمن سواه، ومن يهرب مغرورا بقدرته على النجاة مني، سيعود ذليلا يركع أمامي، وهذا ما حدث مع كونتا الذي أتى يرجوني للإفراج عن ميتيو، وأخذه بدلا منها.

أووه، يا للمسكين. لقد كِدت أشفق عليه، وأطلقهما معاً، لولا أن ذلك سيعني أن رجلا آخر سواي يقرر ما يجب حدوثه.

ما إن مَثُل بين يدي، حتى أمرت بالسلاسل لتلفَّ حول جسده، ثم طلبت من رجالي إحضار ميتيو، وتنظيف جسدها من فضلات الخنازير. وإمعاناً في إهانته، وطأتها أمامه، ثم بصقت عليه بعدما انتهيت، وهكذا كل يوم حتى مللت، وقررت التخلص منهما، لكنّ شيئاً ما جعلني أفكر أن الاحتفاظ بهما خير من التخلص منهما.

تتلوّى ميتيو في روث الخنازير أمام عينيه ليل نهار، والسلاسل تأكل من جسدها المثير، وإن ارتفع صوتها بالتأوّه أخمده الشيكوت الذي ينزل على جسدها كمخمورٍ وجد أنثى عارية في سكةٍ مُظلمة، وكلما طلبت الطعام أو الشراب بإشارة ضعيفةٍ من يدها، أجبرناه هو على الأكل والشرب حتى يفيض الماء من فمه، إمعاناً في تعذيبهما.

انصاع أخيراً لطلبي منه، وأخبرنا عن الطرق التي يُحتمل أن تسير فيها قبيلته، فهي دائمة التنقّل، من قبل أن نصل إليهم، يبحثون عن النباتات الصالحة للأكل، والحيوانات التي يمكنهم صيدها، وبدلا من أخذ الحيوانات إلى قراهم، ينتقلون للسكن حيث اصطادوها هرباً من قبيلة الباسوكو آكلة اللحوم، خشية أن تفاجئهم، وتنال منهم.

منحته فرصة النجاة بنفسه، وأخذ زوجته معه، إن أخبرنا عن الطرق التي قد تسلكها قبيلته، ففعل أملاً في النجاة مما هو فيه، فكان له الفضل العظيم في الوصول إليها، وإبادتها، حتى أضحت كأنها لم تكن يوماً شيئاً يُذكر، وحين وصلني الخبر، نقلته إليهما، وشكرتهما على خدمتهما لي طوال فترة مكوثهما عندي، ثم أطلقت رصاصة طيبة على الجميلة ميتيو التي لم تعد كذلك، بعد أن غطى الرَّوث وجهها، وجسدها، لتريحها مما هي فيه، وتركت كونتا لصراخه حتى سئمت من إزعاجه لي، فأهديته رصاصة عبرت رأسه بعد يومين من مقتل زوجته.

لو كان الأمر بيدي لأبدت جميع القبائل التي تسكن هذه البلاد، ليس لأني أحب القتل، ولكن القبائل هنا هي التي تستفزني، فهم يثورون كل يوم، ولا يردهم شيء رغم أني جربت كل أنواع العقاب على القبائل الثائرة، وأنا متأكد بأن ثورة قبيلة السانجا لن تكون آخرها، تلك القبيلة التي أضرمنا النيران في مدخل كهف تشاماكيل الذي اختبأت فيه

ليستسلموا، ولكن أفرادها آثروا الموت داخل الكهف الذي حاصرته نيراننا ثلاثة أشهر بدلا من الاستسلام، وأخيراً هدمناه عليهم ليكونوا عبرة لغيرهم.

الحياة في الكونغو تجعل منك إنساناً مختلفاً عما كنته قبل مجيئك إلى هذا البلد الممتد كساحةِ حربٍ أبديةٍ بين الشيطان والرب. هنا يختلف إحساسك بالأمور، كما يختلف تقييمك للأشياء، والأحداث، فالمشاركة في معركة كالمشاركة في حفلٍ موسيقيٍ راقص، وقتل رجل كالاتّكاء على وسادةٍ ناعمة، لذلك لا تشعر بالفرق بين الموت والحياة، كل ما تفكر فيه الخروج منتصراً في كل مرة.

عندما أتيت إليها كنت أفكر في البقاء حتى أجمع لي رأس مالٍ أبدأ به مشروعاً تجارياً يضمن لي حياةً كريمةً لم أنعم بها في طفولتي وصِباي، ولكني حين رأيت الكونغو وأهلها، بقطع القماش التي يلفّونها حول أوساطهم، فكرت في التراجع وظننت أني لن أتمكن من الثبات طويلاً.

لا شيء هنا سوى ما يوحي بالفقر، والجوع، بدءاً من الأجساد النحيلة، والعارية إلا من قطعة قماش تتدلى على وسط الرجل، لتغطي عورته فقط، بينما تغطي النساء من صدورهن أقل مما يُظهرن، وأوساطهن كذلك.

افتقدت رؤية المباني التي اعتدت عليها، والنوم على سريرٍ كالبشر، والنساء الشقراوات، والملابس المنسدلة على الأجساد بفتنةٍ آسرة. لم أتوقع أن أبقى، وظننتُ أني سأرحل في أول رحلةٍ تتجه إلى بلجيكا، ولكن الصلاحيات التي أُعطيت لي، أيقظت ذلك الشيطان النائم في داخلي، والراغب في الانتقام من كل أحد، وإن كان غير مَعنيّ بما عانيته في

طفولتي؛ فكان على الجميع تجربة لسع السياط، وطعم الجوع، والتوسل لنيل لقمة قد تكون باردة، أو جافة، أو حتى فاسدة.

بعد فترةٍ قصيرةٍ من الوقت تأكدت أنني لن أعود إلى بلجيكا، ليس لأنني لا أستطيع، بل لأنني لا أريد، فلا أجمل من الحياة هنا، حيث تكون الملك في غياب الملك، الذي لم يفكر يوماً في زيارة هذه الأرض، ورؤية ممتلكاته فيها، لأنه لا يتخيل أن يمشي على أرض السود، أو يتعامل معهم، فليكن هو الملك في بلجيكا، ولأكن أنا الملك هنا في الكونغو.

جرت الأمور تماماً كما خططت لها، بعد أن نجحت في السيطرة على العديد من الثورات التي قامت بها بعض القبائل، حتى حضر السيد جورج واشنطن وليامز، ذلك المزعج إلى الحد الذي وددت معه قتله، ولولا خوفي من تبعات الأمر لكنت فعلتها دون تردد، لكنه يحمل الجنسية الأميركية، وليس كونغوليا، رغم أنه يملك لون أهلها ذاته، وفي حال أصابه شيء، فإن الولايات المتحدة لن تهدأ حتى تصبَّ جامّ غضبها على بلجيكا، وقد يُكتشف كل ما يحدث هنا.

أتى السيد وليامز ليرى الكونغو الحرة، مُبدياً رغبته في العيش والعمل فيها، لكنه رأى عكس ما توقّع. لا أفهم لماذا قبل الملك ليوبولد الثاني بحضوره إلى هنا، ومنحه تصريحاً بالتنقّل في كل البلاد، دون اعتراض طريقه، كما حمل أمراً منه بتوفير بعض المعاونين له في تنقلاته تلك، وتوفير المؤونة والمعدات التي يحتاجها، وهو يعرف تماماً أن ما ينشره حول الكونغو الحر، ليس هو فعلاً ما يحدث، وكأن المتاعب التي نواجهها لا تكفينا، فأرسله ليكملها.

يبدو أن الملك كان يحاول إغواءه ليرضى، ولكن هذا الرجل لم يعجبه شيء، وظل ينتقد ما نفعله طوال الوقت، حتى أصابني الصداع من حديثه، وأصبحت أضطر للابتعاد عن طريقه كلما لمحته مقترباً من مكان وجودي.

أرسلت إلى الملك ليوبولد الثاني أبلغه بانزعاجي من الرجل الذي حضر حاملاً رسالةً منه شخصياً لمساعدته في معرفة ما يود معرفته، وأوضحت لجلالته خطر وجود هذا الرجل هنا، لأنه ينتقد كل صغيرةٍ وكبيرةٍ تقع عليها عينه، كما أننا اضطررنا إلى التوقّف عن الكثير من الأعمال المخالفة، خشية أن يطّلع عليها، ويكتب عنها، ويؤلِّب الدول الأخرى علينا، خاصة أنها كانت غاضبة من قرار فرض الجمارك على رحلاتها في نهر الكونغو، وهذا سيزيد من خسائر الملك. لكنني تفاجأت برد الملك، الذي جاء ليطمئنني بأن كل شيء سيكون بخير، وأن ادعاءاته لن تجد أذناً صاغية، لأنه اتفق مع العديد من الصحف، لتنشر أعمال الخير التي نقوم بها، والكنائس التي افتتحناها في الكونغو، وتحول العديد من السكان للمسيحية، كما أنه سيشكل لجنةً تنظر في ادعاءات وليامز، وهو وحده من سيُعِدُّ تقرير اللجنة قبل أن تأتي.

بعد طمأنة الملك لي، وتأكيده سيطرته على الوضع، تركت وليامز يُكمل ما بدأه، والتفتُّ لعملي الذي توقّف منذ حضوره، فما دام الملك قد قرر ما سيفعله للرد على ما سيدّعيه، فلا خوف من ثرثرته، ولا بد أن صوته سيُخمد بمرور الوقت مهما علا، وظن أنه وصل.

عدت للاهتمام بجمع المطاط لأني أعلم أن أي تهاونٍ من قبلي يقابله تراخٍ كبير من العمال، وإن لم أتابع الجنود بنفسي فلن يقوموا بما يجب تجاه العمال المتكاسلين الذين لا

يأتون بما يُطلب منهم، رغم أننا لا نطلب الكثير، ولكن هؤلاء الكونغوليين كسالى، لا يحبون العمل، ويتهرّبون من أدائه، لذلك أضطر لذهابي شخصياً إلى مواقع العمل لأتأكد من إتيانهم بالحصيلة المطلوبة منهم.

رؤية الأجساد السوداء متوقفة عن العمل يزعجني أيّما إزعاج، كما أن المطاط كان يسيل في أحيانٍ كثيرة على الأرض، مما يتسبب بتلفه. ولتلافي حدوث ذلك جعلتهم يجففون المطاط المستخرج من الشجر على أجساد العاجزين عن الوقوف، بدلا من إنهاكهم بالوقوف الطويل لملء السلال، ومن ثم ننتزعه من أجسادهم بعد جفافه.

حتى هذه المعاملة المترفة لم تُجدِ معهم نفعاً، إنهم سيئون إلى درجة تصعب معها الثقة بهم، والاطمئنان إلى إخلاصهم، فهم بطبيعتهم غدّارون، ولذلك اضطررت إلى الحكم على أحدهم بالإعدام بعد أن حاول سرقة المطاط الملتصق بجلده.

"ما حاجتنا لجلدك؟ نحن نريد المطاط فقط"

أجبته، لكثرة محاولته الإنكار، مبرراً هربه بعدم احتماله للألم المصاحب لانتزاع المطاط من جسده، وأن جلده كله انتُزع مع المطاط، ثم التفتُّ لجنودي:

"أعيدوا لهم جلدوهم، سلموهم إياها في أياديهم، كي لا يتهمنا أحد بعده بأننا نطمع في جِلده"

أتعبني ذلك الرجل كثيراً، وأضاع وقتي، إذ كان لا بد من عقابه قبل إعدامه، فأمرت بإلصاق المطاط في جسده بأكمله، ثم انتزاعه، وإلصاق مطاطٍ آخر بجسده منزوع الجلد، داعياً رجالي إلى عدم الالتفات لصراخه المصطنع، وادعائه لعدم قدرته على التحمل. وحتى أشُلَّ مقاومته أمرتهم بربط جسده في جذع شجرةٍ ممدودٍ على الأرض، ومحفورٍ منتصفه،

حيث وضع عنقه، وتم ربطها بالسلاسل، بينما قُيّدت قدماه في جذعٍ آخر، وكان وجهه متجهاً صوب الأرض، والشيكوت يلسع جسده العاري تماماً.

لا أستطيع استيعاب ترف هؤلاء السود، إنهم يصرخون متألمين، وكأن ما نمارسه عليهم مؤلم فعلا. يا لأجسادهم الناعمة.

لم أعد أحتمل صراخه، وبات منظر جسده النازف ومؤخرته المتقرّحة يشعرانني بالغثيان فأطلقت رصاصة على رأسه، وأمرت بحمله بعيداً عني كي لا أراه، فقد بدا جسده مقززاً، وكل ذلك الذباب لا يفارقه.

الفترة الطويلة التي عشتها في أفريقيا جعلتني أفهم هؤلاء البشر جيداً، فهم كالحيوانات تماماً، بل إنهم لم يكتسبوا من عيشهم الطويل مع الحيوانات إلا صفاتها السيئة. إنهم غدّارون لا يمكن الركون إلى جانبهم، وعليك النوم بعينٍ مفتوحة خشية أن ينقلب عليك أحدهم فجأة. كما أنهم كاذبون، يملكون القدرة على سرد الادعاءات وكأنها حقائق لا جدال فيها، ومثلهم السيد ويليامز، ولكن ما الغريب في ذلك؟ ألم يكن في الأصل واحداً منهم؟

رحل السيد ويليامز أخيراً، واصفاً ما رآه بالوحشية، وبأن ما ننشره لا يعكس الواقع الذي رآه، وأننا نضلل الناس في مؤتمراتنا التي لا تهدف إلا للعناية بمصالح الملك، في حين أن الناس هنا يموتون باستمرار.

كأن والديه لم يكونا عبدين تم شراؤهما من بلدٍ ما، أتى هنا ليُلقي علينا مواعظه باعتباره قسّاً سابقاً، ولا أدري من أين أتى بتلك الجملة التي لم أسمع بها من قبل، ويرددها بشكل مستمر. أظنه كان يقول "حقوق الإنسان"، أو جملة قريبة منها، لست متأكداً بالضبط،

ولكن ما أنا متأكد منه أن الإنسان الذي يقصده لا يعيش هنا، فليس هنا إلا الحيوانات ذوات الرجلين.

هل كان يظنّ أنّنا سنسمح لهم بأن يثوروا علينا، ونتركهم يقتلوننا؟ أم توقع أن نؤيدهم في مطالبهم، ونخدمهم في هذه المنطقة البعيدة تمام البعد عن الحياة بأبسط متطلباتها، والمليئة بالذباب، والبعوض، والأمراض، وأن نعلمهم القراءة والكتابة، ونفتح العيادات للملايين منهم، ولا أستبعد أن يصل تفكيره الطائش إلى تزاوجنا معهم، ومنح أسمائنا لأبنائهم وإن نبتوا من أصلابنا.

إننا نفعل ما قد يفعله أي إنسان آخر، ولكن وليامز هذا لا يفهم، أو ربما كان يطمح للشهرة التي رآها في مخالفة توجهاتنا، والثورة على ما نفعله، ولكنه لم يعرف للأسف أنه كان يلعب ضد الشخص الخاطئ، والشخص الخاطئ هذا هو من سيقضي على أحلامه تلك قبل أن تزدهر في رأسه.

الناس هنا اعتادوا على الحروب فيما بينهم، وسطو القبائل القوية على القبائل الأضعف، كما اعتادوا على العبودية. حتى إنهم يسلمونك أعناقهم بعد ضربة واحدة بالشيكوت، لتضع فيها قيدك وتجرّهم من دون مقاومة.

لا يمكن أن تغيّر ما تعودوا عليه، إلا بأن تكون أنت من يقتل، ويسطو، ويسرق، دون أن تمنحهم فرصة الرد أو الاعتراض على ما تفعله، وأن توقف كل تمرّدٍ يحاول التكوّن، قبل أن يكبر، وينجح في النيل منك، والقضاء عليك، ليتخلّصوا من عاداتهم تلك بنسيانها، أو اليأس من فاعليتها.

بعد الثورات المتكررة هنا، اكتشفت أن جماجم الثّوار صالحة للزراعة بشكلٍ لم أتوقعه، لذا، وبعد تجربتها، امتلأت بها حديقتي، فزرعت فيها الزهور الاستوائية، بينما استخدمت أجسادهم كسمادٍ للنباتات التي نمت، وازدادت ثمارها، فصرت كلما رأيتها ذابلة، أو نقص محصولها، بحثت عن ثورةٍ لأخمدها، وأُطعمَ أشجاري الجائعة.

منذ أتيت إلى الكونغو، وأنا أستمتع بعملي. لم أفكر يوماً في زيارة بلجيكا، رغم رفاهية الحياة هناك، مقارنة بالحياة البدائية هنا، إلا أنني أجد متعةً فيما أفعله، حتى أسرتي لم أرسل لها منذ مدة طويلة زادت على السنوات الثلاث، ولا أعلم ما سر الحنين الذي شعرت به فجأة، وجعلني أفتح خزانتي، وأرسل بعض المال إلى أمي مع أحد الرجال العائدين في زيارةٍ قصيرة إلى بلجيكا.

وجد الرجل المنزل خالياً إلا من أبي الغائب عن وعيه نتيجة سكره المستمر بعد غياب أمي، وهروب من تبقّى من أخوتي جميعهم في إثرها، ولم يتمكن أحد من الجيران من إيصاله لهم، فلا أحد يعلم عنهم شيئاً، ولكن أحدهم أخبره أن الناس يظنون أن أبي قد قتل أمي، وادّعى هروبها، ليهرب من قبضة العدالة. أما أخوتي فحين استنكروا غياب أمي، خرجوا ليبحثوا عنها، وكانوا يعودون خائبين في كل مرة، ويأكلون اللحم الذي طبخه لهم أبي في غيابهم، ليتمكنوا من مواصلة البحث في اليوم التالي. ورغم غياب أمي، أحبّ أخوتي طعم اللحم الذي يتذوّقونه للمرة الأولى في حياتهم.

الملك ليوبولد الثاني

6–6

من كان يعرف تلك البقعة الغائصة في أدغال أفريقيا المظلمة، تلك التي تقف الشمس فوق رأسها، ولا تطأها، لكثرة الأشجار المتعانقة في غاباتها؟ بقعة مجهولة حتى من الرب نفسه الذي نسيها هناك دون أن يمنحها بعض الحضارة، وحين انتبه إليها، وهاله حجم التخلّف الذي يسكنها، والبؤس المندّس في ملامح أهلها، ألقى صورتها في قلبي، لأذهب إليها، وأنقذها.

إن كل ما أفعله، إنما أفعله بأمر الرب، حين ألهمني النظر إلى الكونغو في خرائط كازا لونجا، وجعلني أتخيّلها في برج جيرالدا الخالد، بتمثالٍ في قمّته على هيئتي يدور باتجاه الشمس كلما عانقته الريح. أنا لست إلا رسول الرب إلى أولئك المدفونين في تلك الغابة، وكان لزاماً عليّ الذهاب، أو إرسال بعض رجالي ليمدوا لهم السكك الحديدية عبر غاباتهم، والإبحار بسفننا البخارية في أنهارهم.

كل ذلك من أجل التخفيف عنهم، وحمل المؤن والمعدات إلى داخل الغابة، والبضائع إلى الساحل حيث تنتظرها سفننا التي روّجت لبضائعهم المختلفة، وجعلت التجار يذهبون إلى هناك من كل دول أوروبا. ألا يُسمى ذلك ازدهاراً اقتصادياً لتلك البلاد التي لم يعرفها أحد قبل إرسالي ستانلي إليها لاستكشافها؟

يتهمونني الآن بجرائم يمارسونها على بعضهم بعضاً، متناسين ماضيهم الأسود، والملكة رانافالونا الأولى التي حكمت مدغشقر، البلد القريب منهم، واستعبادها لشعبها، وإجبارهم على العمل دون مقابل، وإعدامها الكثير من المنتسبين لحركة المسيحية الملاغاشية في بلادها بطريقة وحشية، بقذفهم من أعلى جبلٍ وهم مقيدون، ليسقطوا في مكانٍ تملؤه الحجارة المدببة التي تُقطِّع أجسادهم. فهل فعلت أنا مثلها؟ بالتّأكيد لم أفعل.

هل يعقل أنهم لم يعرفوا عنها، وعن محاكماتها الغريبة، وحكم تانجينا الذي تطبقه على الذين تود إثبات ولائهم لها من عدمه؟ فتجبرهم على ابتلاع جلود ثلاث دجاجاتٍ كاملة، يأكلون بعدها ثمار تانجينا السامة، ثم تجبرهم على التقيؤ. فإن تقيؤوا الجلودَ كاملةً نجَوا، وإن تقيؤوها ناقصةً أو مُتقطّعةً أعدمتهم مباشرة، وبالطبع لم ينجُ من تلك المحاكمات أحد.

ألم تقطع تلك الملكة أطراف المقصّرين من العمال، وتشطر أجسادهم إلى نصفين؟ إن جنودي لم يفعلوا ما كانت تفعله، إلا حين يضطرون فقط، وإلا فإنهم يحافظون عليهم لأداء المناط بهم من أعمال.

إن كل ما فعلناه من خيرٍ لهم قلبوه شراً، وها نحن نعاني منهم، ويتصدّر اسمي الصحف بصفتي رجلاً مُستبداً، يقتل السود، ويستعبدهم، وينهب أرضهم دون وجه حق، والمضحك أنهم يجدون من يساندهم من الأوروبيين.

لا يفهم المواطنون الأوروبيون الداعون إلى وقف استكشافاتنا في الكونغو، وقتل الناس هناك، والتخلي عن ذلك البلد الذي أصبح ملكي، أنه لا يمكن التعامل مع أولئك السكان البدائيين إلا بهذه الطريقة. فهم متمردون، لا يمكن الوثوق بهم، أو الاطمئنان إلى

الهدوء الساكن في ملامحهم، لأنهم قد يغدرون بك في أيّ لحظة، ويطعنونك في ظهرك، دون أدنى إحساسٍ بالذنب، وكثيراً ما حدث هذا الأمر. فهل كان خطؤنا عدم نشر ثوراتهم الدائمة، وقتلهم جنودنا وضباطنا هناك خشية أن يتراجع الأوروبيون عن الذهاب، والتوقف عن نشر الحضارة هناك؟

يتحدثون عن انتهاكات يقوم بها رجالي، ويحمّلوني المسؤولية كاملة، ولكن ما دخلي أنا بتجاوزات يقوم بها الجنود الأفارقة الذين اعتادوا على مثل تلك الأفعال الوحشية في حياتهم الطبيعية. إنهم مجرمون بطبيعتهم، تسطو كل قبيلةٍ على الأخرى، وتنهب ممتلكاتها، وأراضيها، ونساءها، وأطفالها، بعد أن تقتل رجالها، ورغم ذلك فقد أمرت حُكّام الأقاليم، والضباط هناك بمعاقبة كل المتجاوزين.

لقد حوكم الكثير من رجالي، وعوقبوا، كلٌّ بقدر جرمه الذي ارتكبه. وإذا كنا لم نحكم على أحدهم بالإعدام، فلأننا في بلجيكا لا نُعاقب به، بعد أن أوقف أبي الحكم بالإعدام قبل وفاته بعامين، رغم أنه لم يفعل ذلك بشكل رسمي، ولكن، احتراماً لذكراه لا يمكننا تطبيقه على ضباطنا البلجيكيين هناك، ونكتفي بتطبيقه على الجنود الأفارقة، إذ نضطر لمحاكمتهم وفق قوانينهم، لنؤكد لهم سيادتهم، وأننا لم نذهب إليهم لنحتل بلادهم، أو لنفرض عليهم قوانيننا التي نعمل بها في بلادنا.

يهاجمني الأوروبيون بدلا من الترحيب بي كشريك لهم في أفريقيا، ليس حبا بالكونغو وأهلها، بل لأنهم مصدومون من وصولي إليها قبلهم، ومتعجبون من عدم انتباههم لها، رغم أنها كانت غير بعيدة عن مستعمراتهم، ويودون لو يتقاسمون ممتلكاتي هناك.

لا بد أن بريطانيا تقف وراء موريل، الذي ينشر الأكاذيب حول الجرائم التي ترتكبها قواتي في الكونغو في صحيفته التي أنشأها لمهاجمتي بعد أن طردته من شركة إلد دمبستر المسيّرة للرحلات البحرية من بلجيكا إلى الكونغو.

لو لم يكن مدعوما من بلده لقبل المال الذي عرضته عليه، ولخشي من إغلاق الشركة التي يعمل بها، ولم يجد من يسانده على تأسيس رابطة إصلاح الكونغو، التي دعت إلى تحرير وإنقاذ من أسماهم بالمساكين، واستقطبت المساعدات التي جعلته يقف في وجهي وكأنه ندٌّ لي.

رغم بشاعة ما يحاول نسبه إلينا، فإنه ليس أشد قسوة مما تفعله بريطانيا في الأمازون، لكنها تتصرف كأنها لا تعلم عن مخالفات شركة خوليو. س. آرانا، ولا تتحدث صحفهم عن عمليات الإبادة الحاصلة هناك، ولا تذكر أقفاص العقاب، حيث يضعون المعاقَب في قفصٍ خشبي، مُقرفَصاً لعدة أيام، تُحيط القيود الخشبية بيديه، وقدميه، وعنقه، ولا يخرج إلا للضرب، أو بعد موته، بينما يُحرم من الطعام والشراب خلال مدة حبسه، ولا عمليات التعذيب، والخصي، والكي بالنار، ولا وسم AC الماثل في أرداف العاملين في تلك الشركة، لمنعهم من الهرب، أو محاولة مساعدتهم وتشغيلهم من قبل آخرين.

لماذا أذهب بعيداً إلى الأمازون؟ سأُذكِّر بريطانيا بما تفعله بالتعاون مع رجالها العرب في زنجبار، ألا تحتاج تجارة القرنفل إلى الكثير من الرقيق، ليقوموا بزراعة تلك الأشجار، ومن ثم حصاد ثمارها؟ ألم تصمت عن تجاوزات السكان هناك، ومتاجرتهم في الرقيق، رغم أن زنجبار تحت حمايتها؟ فكيف لا يملكون منع تلك التجارة، إذا كانوا قادرين على تنصيب الملك الذي يتوافق مع مصالحهم؟

لا أظن بأنهم يحتاجون إلى من يُذكرهم بقصفهم للقصر الرئاسي هناك، لإزاحة السيد خالد بن برغش عن الحكم الذي استولى عليه بعد وفاة السلطان حمد بن ثويني، وتنصيبهم لعميلهم السيد حمود بن محمد.

إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن بريطانيا قادرة على فعل ما تشاء في أي وقت في زنجبار، وإلا لما بدأت حربا وأنهتها خلال خمس وأربعين دقيقة فقط. إن هذه الحرب هي أقصر حرب يمكن أن تحدث في التاريخ، وللعجب بعد هذا كله، أنها لم تستطع منع تجارة الرقيق هناك.

هل يجب عليّ الضحك من هذه التناقضات؟ أم أصمت، وأمثل دور الأحمق الذي لا يعرف أن هذه الحرب ضدي ليست من باب حب بريطانيا، والدول المتآمرة معها للكونغو وأهلها، بل إنها لا تتعدى الغيظ من استيلائي عليها، ووصولي إليها قبلهم، ومحاولة سلبها مني.

إن بريطانيا تستطيع أن تخدع العالم كله، ولكنها لن تخدعني، فالعبيد الذين باعتهم إلى أميركا أكثر بكثير من العبيد الذين يشتريهم العرب، ويتاجرون فيهم، وأكثر من أولئك الذين دفع بهم الرجل العربي المدعو تيبو تيب للعمل معي كجنود نظير مَبالغَ زهيدة، كنت أرجو ألا أدفعها لولا حاجتي للعدد الذي سيوفره لي من الرجال.

لم يكن لديّ من خيار إلا التعاون مع ذلك الرجل الداهية، فقد كان ينافسني على الكونغو، مثله مثل بريطانيا ودول أوروبا الأخرى، بعد أن وصل إلى ستانلي فولس، وحارب قبائل نيام نيام، وهزمهم واستولى على ممتلكاتهم، وسبي أبناءهم، ولو لم يقبل

بالتعاون معي لاضطررت إلى خوضٍ حربٍ لا أضمن نتيجتها، ولا بد أن بريطانيا ستدعمه فيها.

***

لو كان الأفارقة بشرا مثلنا، لكانوا يسكنون قصورا مطلية بالذهب، وتتدلى من أجسادهم قلائد الألماس بدلا من أوراق الشجر التي بالكاد تستر عوراتهم، ولا أظنها تفعل ذلك فعلاً، حسب ما تُصوّر لي الصور التي يبعثها لي رجالي هناك. عندما أرسلت لهم قطع الأقمشة ليواروا أجسادهم خلفها، قطّعوها، وأحلوها محل أوراق الأشجار.

لقد اعتادوا العيش في الظلام، والخوف من كل شيء لم يألفوه، لذلك يهربون كلما لمحوا غريباً قادماً باتجاههم، لدرجة أن يتركوا أطفالهم خلفهم، ولا يأبهوا بهم إن ماتوا جوعاً، أو نهشت أجسادهم الصغيرة الحيوانات. هل يوجد من هو أشد وحشية من أولئك الأهل الذين لا يفكرون إلا في النجاة بأنفسهم فقط؟ إن الحيوان ذاته لا يفعلها، والغريب أنهم يتهموننا بأننا السبب في موت الكثيرين منهم.

ألم يمت منهم أحد قبل ذهابنا إليهم؟ ألم تقتلهم الأمراض التي لا حصر لها؟ هل كان لديهم طبيب واحد لمعالجتهم، وصرف حبة دواء لمن هو على شفير الموت، فينقذونه، أو على الأقل يُعمِّدونه ليموت مُخلصاً للمسيح، بدل ذهابه إلى الجحيم؟

ما معنى أن يموت بعضهم؟ سيموتون بوجودنا وعدمه، وقد ينقرضون دون أن يعلم عن وجودهم أحد، وستذهب خيرات بلادهم هدراً، حتى يأتي مستكشف ما وينهبها. كل ما

فعلته أنا أنني بعثت ذلك المستكشف، ولكني لم أسمح له بنهبها، بل جعلت كل ما يجده ملكي، بموجب عقد بيعٍ وقّعوا عليه برضاهم.

أنا لم أسرق شيئاً، لقد دفعت مقابلاً لكل ما أحضروه لي من كنوز، قد لا يكون المقابل مالاً يمكن عدّه ورؤيته في أيديهم، فلا حاجة لأولئك المغيّبين هناك للمال، ثم إنهم لم يعتادوا التعامل به، فقد اعتادوا مقايضة البضائع، وقد قايضتُ الثروات التي أخذتها بسكة الحديد التي أقمتها لهم، وتوفير الكثير من الوظائف لرجالها العاطلين، الذين لا عمل لهم إلا النوم، وملاحقة الحيوانات لأكلها، والرقص حول النيران، وإنجاب المزيد من الأطفال، الذين يكبرون ليصبحوا مثل آبائهم.

إنني أدفع أكثر مما تستحق تلك البضائع. أدفع لأهل الأرض ثمنها، وأدفع عمولة لرجالي الوسطاء بيني وبينهم، نظير ما يجلبونه من بضائع ثمينة، وأدفع من أجل الوصول إلى تلك البضائع، ومن أجل إيصالها إلي، ولا أنال منها إلا القليل مما لا يعوضني خسائري.

لقد دفعت الكثير من أجل أن يُبصروا الحياة التي يستحقونها، ولكنهم يُصرّون على المضي في حياةٍ بائسة بعيدة عن أبسط مظاهر التمدّن، حياةٍ يرقصون فيها شبه عراة تحت سماءٍ غاب قمرها، ليعود لهم قبل أن يغرقوا في ظلامٍ سرمدي، لأنهم لا يعلمون عن دورة القمر، وأنه سيظهر حتى ولو لم يرقصوا لأجله.

أشعر بإحباط كبير. يبدو أنني سأظل أتنازل شيئاً فشيئاً، أهب هذا شِبراً، وأهب ذاك شبرين، كُلٌّ بحسب قوته، وحاجتي لصمته، واستمرار تنازلاتي قد يجعلني أجد نفسي ذات يوم وقد فرّطت في الكونغو، وتسرّبت كلها من بين يديّ، كما يتسرّب ماء المطر إلى جوف الأرض بعد انقطاعه، دون أن تنبت خلفه شجرة واحدة.

تمتدُّ الكونغو كل ليلةٍ في رأسي قبل أن أنام، أراني ملكاً لي مطلق الصلاحية، بلا برلمان يقف في وجه قراراتي، ولا ماري هنرييت وبناتها العاقّات يتجولن في طُرُقها التي هيأها رجالي. لا أحد سواي وصغيرتي كارولين، وحدها هذه الفاتنة من بين كل النساء اللواتي عرفتهن، واللواتي يصعب عليّ عدّهن، من يستحق حمل لقب ملكة الكونغو.

لكن ما أراه يتبدد كلما فكرت في المؤامرات المحاكة ضدي. لم أعد أنام، ينقضُّ الأرق على غفوتي، ويبتلعها. أشعر أن تعبي يوشِكُ أن يضيع هدراً، ما بنيته طوال عمري، سيهدّه بعض الحمقى ممن يُطلقون على أنفسهم حُماة الإنسانية، ولا أظن أن قلبي سيتحمّل حدوث ذلك، لأن حدوثه يعني خسارةً فادحةً لا يمكنني بأي حالٍ تعويضها، وأنا أعلم أن أوروبا كلها تنتظر وقوعي لتنهش أملاكي، وتتقاسمها، وأولها الكونغو ليوبولد.

الأميرة لويزا

2–2

الكونغو ليست الابنة الرابعة لأبي، إنها ابنه الذي مات، أو ذاك الذي انتظره ولم يأتِ، لذلك كان حظها أفضل بكثير من حظنا نحن الأخوات الثلاث. ففي حين يُقتّر علينا، كان يُسرف في الصرف عليها، حتى إن أمي قالت له يوماً غاضبةً:

"يبدو أننا سنُعلن إفلاسنا بسبب الكونغو هذه"

لا أعلم ما الذي يحبه في الكونغو، ما أعلمه أن أحاديثه لا تكاد تخلو من ذكر اسمها، وكثيرا من سمعناه يذكرها في نوبات غضبه، أو حين يثور على أحد موظفيه، وحتى عندما يلتقي إحدانا صدفةً، تمشي في الممر فيبادرها بقوله:

"ليتني أستطيع إرسالكِ إلى الكونغو"

ودون انتظار الرد، أو توضيح ما يرمي إليه بقوله، يذهب تاركاً خلفه عشرات الاستفهامات المعلقة كطاحونةٍ في الهواء، لا تعلم متى يجب عليها التوقف، تمر عليها الريح، وتتركها وهي تدور مكانها.

دقيقة رغم رتابتها، كالساعة كانت تمضي حياة أبي، يستيقظ عند الفجر، يشرب كوباً من الماء الدافئ، ثم يخرج للمشي في الحديقة، قبل أن يعود لتناول إفطاره الذي يبدو أنه يتناوله وهو غائب عن وعيه، لأنه يأكل كما لا نأكل أنا وأمي وأختاي مُجتمعات،

وكذلك غداؤه الذي قد يأكل فيه طائرين مشويين كبيرين، وبعض الخبز والخضار، كعشائه تماماً، وما بين الوجبات يجتمع بوزرائه، ومعاونيه، يشرح خططه، ويُصدرُ أوامره، ويُرسل رسائله، ولا أذكر عن أبي يوماً سفره إلى أي مكانٍ للنزهة، أو الترفيه عن النفس.

بعد زواجي انتقلت للعيش في النمسا، لدى زوجي الأمير فيليب، أمير ساكس كوبورغ وغوتا، وأنجبت منه طفلين على أمل أن تتحسن الحياة بيننا بمرور الوقت كما قالت أمي، التي ظلت طوال حياتها ترجو أن تتحسن حياتها مع أبي، ولكن ذلك لم يحدث، والحقيقة أنني لم أذق طعم السعادة منذ اليوم الأول لزواجي. أعتقد أن الجملة الأصح هي أن أقول إني لم أعرف السعادة، تلك التي يتحدثون عنها منذ ولدت.

منحت وقتي لطفليّ ليوبولد ودوروثي، في محاولة لنسيان أنوثتي التي أهملها الأمير فيليب، وبدا واضحاً أنه ليس إلا نسخة سيئة من أبي، الذي ذهبت إليه ليُطلقني من الأمير فيليب، فرفض، وطردني، ناعتاً إياي بالمستهترة، والطائشة، التي ستفسد كل شيء.

بعد اثنين وعشرين عاماً من العيش في ظل علاقةٍ بائسة، وبعد أن رفض أبي مساعدتي، وهددني بحرماني ميراثه، ذاك الذي لم أتنعّم به في حياته، طلبت من المحكمة تطليقي، وألححت في ذلك، لكنها رفضت، فلم أجد بدّاً من الهروب مع الكونت جيزا ماتشيك، الذي تعرفت إليه في براتر في فيينا، وأحببته بعدما نجح في التسلل إلى روحي الظامئة لقطرة حبٍّ، في ظل سماء لا تُزهر في فضائها سحابة واحدة.

أخذت معي ابنتي دوروثي، وكانت حينها في السادسة عشرة من عمرها، وذهبنا إلى جنوب فرنسا للعيش مع ماتشيك. نظر الجميع إلى الأمر كفضيحة طالت العائلة بأكملها، وكأن العائلة كانت تشعر بمعاناتي، أو وقفت معي وأنا أطرق الأبواب واحداً تلو

الآخر لتخليصي من علاقة كانت تقتلني كل يوم، ولم أجد منها إلا طلب الاستمرار في حياةٍ أشبه بحياة أمي إن لم تكن أسوأ.

أن تكون إنساناً بسيطاً، ذا دخلٍ متوسطٍ أو بسيط، أو حتى دون دخل، فإن ذلك أفضل من أن تكون أميراً. ففي تلك الحال أنت على الأقل حر، تفعل ما تشاء بالطريقة التي تناسبك، دون أن يحاسبك أحد، أما في وضعٍ كوضعي، يحاسبك على أفعالك كلُّ أحد، سواء كانوا أكبر، أو أصغر منك.

تبرأ مني ابني، الذي رأى أن تصرفي تسبب في حرمانه الفرصة في وراثة الحكم، وسرعان ما لحقته دوروثي أيضاً بعد أن طلب منها خطيبها تركي، قبل أن أُفسد سمعتها، فأطاعته وهجرتني، وهكذا لم يتبقَّ لي إلا ماتشيك الذي دخل هو الآخر إلى السجن بعد مبارزته مع الأمير فيليب الذي دعاه للمبارزة على أن يُطلّقني إن هُزِم، أو أعود إليه في حال تمكنه من هزيمة ماتشيك، فلم يفطن ماتشيك إلى أن الأمر مجرد مكيدة للتخلص منه.

حُكم على ماتشيك بالسجن أربع سنوات، بعد جرحه للأمير فيليب، بينما خُيّرتُ بين العودة للأمير فيليب أو دخول مصحة للأمراض العقلية، باعتبار أن ما أفعله يعد ضرباً من الجنون، فاخترت دخول المصحة على العودة إليه.

قبل ذلك بسنوات عدّة ترمّلت ستيفاني بعد انتحار زوجها وعشيقته، إذ تعاهدا أن يقتلها ثم ينتحر، ليواصلا الحياة معاً بعد الموت، طالما لم يمتلكا فرصة في البقاء معاً في هذه الحياة، فوجِدا قتيلين في مايرلينغ في غابات فيينا.

لم يكن الأمر صادماً لستيفاني، فعند أول زيارةٍ له أثناء خطبته لها، أحضر الأرشيدوق رودولف معه عشيقته الآنسة ماري فيتسيرا، وتلك كانت الصدمة الأولى لها ولنا، ولكنّ

أبي ظل مصراً على الزواج، على أمل أن تصبح ابنته لاحقا إمبراطورة النمسا، بزواجها من وريث سلالة هابسبورغ، ولم يعلم أنه بذلك يمنحها مصير عمتي كارلوتا، التي تزوجت شقيق إمبراطور النمسا، وترمّلت بعد مدة بسيطة من زواجها، عندما عُيّن زوجها إمبراطوراً على المكسيك، وقتله الثوار هناك، بينما ظلت عمتي تنتظره طوال حياتها، حتى جُنّت، وظلت تردد ما تبقّى لها من عمر أن زوجها الإمبراطور ماسكيميليان أرسل لها أنه سيأتي، وأن عليها تجهيز القصر لاستقباله.

الفرق بين عمتي الأميرة كارلوتا وستيفاني، أن عمتي وزوجها أحبا بعضهما، لقد كانا زوجين مثاليين، ولولا الطمع الذي وُجّه له زوجها، والذي كان لأبي دور كبير فيه، لكانت حياتها مليئة بالسعادة. أما ستيفاني، فلم تحب زوجها، كما لم يحبها هو، وإنه لمن السيّئ جداً أنني أنا من اقترح هذا الزواج، وأعترف الآن أنني أخطأتُ أيّما خطأ.

لا أدري ما الذي دفعني لذلك، أكان الخوف من أن تتزوج ستيفاني رجلاً تحبه، فتعيش حياةً سعيدة بعكسي، أم كانت لي أطماعي أنا أيضاً، وكل ما يحصل الآن ليس إلا عبث أميرة، تبحث عن سعادتها بعد ضياع فرصها فيها.

ماتشيك الذي كان ضابطاً في الجيش يقبع الآن في السجن، وأنا الأميرة لويزا ابنة ملك بلجيكا أقبع في مصحة عقلية، بينما تموت أمي وحيدة في قصر ليكن، حزناً وحسرة مما يفعله أبي من ظهورٍ علني مع عشيقته الأخيرة كارولين ديلاكروا، والتي تصغر أختي الصغيرة كليمنتين بإحدى عشرة سنة.

أسكن أبي كارولين في فيلا فاندربورجت قريباً من قصر ليكن، وليتمكن من الذهاب إليها في أي وقت، أهدر أموال البلاد على إنشاء جسرٍ يصل بين القصر والفيلا، لكن

ذلك لم يمنعها من استقبال عشيقها، بعد أن تتعذر منه بإصابتها بالبرد، لمعرفتها بوسوسته، وخوفه من المرض، وخصوصاً التهاب الصدر، الذي أودى بحياة أخي، لذا كان يكفي أن تسعُل أمامه ليهجرها ثلاثة أيام على الأقل تتفرّغ خلالها لعشيقها.

لقد جعلنا مثاراً للسخرية، ففي حين تتباهى عاهرته كارولين بتبذير المال، وصرفه بشكلٍ غريب، كنت أنا مدينة واضطررت لإعلان إفلاسي، وهو ما حلم به أبي طوال حياته، فلم يكن يملك حلماً أغلى من امتلاك مستعمرةٍ تدرُّ له ما يطمح إليه من المال، إلا أن يرانا أنا وأختيّ نتمرغ في الفقر، محرومات من ماله حيّاً وميتاً، الأمر الذي جعل إحدى الصحف تصوّرنا في مشهد كاريكاتوري ساخر، ونحن نرجوه أن يمنحنا ملابس عشيقته القديمة التي لم تعد بحاجة إليها، بعد أن صرفت ما لا يقل عن ثلاثة ملايين فرنك دفعة واحدة على شراء ملابس لها من متجر كالو.

تشبه الآنسة دي لاكروا أمي كثيراً في شبابها، كلاهما أحبت الحياة حدّ المجاهرة بذلك الحب، وكان لكل منهما طريقتها في المجاهرة به، دون الالتفات لما يُلاك في غيابهن من تعليقات. لكن المرأة التي لم يستلطفها أبي في شبابه في صورة أمي، عشقها حد الجنون في شيخوخته حين تلبّست وجه دي لاكروا.

احتملت أمي خيانات أبي التي لا حصر لها، واحتملت قسوته، وجبروته، لكنها لم تحتمل ظهوره العلني مع دي لاكروا، وحضورها جنازة الملكة فكتوريا معه، فكان ذلك الحضور بمثابة الرصاصة التي انطلقت لصدر أمي مباشرة فأردتها قتيلة، لأنها لم تتخيل أن يجاهر بخيانتها إلى هذا الحد القبيح، والمذل، رغم علمها بخياناته المستمرة لها، ورغم انتهاء دورها في حياته منذ أمدٍ بعيد.

تحوّل الناس من الحديث عن فضيحتي، حين تركت زوجي، وتبعت الرجل الذي أحبه، بعد أن رفضت المحكمة تطليقي، إلى الحديث عن أبي وعشيقته الصغيرة التي لم تبلغ العشرين عاماً بعد، مما تسبب بموت أمي، لأتعلم بموتها الدرس الذي لم تعلمني إياه في حياتها: أن أعيش حياتي كما أحب لا كما يتوجّب عليّ.

في الوقت الذي كان فيه أبي يبحث عن سعادته الخاصة، وتحقيق رغباته، كنا نحن بناته ننتقل من بؤسٍ إلى آخر، دون أن يلتفت إلينا، أو يمد لنا يده لينتشلنا مما نعانيه. وبدلاً من أن نجده معنا، كان يقف ضدنا، وكأننا أعداؤه الذين يحاربهم في الكونغو. وفي الوقت الذي كانت فيه عشيقته تصرف الملايين، اضطررت لسرقة المال من حساب أختي الأميرة ستيفاني، وكدت أدخل السجن، بعد أن زورت توقيعها لشراء بعض الملابس التي أحتاجها، ولحسن الحظ أنها غضت طرفها عن هذا الأمر بعد أن اعتذرت لها، ووعدتها بعدم تكراره.

كانت ستيفاني في تلك الفترة تعيش حياةٍ طيبةً مع الكونت المجري إليمر لونياي، الذي تزوجته بعد أن أحبا بعضهما، فأخذت الإذن من المحكمة، بسبب رفض أبي زواجهما، ومثلي تماماً طردها من القصر، ومن حياته، وممتلكاته، ولكن زوجها كان يملك ما يكفي من المال ليُكملا حياةً تليق بهما.

لم يبقَ من أملٍ لأبي في توريث الحكم لسلالته إلا أختي كليمنتين، فقرر تزويجها من الأمير بودوان ابن عمي الأمير فيليب، باعتبار أنه وريث العرش الذي كان يُفترض أن يعقب والدي بسبب وفاة أخي ليوبولد، وعدم إنجاب أمي صبيا بعده. لكن بودوان لم

يحقق لأبي أطماعه بعد أن توفي في الحادية والعشرين من عمره، وخيبت كليمنتين أمله مرة أخرى بعد تعرفها على الأمير نابليون فيكتور بونابرت، وريث الإمبراطورية النابليونية.

لو أن كليمنتين التقت الأمير نابليون في وقتٍ سابق لطار أبي فرحاً، لكنها التقته في الوقت الذي تعارضت فيه مصالحه مع الحكومة الفرنسية الجديدة، فرفض زواجهما، ولم يدرِ أن كليمنتين ليست كأختيها اللتين رضختا لرغباته ومصالحه في تزويجهما، فأصرت على اختيارها، كما أصر هو على رفضه.

ظلت تطلب إذنه المرة تلو الأخرى، وهو يرفض، ويهددها بحرمانها من الميراث إن هي أقدمت على الزواج بغير إذنه. فقررت الإضراب عن الزواج بانتظارِ معجزةٍ ما، لأن أحداً سواها لم يكن يقف في وجه أطماع الآنسة دي لاكروا، بعد أن أحضرها أبي إلى القصر، وأسكنها في غرفة أمي متناسيَين تسببهما بموتها، وأصبحت تتصرف في القصر كعاهرة لا كسيدة، ولكن كليمنتين نجحت في إخراجها بما امتلكته من صلاحيات السيدة الأولى في القصر باعتبارها خَلف أمي، مما جعل أبي يقدم طلباً جديداً للبرلمان ليحرمنا من الميراث.

لم يكد يمضِ بعض الوقت حتى أنجبت كارولين لأبي الابن الذي حلُم به، وبعد لوسيان بعام أنجبت له ولداً ثانياً، ولولا أن هذين الولدين كانا ضمن علاقة غير شرعية، لدخلا ضمن ترتيب ورثة عرش بلجيكا، رغم أن أبي حاول وضع الجميع أمام الأمر الواقع بعد أن تزوج كارولين في أيامه الأخيرة، لكنه ولحسن الحظ لم يتمكن من تسجيل الزواج مدنيا، مما جعل القانون يرفض الاعتراف به، رغم اعتباره شرعياً بسبب اعتراف الكنيسة به.

إن الحياة عادلة، وهي تفعل ذلك بالشكل الذي لا نتوقعه، وفي الوقت الذي لا ننتظره، وكل ما نفعله يرتدُّ إلينا بشكلٍ ما، ولعل أبشع صور هذا العدل يد هنري، الابن الثاني

لكارولينا، الذي ولِد بيدٍ مشوهة، كأيادي أطفال الكونغو التي تتحدث عنها الصحف، وتنشرها على صفحاتها الأولى.

رحل أبي دون أن يأخذ معه شيئاً، أو يترك لنا ولو القليل، ولم نتخيل أن يتحايل على رفض البرلمان لطلباته المتكررة لحرماننا من الميراث، بأن يمنح كل ممتلكاته إلى كارولين في حياته، ولا يبقي لبلجيكا إلا ما أوصى به، أو باعه إياها في حياته، ووهب ثمنه أيضاً لعاهرته الصغيرة.

تزوجت كليمنتين من نابليون بعد وفاة أبي، فحضرت حفل زواجهما الذي أقيم في قلعة مونكاليري في إيطاليا، ثم عدت إلى بلجيكا وسكنت في القصر الذي منحتني إياه الملكة إليزابيث زوجة ابن عمي ألبرت الذي أصبح ملكاً بعد أبي، بعد أن فشلنا في استعادة بعض الأملاك التي تركها لكارولين، أو البارونة كارولين – كما أصبحت – لأنه منحها اللقب قبل وفاته.

تبرأ منا والدي، ووهب كل ممتلكاته في حياته لعشيقته، التي سارعت بعد موته بعام واحدٍ فقط إلى الزواج بحبيبها السابق الضابط الذي رماها إلى حضن أبي لتسطو على ما تستطيع من أملاكه، فكان قوّاداً بارعاً لعاهرته الصغيرة، ونجح في اصطياد ملك عجوز، أعاره عشيقته بضع سنوات، واستردها بعد وفاته محملةً بالثروات التي لم يحلما بها يوماً.

أتأمل قصر أبي كلما مررت بجواره، أتحسس جدرانه ولا يحق لي دخوله. لا أتذكر خطواتي الأولى بداخله، ولا انبهار أطفالي بالحيوانات التي أحضرها من الكونغو، وأسكنها حديقة القصر، ولا النباتات التي زرعها فيها لتذكره بها. كل ذلك لم يعد له وجود في

ذاكرتي. وحده صوت بكائي وأخواتي كلما مر بجانبنا وأمرنا بالابتعاد عن طريقه ما زال يتردّد في أذني في كل لحظة.

إن الحياة مضحكة بشكلٍ مؤلم. ففي حين استولى أبي على ثروات الكونغو، استولت كارولين دي لاكروا على ثرواته. ولأنها أكثر من استفاد من دخله من الكونغو في الفترة التي كانت فيها على علاقة به، أصبحت هي ملكتها، التي لم ترث ملكاً، أو ينتخبها أحد، لكن الجميع استمروا بمناداتها: "ملكة الكونغو".

أدموند موريل

2–2

هل أنا ممسوس بالكونغو حقاً – كما تظن زوجتي، ويشاركها كيسمنت الرأي – أم أنني مجرد رجل لم يحتمل كل تلك البشاعة، وكل ذلك الإجرام؟ رجل كان يرى في المستعمرات تحضراً وتمدُّناً للإنسان البدائي في تلك البلدان، ولم يكن يظن أن الموت الذي يلاقيه أولئك البدائيون أسوأ من مجرد عملية قتل. لقد كان تشويهاً وإذلالاً بالمقام الأول، وإن أولئك البدائيين لو أُتيح لهم الخيار لاختاروا الجهل على الموت، والوثنية التي سمحت لهم بالحياة على المسيحية التي أحضرت الموت في طريقها إليهم.

لم تعد صحيفة بريد غرب أفريقيا – رغم نجاحها – كافية لإيصال صورة ما يحدث هناك إلى العالم، لذا اقترح كيسمنت علينا إنشاء رابطة، نقوم من خلالها بحملة لإعادة الكونغو لأهله، الأمر الذي وافقته عليه زوجتي، فاضطررت لموافقتهما بعد اعتراضي المبدئي، لتيقني بصعوبة الأمر، الذي سيكون مرهقاً جداً، ويستنزف وقتي الذي كان بالأساس ممتلئاً إلى حدٍّ لا يحتمل إضافة مهمّاتٍ أخرى.

الكونغو وما يحدث فيه من تجاوزات كان شغلي الشاغل، حتى إن زوجتي هي من كانت تقوم بالاهتمام بأبنائي، كما أن جمعيةً كجمعية حماية السكان الأصليين قد لا

تقبل بوجود منافسٍ لها، ولكنني استسلمت لهما أخيراً، بعد أن نجحا في إقناعي، خاصة أن زوجتي أعلنت أن العبء الأكبر سيقع عليها، وهي راضية به.

أنشأنا رابطة إصلاح الكونغو، وكان كيسمنت أول من تبرع لها بمئة جنية، كما تبرع لها الكثيرون بعد أن وجدت تأييداً من شخصيات ذات شأن كبير، من ضمنهم رجال كنيسة وبرلمانيون، ودوقات، واتفقنا على أن يكون للرابطة نشرة شهرية، ننشر فيها كل ما يقع تحت أيدينا من معلومات.

كيسمنت رجل كريم، يتبرع من ماله لكل عملٍ يظنُّ أنه سيجلب الخير للبشر، ولو عنى ذلك أن ينام بعض الليالي دون عشاء. لا يفكر مطلقاً في ادّخار أي مبلغٍ، وحين كنت أنصحه بذلك، كان يسألني وهو يعرف إجابتي مسبقاً:

''هل تستطيع أنت أن تفعلها؟''

وكأننا في معركة حاسمة، فيها منتصر وخاسر، أصبحت والملك ليوبولد الثاني في صراع مستمر، بُعضه معلن، وأغلبه خفي. فما ينشره كلانا يكون نتاج عمل واجتماعات لا تنتهي، ومصروفات لا نهائية، معتمدا هو على ثروته التي كوّنها من الكونغو، بينما اعتمدتُ أنا على تبرعات الناس الذين آمنوا بالقضية.

لن أنسى تلك المرأة المسنة التي حضرت في أحد الأيام لتتبرع بمدخرات حياتها كلها لأجل تحرير الكونغو من حكم الملك ليوبولد الثاني. تلك المرأة ولِدتْ عبدة، وتحررت بعد إلغاء العبودية في بريطانيا، فلم نأخذ منها إلا دولاراً واحداً تقديراً لمبادرتها، لعلمنا أنها تحتاج إلى ذلك المال الذي ادّخرته لشيخوختها أكثر منا، فتركناه لها، وأقنعناها أننا اكتفينا، بعد أن كدنا نيأس من عودتها بالمال.

بدأ الملك هجمة صحافية مضادة بالتفتيش عن جرائم بريطانيا في أفريقيا، وبالأخص في نيجيريا وسييراليون، مدعياً أن ما أفعله ليس سوى خطة دنيئة لمنح بريطانيا العذر لمحاربة بلجيكا والاستيلاء على الكونغو، جازماً بأنني أفعل ما أفعله مدفوعاً من حكومة بلادي الطامعة في مستعمرةٍ جديدة، نجح هو في الوصول إليها قبلها، رغم أنها كانت قريبة من مستعمراتها الأخرى، ورغم أن ستانلي حاول كثيراً لفت أنظار بلاده إليها قبل أن يقبل بالتعاون معه.

مقابل ما ننشره حول جرائم الملك في الكونغو تمت طباعة العديد من الكتب والنشرات والمقالات الصحافية التي تدافع عن سياسته هناك بعد أن تعاون معه الكثير من الكُتّاب والصحافيين مقابل المال، فتعمد الإساءة للأشخاص المناهضين له، وحتى مراقبتهم، للبحث عن أيّ ثغرة يمكنه التسلل إليهم من خلالها، أو تهديدهم بها.

أغرى المال أصحاب بعض الصحف لنشر ما يريده الملك، ولكن لحسن الحظ ظل بعضها محافظا على نزاهته، لدرجة أن إحداها بدلاً من القبول بعرضه، أجرت تحقيقاً صحافيّاً للبحث عما يحدث هناك، واستطلاع آراء الناس فيما يحدث، وخرجت بنتيجة أن المال الذي أراد الملك شراء صوتها به، ليس إلا مالاً منهوباً، دفعه الكثير من الفقراء ببيع أطفالهم وزوجاتهم وأراضيهم تحت التهديد بالسلاح.

جشع الملك جعله يظن أنه يستطيع شراء كل الناس بالمال، كما حرص هو على جمعه، لذلك وفي خطوة ظنها محسوبة كوّن لجنة لتقصي الحقائق في الكونغو، والاستماع إلى شهادات الناس هناك، ليثبت أن ما ننشره غير صحيح، وهيأ الأمر لينقل لهم الناس الشهادات التي تُرضي أعضاء اللجنة عن الملك، ورجاله هناك، ليكتبوا تقريراً لمصلحته.

لكن تلك الشهادات كان لها أثرها الصادم، فأصيب أحد أعضائها باكتئاب نتيجة ما توصلوا إليه من تقارير بشعة عما يحدث هناك، ولم يكد يمر أسبوعان حتى انتحر بقطع عنقه بشفرة حلاقة.

لم يكن هذا نذير الشؤم الوحيد على عمل تلك اللجنة، رغم أنه كان أسوأها. لكنّ أحد القضاة الثلاثة من أعضاء اللجنة لم يتمالك نفسه، وبدأ بالبكاء بكاءً مراً وهو يستمع للشهادات حول جرائم قوات ليوبولد الثاني، وفي النهاية جاء تقريرها موافقا لما ننشره.

حاول الملك التلاعب بالتقرير المكون من 150 صفحة، وبعث إلى الصحف ملخصاً للتقرير نشرته أغلبها، وهلل أعوان الملك لكذب ما ننشره، وكدنا أن نقع في أزمة، خاصة أن الملك كان يهدد دائماً برفع قضية لإيقافي عن ممارسة مهنة الصحافة، أو حتى مجرد الكتابة، لكن الأمر اكتُشف بعد أيامٍ عدة، بعدما تُرجم التقرير ترجمة صحيحة، مما أثار فضيحة أخرى للملك.

أثار التقرير المكتوب الذي تم نشره لاحقاً سخط أوروبا بأكملها، بعد أن صوّر الأجساد المعلقة في أغصان الأشجار من أقدامها، والنار أسفل منها، تشويها بهدوءٍ لتنضج على نارٍ هادئة.

قد يكون بعض الأفارقة من آكلي لحوم البشر فعلاً، لكنّ بعض ضبّاط الملك أصبحوا أسوأ منهم. فأولئك لا يأكلون البشر إلا في طقوسهم التي يقيمونها بين فترةٍ وأخرى، أما جنود الملك فقد كانوا يتلذذون برؤية تلك الأجساد المشويّة، والأعضاء المقطعة، وقد

أشاع السكان أن المعلبات التي رُسمت عليها حيوانات، لم تكن إلا أيادي أهل الكونغو وأقدامهم المقطوعة، قد فُرِمت وحُفظت في تلك العلب المعدنية.

من القصص المؤلمة التي ذكرها التقرير، قصة المرأة التي نجحت في الوصول إلى اللجنة، وأخبرتها أنها الناجية الوحيدة من بين عشر نساء قتل الضابط الذي يدير المقاطعة تسعاً منهن، بعد أن لمح ورقة شجر في فناء منزله، الذي قامت بتنظيفه هي ومن معها في السجن من النساء ممن أُخذ أزواجهن للعمل، وتم سجنهن وأطفالهن كرهائن، حتى يعود أزواجهن بما طلبه منهم من المطاط. وقبل أن يبدأ تنفيذ الأمر، وجدت نفسها تجري في الغابة دون أن تفكر إلى أين ستتجه، أو إن كانت ستنجو فعلا، ولكنها سمعته يقول لجنوده وهو يضحك:

"دعوها تذهب، ستعود تتوسلنا لنقتلها"

قالت تلك المرأة أنهن وأطفالهن كانوا يعانون من الجوع، ويحرمون من الطعام أياماً، كما كان يمنع النّساء من الذهاب لقضاء حوائجهنّ، فإن فعلتها إحداهن أجبرها على أكل فضلاتها لتنظيف المكان، مما جعل عدداً كبيراً منهن يمرض ويموت.

أما الأطفال فكانوا يتناقصون لأنهم يُقدَّمون طعاماً لهن بعد تجويعهن أياماً، ولكلابه الشرسة التي يربيها، ثم بكت وهي تقول:

"لم نكن نعلم أن اللحم الذي نأكله هو لحم أبنائنا، لأنهم كانوا في سجنٍ آخر بعيدٍ عنا، وحين يحضرون لنا الطعام نكون قد شارفنا على الهلاك جوعاً، فنأكل دون أن نفكر، إنّه لمن الغريب أن يأتي هذا الرجل السيئ والبخيل لنا باللحم لنأكله. حتى أتى في أحد

الأيام بطفلٍ يبكي، ورماه لكلابه تنهشه وهو حيّ حتى مات، ثم رمى بنتف اللحم التي أبقتها كلابه إلينا، ولم نعرف هو ابن أي واحدةٍ منا".

القتل في الكونغو كان بمثابة الهواية التي يمارسها ضباط الملك، وجنوده، لا يفرق عن صيد الحيوانات البرية، أو صيد الأسماك، أو حتى تجميع عينة من النباتات، لذلك لم يكن غريباً قتل رجلٍ لأنه أحضر خمسين سلةً من المطاط، إحداها فقط لم تكن ممتلئة كما يجب.

التقرير الذي كتبته اللجنة كان مؤثراً، لكنه لم يكن ليقضي على الملك لولا أنه وقع ضحية الأشخاص السيئين الذين يتعامل معهم، فكان ما فعله المحامي كووالسكي بمثابة الضربة القاضية، التي لم يتمكن بعدها الملك من النهوض، واضطر للتضحية.

تعاون الملك مع المحامي كووالسكي لدعمه في حملته لتلميع صورته، وتبيان فضائل ما يفعله في الكونغو، وأن ما ننشره ليس إلا ادعاءات لا صحة لها. لكنّ كووالسكي الذي قبض أجره من الملك، وأجراً آخر على سكوته بعد أن أنهى ليوبولد الثاني العقد معه، بسبب كسله الدائم، وإصابته بمرض النوم المفاجئ الذي خشي معه أن يشي بما بينهما، فيفضحه، صَدمَ الملك بفعلٍ لم يتوقّعه.

نشر كووالسكي كل الأدلة على الرِّشى التي دفعها الملك له، أو تلك التي دفعها هو للصحافيين، وأعضاء الكونجرس، مدعياً أن أحدهم سطا على مكتبه، ولكن الحقيقة أنه هو من باع كل تلك الوثائق، مُرجِعاً الصفعة التي بدأها الملك ليوبولد الثاني بإنهاء عقد التعامل معه، بطلقةٍ في الصدر، لم يتمكن الملك ولا أعوانه من فعل شيء تجاهها، وهو ما أدى إلى إعلان وزير الخارجية الأميركي التعاون مع بريطانيا في الضغط على الملك لإنهاء

حكمه للكونغو، وكانت تلك أكبر ضربة توجّه للملك، دون أن يتمكن من تفاديها أو ردها.

ما نشره كووالسكي جعل بلجيكا في وضع محرج أمام العالم، ولكن الملك ليوبولد الثاني يعرف كيف يكسب من خساراته، فساوم البرلمان وأقنعه بشراء الكونغو منه، بدل أن تأخذها الدول الأخرى، لتتحول بذلك من مستعمرة ليوبولدية إلى مستعمرة بلجيكية، وهكذا قبض الملك ثمن الكونغو التي وهبها لبلجيكا في وصيته.

انتقلت ملكية الكونغو إلى بلجيكا، وهو ما وجد قبولا من مجلس العموم البريطاني، الذي ارتأى أن حكم بلجيكا للكونغو، سيتشكّل من خلاله الكثير من اللجان التي ستراقب ما يحدث هناك، لمنع أيّ تجاوزات مما حدث في عهد ليوبولد الثاني، وبذلك انتهت الحرب بيني وبين الملك ليوبولد الثاني، وظننت أني خرجت منها منتصراً، ولم أكن أعلم أن أولئك البشر المسحوقين هناك، كانوا كعبدٍ انتقلت ملكيته من سيدٍ إلى آخر، وأنني وكيسمنت سندفع الثمن بعد سنوات، عندما نكون قد نسينا الأمر، أو تناسيناه.

***

”السجن أحب إليّ من الدفع بأبناء بلدي إلى حربٍ لا فائدة منها، حربٍ ليس لنا منها، ولا فيها شيء“

هذا ما قلته في المحكمة، بعد اتهامي بنشر وتوزيع ما يناهض سياسة بريطانيا، بعد ما يقارب العشر سنوات على نجاح حملتي ضد الملك ليوبولد الثاني، عندما ذهبت إلى السجن، ليس لأني دافعت عن أولئك الذين يُقتلون في الكونغو، بل لأن بلادي التي

أحبها وأبناءها بشكلٍ استثنائي، بعثت أبناءها إلى الموت من خلال مشاركتها في حربٍ كان يمكنها ألا تكون جزءاً منها، ولأنني كتبت كثيراً أدعو إلى السلام، ونزع السلاح، وإلى تشكيل مجلس دولي يضم كل الدول، وجدت نفسي أقاد إلى السجن.

لم أتوقّع يومها أن يخطر الملك ليوبولد الثاني ومعركتي معه ببالي، حتى أتى أحد رجاله إلى قاعة المحكمة، وأعطى رسالة للقاضي الذي هز رأسه قبل أن يُصدر الحكم، ويغادر الرجل كما جاء دون أن يُثير انتباه أحدٍ سواي.

لا أدري لماذا شعرت بأن من أصدر الحكم عليّ كان الملك ليوبولد الثاني، بعد أن استيقظ في قبره، وأرسل ذلك الرجل للقاضي، لينتقم مني لإفشالي مخططاته في حكم الكونغو، وإنني أتساءل الآن عن مدى تأثير الملك الميت في الحكم على كيسمنت بالإعدام.

كيسمنت الذي خذلته عندما لم أوقع على المذكرة المطالبة بتبرئته، أو تخفيف الحكم عليه من الإعدام إلى السجن، والتي لم تُجدِ نفعاً لأنه اعترف بذنبه، الذي لم يكن إلا رغبته باستقلال إيرلندا من تبعية بريطانيا، لأن هذه التعبية تجعل من إيرلندا كونغو ثانية، مُعلناً أنه سيموت وهو راضٍ لأنه يموت من أجل إيرلندا.

قبل تنفيذ حكم الإعدام، ترك كيسمنت رسالة لي، وصلتني بعد موته، ولم أتمكن من منع الشعور بالخزي، والخجل من ضعفي، لأني لم أذهب إلى زيارته في سجن بينتونفيل، فقد بدا طيبا ومتسامحا كعادته، وأخبرني أنه يتفهّم عدم زيارتي له، وأنه يرجو أن أكون بخير، وأضاف:

"لا أعلم الأخبار التي تنشرها الصحف عني، لأن الصحف – كما تعلم – لا تصل إلى السجن، ولكن كل من يأتي لزيارتي يقول بأن ما يُنشر عني مُخجل، وإني لأرجو يا صديقي ألا تُصدِّقَ ما يُقال عني، إن كان بذلك السوء الذي يتحدثون عنه".

تمنيت يومها لو أتمكن من الرد عليه، وطمأنته أنني لن أصدق أبداً أنه لم يكن إلا رجلاً شاذاً، وأن ما قيل إنها مذكراته، ليست إلا ادعاءات لإثارة الرأي العام المتعاطف معه، وتأليبه ضده. فكيسمنت الذي وقف في أحد الأيام بوجه ضابطٍ بلجيكي، وسحب الشيكوت من يده، مُعرّضاً نفسه للقتل لحماية شابٍّ أفريقي قصير، فاقدٍ للوعي بسبب الضربات التي تلقّاها، ثم أخذه معه لمعالجته، ليتبعه ذلك الفتى بعدها، ويقرر المجئ معه إلى أوروبا، ويقضي باقي العمر في خدمته، لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك بدافع الشذوذ.

"لقد عشتُ معه طويلاً، ولم أرَ منه مثل هذا الكلام القبيح الذي يقولونه".

يدافع شارلي عن منقذه فيخجلني رده، أنا صديقه الذي تخلّى عنه، وامتنع عن التوقيع على الطلب المقدم للحكومة البريطانية لتخفيف الحكم عنه، فكيف أغفر لنفسي جُبني، مهما بررتُه بخوفي على قضيتي العادلة من أن يتم الربط بين تعاون كيسمنت مع ألمانيا لاستقلال إيرلندا، وبين دعوتي إلى السلام وعدم الدخول في الحرب التي كانت ألمانيا عدو بريطانيا فيها، ولكن لن يُجدي الآن الندم، ولن أتمكن من طلب الصفح من كيسمنت بعد إعدامه.

"لقد ارتكبت أخطاء مروعة، والكثير من الأعمال السيئة، وفشلت كثيرا، ولكن أعظم حدث في حياتي كان الكونغو".

بهذه العبارة أنهى كيسمنت رسالته لي، وقد تحدّث القسيس الذي رافقه إلى المشنقة أنه كان يسير بهدوءٍ ووقارٍ كمن وُلِدَ أميراً، أما الجلاد فقد قال إنه لم يجد رجلاً شجاعاً مثله، وهو يُقاد إلى الموت، وكأنه يمشي في حفل تتويج، أما أنا فأخطو على أرضية السجن بتثاقلٍ شديد، بعد أن أمر القاضي بأخذي إليه لتنفيذ حكمه عليّ. عيناي على قدميّ الحافيتين اللتين بدأتا بالتحول إلى اللون الأسود، وشيئاً فشيئاً كنت أشعر أن ثقل ألواح خشب القنب الكبيرة التي أحملها فوق كتفي يزداد، ويشدني إلى الأرض التي بدأت تفقد صلابتها، بينما كانت قدماي تغوصان في الوحل.

جدران السجن اختفت، وحلت محلها أشجار غابات الكونغو الوارفة. سمعت شتائم الجنود المسؤولين عن حراستي وأنا أُقاد ليُنفذ بي الحكم الصادر ضدي، بعد أن تعثّرتُ لأن إحدى قدميّ غاصت في الوحل أكثر من أختها، وقبل أن أقع على الأرض كانت سياط الشيكوت تجري على ظهري.

لم تنتهِ الحكاية. إنّ أبطالها يتكاثرون في هذه الحياة، فانتبه وتلفّتْ جيداً حتى لا تقعَ في شبكةٍ نصبَها أحدُهم، أو تتحوّلَ في غمضة عينٍ إلى فومبي.

حول الكتاب

نبذة

ستانلي هو الاسم الذي اختاره لنفسه بعدما عجزت أمّه عن تحديد من هو أبوه. لحظةٌ فارقة ستكون بداية مصادفات كثيرة تحدّد مسار حياته.

من ليفربول ينتقل على متن سفينة إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث سينسى أصله البريطاني ويقاتل مع جيش الجنوبيين أثناء الحرب الأهلية، قبل أن يغدو مراسلاً صحافياً يتملّكه الشغف لاكتشاف أسرار أفريقيا وقد باتت مطمع كلّ الدول الاستعمارية.

بينما يبحث الملك البلجيكي ليوبولد الثاني عن مجدٍ لمملكته الصغيرة، يجد في الكونغو ضالّته، فيكون ستانلي وقد غدا صحافياً مرموقاً سنداً له في ذلك.

ببعض الحيلة والخداع والكثير من الظلم والعنف تصير الكونغو مستعمرةً بلجيكية لتغوص الرواية في تفاصيل الاضطهاد والظلم والآليات التي تُنهب فيها ثروات الشعوب تحت مسمّى تحرير الإنسان وتصدير الديموقراطية.

عن المؤلف

بدرية البدري شاعرة وروائية من سلطنة عمان. لها عدد من الإصدارات في الرواية والشعر وأدب الطفل. حصلت على جوائز عدّة منها «جائزة الإبداع الثقافي» لعام 2019 عن روايتها 'ظل هيرمافروديتوس'. ووصلت روايتها 'سموثي المغامر' للقائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد فرع أدب الأطفال والناشئة 2021.

'لغة جميلة وسردٌ رصين'

عن روايتها 'ما وراء الفقد'، صحيفة الصحوة

ستانلي هو الاسم الذي اختاره لنفسه بعدما عجزت أمّه عن تحديد من هو أبوه. لحظةٌ فارقة ستكون بداية مصادفات كثيرة تحدّد مسار حياته.

من ليفربول ينتقل على متن سفينة إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث سينسى أصله البريطاني ويقاتل مع جيش الجنوبيين أثناء الحرب الأهلية، قبل أن يغدو مراسلاً صحافياً يتملّكه الشغف لاكتشاف أسرار أفريقيا وقد باتت مطمع كلّ الدول الاستعمارية.

بينما يبحث الملك البلجيكي ليوبولد الثاني عن مجدٍ لمملكته الصغيرة، يجد في الكونغو ضالّته، فيكون ستانلي وقد غدا صحافياً مرموقاً سنداً له في ذلك.

ببعض الحيلة والخداع والكثير من الظلم والعنف تصير الكونغو مستعمرةً بلجيكية لتغوص الرواية في تفاصيل الاضطهاد والظلم والآليات التي تُنهب فيها ثروات الشعوب تحت مسمّى تحرير الإنسان وتصدير الديموقراطية.

بدرية البدري شاعرة وروائية من سلطنة عمان. لها عدد من الإصدارات في الرواية والشعر وأدب الطفل. حازت جوائز عدّة منها 'جائزة الإبداع الثقافي' لعام 2019 عن روايتها 'ظل هيرمافروديتوس'. كما وصلت روايتها 'سموثي المغامر' إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد فرع أدب الأطفال والناشئة 2021.

ISBN 978-614-03-2244-8

9 786140 322448

DAR AL-SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com

مكتبة نوميديا